

بلزاک

الناعقون



علي مولا

روائع الروايات العالمية

بـلـزـاك

الناعقون

راجعها وقدم لها

د. شكيب الجابري



عويـدات للنشر والطباعة

بـهـرـوت - لـبـنـان

ص.ب. ٦٢٨ - تـلـفـاكـس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تـلـفـون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار

© عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

LES CHOUANS

BALZAC

لا يجوز نشر أي جزء أو نص من الكتاب أو نقله أو اختزال

مادته بأية طريقة من الطرق المتداولة إلا بإذن من الناشر

وإلا تعرّض الفاعل للملاحقة القانونية

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

مقدمة

كنت أظن انه سيفقد مع الأيام من قدره ، فإذا هو لم يزد مع الأيام إلا مكانة وقدرًا .

وبلذاك اليوم ، عرضة لدراسات على النسق الحديث ، تحاول أن تجد شيئاً جديداً تقوله فيه ، فتكاد لا تجد ، لكثرة ما كُتب عنه وقيل فيه . وهذا من دلائل نبوغه وخلوده .

وان كانت بعض الدراسات الحديثة التي تدور اليوم حول بلزاك تبدو مبتكرة جديدة الموضوع لأول وهلة ، فما هي كذلك في الواقع . إن هي إلا تفصيل لما سبق أن قاله النقد في بلزاك ، وتوضيح موسّع لفكرة قديمة خيل للنقد الحديث انها مدخل لقلع جديد يستثمره الناقد على حساب أدب بلزاك ليستهلكه ملايين القراء في العالم الذين فتنهم بلزاك ولا يزال ، جيلاً بعد جيل . وان خيل الى الناس أن آثار بلزاك لا بد لها ان تجري فيها سنة الكون التي قضت بأن يكون لكل شيء في العالم ، وبخاصة نتاج الفكر الأدبي ، مراحل طبيعية يمر بها ، شأنه كشأن كل شيء مخلوق ، وتنتهي كلها بمرحلة الانحدار وأهم دلائلها انصراف المعجبين وتطاول البقاع . لو خيل اليهم ان أدب بلزاك يعاني اليوم أعراض مرحلة الشيخوخة بالنسبة الى القراء ، فان الدلائل لتدل على ان الأدب البلازكي لم يبلغ بعد مرحلة انقراض القراء من حوله وتكرر النقاد له ولو اشتدت من حوله منافسة الأدب الحديث الذي لا يتأخر عن

الترويج لسلعته على حساب النتاج الجيد ، بكل نوع من انواع الزينة والبهرجة الجريئة التي يتقبلها مجتمع اليوم ، ويسيفها ، ويتلف لها ، وهي في عهد بلزاك كانت تُعد من الكباثر التي كان يحل معها احراق الكتاب والرجم والتشهير .

وان بدا لقارئ السطور السابقة انها تحوي عدداً من الكلمات والتعابير التي تمت الى الاقتصاد اكثر منها الى الأدب الصرف فأغلب الظن انها جرت على القلم عفواً ومن غير تعمد ، متأثرةً بذلك السيل من الدراسات الاخيرة التي أخذت تتناول الأدب البلازي من ناحيته الاقتصادية ، وبكلمة اوضح ، تتناول من تلك الناحية التي يكاد لا يخلو منها كتاب من كتب بلزاك الكثيرة ، وهي الناحية المالية او الاقتصادية . ففي كل رواية كتبها بلزاك لا بد ، في الحقيقة ، من دائن ومدين ، وفوائد فاحشة ومراب لعين ؛ وبيع وشراء ، وعمل دائب لانسان ما من الناس العديدين الذين يشكلون المسرح البلازي باعدادهم الوفيرة ، وطبقاتهم المختلفة . بل قد تجد في معظم آثار بلزاك خطوطاً لمشروع من المشاريع الاقتصادية التي يمر بها القارئ المستعجل غير مهم ولا مدرك ، بينما أضحت اليوم ، هي وكل كلمة من كلمات بلزاك التي تمت بصلة قريبة أو بعيدة الى شؤون المال والاقتصاد ، حجارة الخاضة التي يعبر بها النقد الحديث الى حياة المؤلف الخاصة ، لا حياته المادية فحسب بل حياته النفسية بالذات ، وقد يذهب الغلو ببعض نقاد اليوم الى القول بأن بلزاك ان ابقى في آثاره الضخمة شيئاً يعكس دخيلة نفسه ، وجلية اخلاقيه ، وواقع عيشه ، فانما هي تلك الانشودة الطويلة ، التي ما فتئت روحه تتمم بها منذ بدأ حتى انتهى ، والتي كانت تنطلق بعض نبراتها الخافتة من آن لآخر ، الى حيز الوجود الظاهر ، كلماتٍ وصوراً وتعابير مقتضبة ، ظاهرها قليل لكن ما خلفها من نزوع نحو المادة وتشوق الى المال هو الجزء الأكبر والأصدق من بلزاك الحقيقي كما عاش وشعر .

واني لأجديني قد انسقت مع هذه الفكرة وما كان في نيتي أن أفعل ، لبعده موضوعها عن هذه الرواية البديعة (الناعقون) التي تُطلب إلي تقديمها الى قراء

العربية فقبلت العرض مبتهجا مشوقا لمعظم ما احمله بلزلك من اعجاب
ومحبة . ولعلني جرفني التيار الذي انجرف فيه نقاد بلزلك اليوم ، دون
الاستغراق في مثل غلوم ، واستهواني ان اعبر الى حياة الكاتب ، ومن ثم الى أدب
الكاتب ، على معبر المحاضرة ذاته الذي خفت فوقه خطى الناقدن الحديثين ،
مكتفيا بججر واحد لم يلتفت إليه أحد بعد ، وهو الكلمة الأولى التي
افتتح بها بلزلك كتابه هذا ، اي كلمة الإهداء المقتضبة التي صدر بها
روايته :

الى السيد تيودور دبلان

التاجر

الى الصديق الأول كتابي الأول .

وإذا لم تخني الذاكرة فأغلب ظني أني رأيت هذا الإهداء على طبعة قديمة ، مع
توضيح أتمّ لمهنة التاجر المذكور ، الذي اعتبره بلزلك صديقه الاول فأهداه
كتابه الاول . اذ جاء فيها : التاجر في الأوائل المطبخية .

فهل كان هذا التاجر بالأوائل المطبخية فعلا هو الصديق الأول للروائي
الفرنسي الأول حتى يهدي اليه كتابه الأول ؟ ذلك ما يمكن ان يُشكّ فيه .
فالمعروف عن حياة بلزلك انها كانت مملأى بالصحاب والأصدقاء ، بل بالصويجبات
والصديقات المتفانيات ، ولم يجر اسم هذا التاجر في أي من الدراسات التي دارت
حول حياة بلزلك وأدبه منذ نشأته حتى اليوم بينما جاء ذكر كثير من اصدقائه
وخلانته وأقاربه ومعارفه .

وكذلك (الناعقون) . فما كانت هذه الرواية النفيسة هي كتاب بلزلك

الأول بل سبقها آثار كثيرة في القصص والرواية كتبها بلزاك في مستهل شبابه ،
سالكا زي ذلك العهد المولع بقصص المغامرات المعروفة باسم «القصص الأسود» .
لكن هذه الرواية التي صدرت لأول مرة في شهر كانون الثاني ١٨٢٩ ، كانت
هي الأثر الاول الذي أصدره بلزاك باسمه الصريح لا المستعار . وقبل ذلك كان
يصدر قصصه باسم « هوراس دوسانت اوبان » أو باسم « اللورد ر ، وون » .
وعلى هذا اعتبرها بلزاك هي كتابه الاول إذ منحها اسمه ، فكانت جديرة بالاهداء
الى الصديق الاول ، التاجر بالأوائل المطبخية ... أفلا يحق للتأمل ان يشتم من
وراء هذا الاهداء رائحة سند لم يدفع بوقته ويرجو الكاتب تأجيله ، أو معاملة
مالية من عشرات المعاملات المالية التي التفتت بالروائي العظيم وأخذت بخناقته
طوال سنوات الكد التي عرف فيها بلزاك من العسر ألوانا ، ومن ضيق ذات
اليد والديون التي انتهت بشهر الافلاس ، ما أدى به الى طرّق خمسين باباً من
ابواب الاسترضاء والتمني والاستجداء حتى انتهى به المطاف الى باب صديقه
البياع ، فقاوضه سنداً يرجو تأجيله او ديناً يرجو العون على قضائه بشهرة و اعلان
وتخليد صداقة . وسيظل المسكين بلزاك هكذا ، تموج به الديون وتتقاذفه لجح
العسر وتحف به المشا كل حتى اواخر عمره . فاذا كاد يسلم ذاته المنهكة الى
لذائذ الراحة أدركه الموت عام ١٨٥٠ وهو في الحادية والخمسين من عمره ، بعد
شهور معدودة من زواجه من الكونتس اينفلين هنسكا ، بعد حب محرّم تساقياه
سبعة عشر عاماً قبل ان يصل بينهما الرباط المقدس .

كان بلزاك ، كما قدمنا ، ينشر رواياته بأسماء مستعارة لشعوره بأنها لا تزال
نتاج مرحلة التجربة والتمرين . فاذا كملت له العدة وأحس بأنه قد بلغ المرتبة
التي تستأهل ان يكشف فيها عن هويته راح يعد العدة لوضع رواية تجرّي
حوادثها في تلك المناطق الفرنسية بغرب فرنسا التي هبّت ، بُعيد الثورة الفرنسية ،
تدافع عن الملكية ، مستبسة متفانية لما رأته من تتكر رجال الثورة للدين
والاعراف وتقاليد الشهامة القديمة ، ولما روّع البلاد من تطرفهم الدموي
وغدر بعضهم ببعض ، فلا يكاد طاغية منهم يرتفع حتى يطيح برأسه طاغية

من جماعته واخوانه أشد منه بغياً وأقسى. حتى عمت المجازر فرنسا بأسرها وعملت فيها المقصلة في سنين ما لم تفعل مثله في احقاب، وعمّ البلاد بؤس أنساها بؤسها الأستبق الذي قامت الثورة الفرنسية باسمه وبدوافعه، وانقسم الوطن الواحد على نفسه، وذهب الفرنسيون يروون سيوفهم، بعضهم بدماء بعض، حتى طمع بهم الأعداء وأعملوا فيهم نياهم من كل جانب. ثم لم تلبث الجمهورية أن غدت ألعوبة في يد طاغية فرد، حلاله، فانقلبت الجمهورية بين عشية وضحاها امبراطورية، لم تلبث بدورها ان عانت الاضطرابات والبأساء والضنك، فعادت الى «البوربون» تارة اخرى، لكنها عادت مضعضعة منهكة لا تجدي لرفعها وسيلة. فقد عرفت الاضطراب ونشطت روح الفوضى. وبعد ان كانت فيما مضى البلد الأقوى أضحت هي بلد الفوضى والضعف والتشاكس والتشكك والقلق. وظلت تعاني من آثار ذلك زمناً طويلاً.

على ان المسرح الذي اتخذه بلاك لروايته جعله في منطقة بريتانيا التي كانت لا تزال تعيش على الفطرة، وجعل مدار الرواية قصة جرت حوادثها في فوجير، ما بين فتاة مغامرة، اوفدها رجال الثورة الجمهوريون الى تلك المناطق الموالية للملك، ونبييل شاب، أوفده الملكيون ليتولى زعامة الموالين من ابناء المنطقة الغربية لمجاهدة عساكر الجمهورية. وتلتقي الحسناء الجمهورية بالزعيم الملكي، فتكيدله ويكيد لها، وتوقع يجنده ويوقع يجنودها، وتؤذيه مراراً ويؤذيها مرارا. لكن بين قلبيهما جرة لا تزال تستمر وتعمل حتى يدوب القلبان في بوتقة واحدة، واذا هما في حومة الوغى وفي احتدام المعركة، ألعوبة ضعيفة في يد الحب. لكن حبهما بلا نهاية ويومهما بدون غد. كذلك كانت حكاية البطلين.

أما عشرات الأبطال الثانويين، واما ما ندعوه في هذا العصر بـ «الكومبارس»، واما الغيطان والوهاد وتضاريس الارض وألوان الطبيعة، وما بين ذلك من حوار الضباط والجنود، وحديث رجال القصر وابناء الريف والغابة، ففيه من دقة الوصف، وصدق الأداء وبعد الآفاق وطول النفس، ما لا يتأتى لغير بلاك تحقيقه

إلا بشق النفس. ولا عجب فقد قضى بلزاك في فوجير وضواحيها قرابة شهرين ، لم يدع خلالها ميداناً من ميادين المعارك المحلية أو مكاناً أو درباً أو ممراً أو قمة أو غابة ذات بال إلا زارها لا مرة بل مرات ، ولم يدع شاهداً من شهود الحوادث إلا تحدث إليه واستعاد واستنطق وسجّل ودوّن .

وقد زعم بعض نقاد بلزاك انه بلغ في هذه الرواية من الحياد ما بين الجمهوريين والملكيين حدّاً لا يدري أحد فيه حقيقة ميول المؤلف بالنسبة الى الفريقين او النظامين .

وقد كان بلزاك في الواقع ملكي النزعة . لكنه في هذه الرواية آثر ، في كثير من المواقف ، السكوت على بعض المساويء الكبرى لتلايظن قراؤه - ومعظمهم كانوا من بورجوازيي باريس اصحاب الثورة الفرنسية الحقيقيين ووارثي الملكية بجمهوريتهم الاولى - أنّ به ميلاً الى ابناء الريف من ابناء تلك المناطق الثائرة ضد الجمهورية الذين كانوا يسمونهم : الشوان . وقد رافق هذا اللقب شعوراً بالكراهية والاشمئزاز ، حتى كادت كلمة شوان تصبح لدى البورجوازيين الجمهوريين مرادفة لكلمة قاطع طريق . ولما جاء بلزاك بكتابه هذا وأسماء : الشواني الأخير ، احس انه ان خفف من قسوته على جماعة الشوان المقاومين لثورة البورجوازية في باريس فلن يحسن الدفاع عن سمعتهم ويزيل من نفوس القراء ذبول تلك السمعة السيئة التي اقترن بها لقبهم المرعب فكان حذراً .

بل ان الكتاب ، رغم روعته ، لم يلق في طبعته الأولى ، لدى جمهرة القراء ، ما كان يستحقه من استقبال حار ونجاح ورواج .

أما أساطين النقد والأدب ، فقد أحسوا انهم يشهدون ولادة عملاق من عمالقة الرواية في العالم ، وان رواية « الشواني الأخير » ، أو « الشوان » كما سميت بعد ذلك ، او « الناعقون » كما اقترحنا على معربي هذه الرواية ان يسموها ، هي بحق الأثر العظيم الذي يجدر ببلزاك ان يعتبره اول نتاجه الجدي فيعترف به ويمنحه اسمه .

ومرت الاعوام وبلزك يضع الكتاب بعد الكتاب ، وجلها عظيم خالد ، في عالم كانت الرواية فيه لا تزال تحبو شكلاً وموضوعاً . فاذا جاء بلزك ففتح الطرق وعبّد المسالك ، وأبدع ما شاء له الابداع في صنوف شتى وميادين واسعة وأهداف لا تعد ، وعمد الى الانسان ، فصوره في مختلف احواله وظروفه واخلاقه وعقائده واتجاهاته ؛ أقبل رواد الرواية الفرنسية، الحديثة بالنسبة الى ذلك العصر فوجدوا امامهم ألف درب معبد وميدان فسيح ، فترسموا خطى بلزك ودرسوه وحفظوه وتمثلوه واقتفوا آثاره خطوة خطوة واثراً فاثراً حتى بلغ بعضهم في بعض الميادين الروائية مرتبة لم يبلغ اليها بلزك ، ككشأن غوستاف فلوير العظيم . فلو قرأت اشهر رواياته لمست فيها اثر بلزك جلياً واضحاً ملحاً يكاد يهتف باسم بلزك ، المعلم والرائد الأول . فها « مدام بوفاري »^(١) إلا رجماً لـ « الأب غوريو »^(٢) . وما « سامبو »^(٣) إلا صدى ، ولو جدّ بعيد ، من أصداء هذه الرواية التي سنقرؤها بعد دقائق . وان استبعد بعض النقاد زعمنا هذا الأخير فلن يشكّوا بعد أن يعودوا الى الروائتين عودة جديدة ليقارنوا مقارنة من ألمّ بحياة الكاتبين ونتاجها الأدبي .. بل ان حديث الدرهم ، والدين ، والسند ، والاجرة والبيع والشراء ، وبكلمة النزعة الاقتصادية التي تكاد لا يخلو منها اثر من آثار بلزك ، لشدة ما منيت به حياته الخاصة من متاعب المال ومشاكل الاقتصاد ، تراها قد قفزت الى مؤلفات مقتفي آثار بلزك مع ما قفز معها من النزعات العديدة الاخرى التي لا مجال لتفصيلها في هذه المقدمة ، ولو كان مثل هذا العمل كان يمكن ان يكون على غاية من الطرافة والامتناع .

هذا بالنسبة الى تأثير بلزك ، ابتداءً من كتابه الاول هذا الذي أسميناه « الناعقون » ، فيمن عاصره او جاء بعده من كتاب الرواية في فرنسا وخارج فرنسا منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا . اما بالنسبة الى بلزك نفسه فانه بعد ان وضع العديد من رواياته اراد ان يجمع ما تشابه منها وتكامل ، في مجموعة يطلق عليها اسم « الكوميديا الانسانية » . وقد لتلك المجموعة مائة وخسين حلقة ،

(١) جميع هذه الروايات صدرت معربة في منشورات عويدات .

او رواية ، تدور كل واحدة منها حول صورة من صور الحياة وحالة من احوال هذا الانسان البائس الأرعن السخيف الخفيف الذي يعمر الأرض ولا يدري في الحقيقة اي شيء يراد به .. فاذا أحصى بلزاك ما بين يديه من تلك الحلقات من مجموعة المهزلة الانسانية، وحاول ان يصنفها، وجد ان كتابه الاول هذا يمكن ان يأتي في الطليعة من تلك المجموعة، بل هو حري بأن يكون الكتاب الذي بشر بالمجموعة قبل ان تتكون في ذهن الكاتب العبقرى .

على ان بلزاك لو دعا مجموعته ، التي وافاه الأجل قبل ان يتمها ، لو دعاها « المهزلة اللانسانية » لكانت التسمية اصدق وأقرب الى واقع ما جاء من صور الانسان وتصرفاته ، كما سجلها بلزاك وكما نراها فيما حولنا وفي انفسنا بالذات . ان في وصف المهزلة بـ « الانسانية » ، أو نسبتها الى الانسانية ، شيئاً من التسامح ، فالانسانية ، حسب ما جرى به العرف شيء يوحي بالخير واللطف . فاذا تصدى لها بلزاك بالوصف دون افراط في المبالغة ولا مغالاة في التشاؤم ، وجدنا ان المجموعة البلزائية انما سميت بذلك الاسم مجازاً ، لا واقعاً، فما هي بالمهزلة حقاً، وان كانت تدفع الى الضحك والقهقهة لشدة ما فيها من ايلام مثير وفضيحة فاضحة لذلك المخلوق البهيمي الأرعن الدموي الجائر القاسي الذي يدعونه الانسان .

أم لعل بلزاك كان يدعو الاشياء بضد اوصافها ، كما يفعل ابناء الصحراء من العرب، امعاناً منه بالتهكم .. أفلم يفتح هذا الهازيء الكبير ، كتابه الاول ، بـ « النكتة » الأولى الخفية ، اذ رفع ذاك السّفْر الضخم العظيم ، وهو اول حلقة طبيعية من حلقات « المهزلة الانسانية » ، باهدائه المتواضع : الى السيد فلان... ، التاجر بأوائل المطبخ .. كتابي الأول ...

لكم تسمرت عيناى امام هذه الجملة البسيطة ، أمام هذا الاهداء البريء ،

أقرأ وأعيد .. على شفتي ابتسامة ، وفي قلبي لوعة .

.. استجداء ..

تلك أيضاً حلقة من حلقات الكوميديا الانسانية ، الكوميديا اللإنسانية ، المهزلة ، المأساة ، الحلقة الكثيبة التي كانت دوماً وأبدأ هي صلة الوصل ما بين عبقرية الفكر وجبروت المال .. أفلا يزالون يعيبون على شعرائنا وقوفهم فيما مضى بأبواب الملوك !؟

وان كان في رواية بلزك هذه من الهفوات وارتباك بعض العبارات ما يمكن رده أسبابه الى تعجل الكاتب - فقد كتب الرواية في ثلاثة اشهر استجابة لإلحاح ذلك الدين الرهيب الذي لصق به لصوق الهلبلاب بالدوحة السامقة - فان في الترجمة التي بين ايدينا من الهفوات والنقص وارتباك بعض العبارات وبعدها عن روح النص أحياناً ما لا يمكن تعليقه إلا بذلك التسرع الذي ران على صناعة النقل الى العربية ، التي شاعت تسميتها بالتعريب ، والذي لا نجد له مبرراً إلا ان تصورنا ان شأن الكثيرين من معرّبي اليوم لا يختلف كثيراً عن شأن بلزك في ابان ضيقه واشتداد عوزه وإملاقه . هذا الى ما شاع في لغة التعريب من العجمة التي نشأت عن اسباب كثيرة ، أهمها ضعف المعرب في لغته ، وابتعاده عن اساليبها ومقومات الفصاحة والبلاغة فيها ، بل ضعفه فوق ذلك في كثير من الاحيان في اللغة التي ينقل عنها واعتماده على القاموس وحده . وما المعاجم والقواميس بكافية إن لم يعش المعرب طويلاً بين القوم الذين ينقل عنهم ، المدة الكافية لتمثل معاني العبارات والكلمات ويلم بدقائقها وظروفها كما هي في الصميم لا كما تبدو في الظاهر والمعجم . بل ان الكلمات ذاتها وكثيراً من طرق التعبير لتختلف دقائق معانيها مع الزمن حتى يكاد يكون لكل عصر تعابيرها الخاصة وألفاظه المميزة .

على ان بلزك لو قبيض له ان يبعث حياً ليقراً الكتاب ذاته معرباً على النسق الذي جاء في الترجمة التي بين ايدينا ، أو معرباً على ذلك النسق المتصنع

الثقيل اللاعربي الذي يجري فيه النقل برصف لفظة مكان لفظة وعبارةٍ ليست من لغة العرب في شيء مكان العبارة الأجنبية لآثر هذا النقل ولأرضاء هذا التعريب ، رغم هناته .

شكيب الجابري

الأيام

الى السيد تيودور دابلان
التاجر

الى الصديق الأول ، كتابي الأول

بلزك

الفصل الاول

الكمين

في مطلع فاندشير من العام الثامن (للثورة الفرنسية) ، وأواخر ايلول (سبتمبر) ١٧٩٩ ان التزمنا التقيوم الحالي ، كان زهاء مائة من الفلاحين ، وعدد غير يسير من المدنيين يجمعون في جبل « البلين » الواقع بمنتصف الطريق تقريبا ما بين مدينة « فوجير » وبلدة « عرنه » التي اعتاد المسافرون الوقوف بها للاستراحة .. وقد خرجوا من فوجير صباحاً قاصدين بلدة مايان .

كانوا يسرون زمراً متفاوتة العدد ، تعرض للأبصار من غريب أزيائها واختلاف أفرادها باختلاف المهن والمناطق ، مما يجعل مجموعتهم جديرة بالوصف الذي يلم بالفروق المميزة . فيسبغ على القصة رداء من تلك الألوان الحية التي شغف بها الناس في هذه الأيام ، وبالغوا في تقديرها حتى جاوزوا الحدود التي يراها بعض نقادنا ، اذ يزعم هؤلاء ان الألوان الحية تطفئ فتسيء الى تصوير الشاعر .

كان نفر من ابناء الريف ، وكانوا هم الأغلبية في المجموعة ، يمشون حفاة . وما عليهم من الثياب سوى جلد سابغ من جلود المعزى ، يكسومهم من العنق حتى الركبتين ، وبنطال من نسيج أبيض بالغ الخشونة ، يشي غزلة الاشعث بتخلف البلاد الاقتصادي . والتفتت ذؤابات شعرهم السبط الطويل بشعر الجلود فاخفت وجوههم المطرقة حتى ليحسب الناظر ، لأول وهلة ، ان تلك الجلود من بعض تكوينهم ، فلا يفرق بصره ما بين أولئك الأناسي البؤساء والسوائم التي اتخذوا من جلدها لباساً .

لكن حدقات ذات بريق كانت لا تلبث ان تومض من خلال شعورهم كقطرات الندى في الحضرة الكثيفة .

ولئن عبرت نظراتهم تلك عن ذكاء إنسي فقد كانت في الوقت ذاته تبعث في النفس من الرهبة أكثر مما تبعثه فيها من مشاعر الأنس والغبطة .

وعلت رؤوسهم عرقية قدرة من صوف أحمر، ذات شبه بالقلنسوة الفريجية التي اتخذتها « الجمهورية » شعاراً يرمز للحرية . وتكتب^١ كل فرد منهم عصاً غليظة من السنديان الأعجم^٢ ، تدلى من طرفها خرج من الكتان ليس فيه من المتاع والزاد سوى القليل .

وبعضهم جعلوا فوق قلائسهم قبعات خشنة من الجوخ ، عريضة الحفاف ، ازدانت ، على كامل جوانبها ، بعرق^٣ من صوف مختلف الألوان . أما لباسهم الذي كسا جسمهم بتمامه فقد كاد يكون خالياً من أي أثر يمت بصلة الى الحضارة الجديدة . وقد صنع من النسيج ذاك الذي صنعت منه البناتل والخرج لدى الزمرة الاولى من تلك المجموعة البشرية . . وتهدلت شعورهم الطويلة على زيق سترة مستديرة ، ذات جيوب جانبية ، مربعة الشكل ، صغيرة . وكانت السترة تنتهي حيث يبدأ الوركان . وهي من اللباس الذي اختص به فلاحو المناطق الغربية في فرنسا . . وبرزت تحت السترة المفتوحة صدارة من النسيج ذاته مزدانة بأزرار كبار .

وكانت فئة من اولئك المشاة ينتعلون مداساً من خشب ، بينما آثر آخرون الاقتصاد فحملوا مداسهم باليد .

كانت هذه البزة المتسخة لكثرة ما استعملت ، المسودة بفعل العرق والغبار ، والتي لم تبلغ من الطرافة ما بلغه الرداء البدائي الذي سبق وصفه - كانت تلصق البزة تتمتع بميزة تاريخية . . ذلك انها كانت تمثل مرحلة التحول نحو اللباس ذاك

(١) ألقى على منكبته . (٢) ذو العقد .

(٣) العرق في الأصل : الطرة تنسج على جوانب القسطاط .

الذي كاد ان يكون فخماً عظيماً والذي تهادى فيه عدد من الرجال هنا وهناك ، متفرقين موزعين بين المجموعة السائرة ، يتلألؤون خلالها كالأزهار .

بناطيلهم الزرق ، وصُدْرُهُم الحمر او الصفر الحالِية بصفين من الأزرار النحاسية المتوازية كدروع مربعة ، كانت ، في الواقع ، تبرز ، من خلال الجلود القاتمة والثياب البيضاء ، بجوية الترنجان وشقائق النعمان في حقول القمح .

كانت القلة من اولئك المشاة ينتعلون تلك الاحذية الخشبية التي يتقن صنعها فلاحو بريتانيا . لكن أكثرهم اتخذوا أحذية محددة ، وثياباً من قماش شديد الحشونة والغلظ ، فصلت على نسق الثياب الفرنسية القديمة التي لا يزال يحتفظ بها فلاحونا حتى اليوم بتعلق ديني .

كانت قمصانهم تتصل بالبنيقة ، بأزرار من الفضة على هيئة القلب او المِرْسة . وظهرت خروجهم أملئ زاداً ومتاعاً من خروج زملائهم . وأضاف بعضهم الى عُدّة الطريق ، قوارير مملوءة ، بالكحول لا ريب في ذلك ، ربطت بالأمراس الى أعناقهم .

في ذلك الحشد من الرجال ، انصاف المتوحشين ، برزت وجوه نفر من سكان المدينة كأنها وجدت هناك ، لتمثل المرحلة الأخيرة من مراحل الحضارة في تلك البقاع النائية .

كان اختلاف أزيائهم لا يقل إثارة عن اختلاف أزياء رفاق دريهم من الفلاحين ، على رؤوسهم قبعات مستديرة او عرقيات ، او عمرات ، وفي أرجلهم جزم ذات رداءات او أحذية مشدودة بالمسامي^١ .

وكان في ألبستهم من الفروق الشاسعة والاختلاف البيّن قدر ما في ألبسة الفلاحين ، وبينهم عشرة من الرجال يرتدون تلك السترة الجمهورية ، الشهيرة باسم (الكرمانبول) ، وآخرون تدهنوا من الرأس حتى القدم بقطعة من الجوخ ، ذات لون واحد ، وهم لا شك من أغنياء رجال الحرف اليدوية .

(١) المسماة : ما يسمونه بالعامية الطباقات .

وأكثر الجماعة تألقاً تميزوا بالفراخ أو الردنكوت . وكلاهما من جوخ أزرق
أو أخضر براه لسان الزمان . وكانوا يمثلون الشخصيات ذات الشأن ، فينتعلون
جزماً مختلفة الأشكال ، وتلوه أيديهم بعصي غلاظ كدأب السادة الذين يستقبلون
صروف الدهر بالابتسامة .

كانت بعض تلك الرؤوس تعلن ، بما ذر على شعورها من مساحيق للزينة ،
وبضفائرها المدلاة على الظهر ، المجدولة جدلاً لا يخلو من العناية ، عن ذلك
النوع من التألق الذي يدل على تبشير عهد حديث من النعمة والتحضر .
فاذا تأمل المرء أولئك الرجال الذين أذهلهم التلاقي هناك ، كأنهم جمعوا
بعامل من عوامل المصادفة ، حسبهم سكان قرية ضخمة أجلاهم الحريق عن دورهم .
لكن المكان والزمان أضفيا على ذلك الجمع معنى أشد اثاره للاهتمام . فمن
حسن اطلاعه ، من المراقبين ، على ما كان يخلق فرنسا من الخلافات الداخلية ،
كان يسيراً عليه ان يتبين العدد الضئيل من المواطنين الذين كان يمكن ان تركز
اليهم الجمهورية في ذلك الجمع ، المكور ، في أغلبيته ، من أناس كانوا ، لأربع
سنوات خلت ، يشنون الحرب على النظام الجمهوري .

وظاهرة أخيرة ، لم تكن لتخفى ، كانت تبرز من غير لبس ، تفاوت
العقائد التي كانت تقسم تلك الجماعة . فالجمهوريون وحدهم كانوا يمشون على الارض
مرحاً . بينما مشى الآخرون وعلى وجوههم وفي هيأتهم جميعاً ، تلك السياء
المتشابهة الواحدة التي يغشى بها الشقاء وجوه البائسين ، فيوحد ما بينهم ولو
بدت أزيائهم على خلاف بيتن .

كان الفلاحون وذوو اليسار من الجماعة ، الشهيرون بالبورجوازيين ، قد رانت
على جباههم انعكاسات تفكير عميق . . في صتهم قسوة ، وفي إطراقهم دلالة
ما رزحت تحته نفوسهم من نير تلك الفكرة الجامعة ، وهي رهيبه لا ريب ،
لكنهم أحسنوا اخفاءها ، حتى بدت الوجوه كتيمة ، لا سبيل الى اكتناه ما
خلفها من الهواجس والمشاعر . على ان تباطؤ خطواتهم كان يمكن ان يشي بما
جال في رؤوسهم من حسابات خفية .

وبعضهم ، ممن يحملون السبحات متتاليةً من أعناقهم ، رغم ما كان في الاحتفاظ بها من الخطر ، وهي رمز ديانة لم تدمر تدميراً بل حذفت من سجل وجودهم ، كانوا يهزّون شعورهم ، ويرفعون رؤوسهم بحركة متحدية ليسبروا الغابات والدروب وما احتضن الطريقَ من الصخور، بنظرات خاطفة . يفعلون ذلك بلامح الكلب الذي يدفع بأففه في الريح ليستروح القنيسة . فان لم يطرق سمعهم سوى الخفق الرتيب الذي تبعته نعال رفاقهم الصامتين ، احنوا رؤوسهم وغمرت جباههم قتمة القنوط ، كأنهم مجرمون يسار بهم الى سجن مؤبد ، فيه يحيون وفيه يموتون .

كانت مسيرة هذا الرتل من المشاة باتجاه « مايان » ، بما احتواه من عناصر متباينة ومشاعر مختلفة ، تؤوّل أيسر تأويل وتُردّ الى معناها الطبيعي ، بوجود كوكبة من الجند كانت تسير في المقدمة .

كانوا زهاء مائة وخسين نفرأ بالعدة والسلاح ، يقودهم رئيس لـ « نصف زمرة » - وهذا تعبير من تعابير الثورة الفرنسية ، آثرته الثورة على كلمة « كولونيل » التي قضت بالاستغناء عنها ، لما كان فيها من تخايل الارستوقراطية الزائلة - . وكان الجند ينتمون الى قيادة « نصف لواء » من المشاة ، معسكرة في مايان .

وكان سكان المناطق الغربية ، بذلك العهد الذي ابتليت فيه البلاد بالنزاع الداخلي ، يطلقون على عساكر الجمهورية اسم « الزرق » .. وهي تسمية تخلفت من تلك البزة العسكرية الاولى التي عُرف بها جنود الجمهورية ، في عهدم الاول ، وقوامها لوانان : الازرق والاحمر .

كانت تلك المفرزة من الزرق ، معدة لحراسة ذلك الحشد من الناس وسوقهم الى مايان . وجلّ هؤلاء ناقم مستاء لما ينتظرهم في المدينة من حياة الانضباط العسكرية ، حيث لا يلبثون ان يفرض عليهم عقيدة واحدة ولباس واحد وذلك التجانس في الشكل والتصرف الذي كان يظهر في مشيتهم تلك انهم يفتقرون اليه كثيراً .

كان ذاك الرتل الذي تمت تعبئته بكل صعوبة ، هو فريضة التجنيد العام ، على مقاطعة « فوجير » ، التي قررتها حكومة المديرين التنفيذية بقانون كان صدر في شهر مسيدور الماضي . فقد فرضت الحكومة جباية مائة مليون من الفرنكات ، وتجنيد مائة ألف رجل ، للاسراع بنجدة جيوشها التي كانت تحل بها الهزائم امام النمسيين في ايطاليا ، والبروسيين في المانيا ، والتي كان يهددها ، في ميادين سويسرا ، عساكر الروس الذين ملأ زعيمهم سوفاروف أذهانهم بفكرة فتح فرنسا . وكانت المقاطعات الغربية ، الشهيرة باسم فاندو ، وبريتانيا ، وجزء من نورمانديا السفلى ، التي ألفت السلاح وركنت الى الهدوء منذ سنين ثلاث ، تحت وطأة الجزال هوش ، بعد حرب استمرت أربع سنوات ، قد بدا لها ان تستفيد من هذه الساححة لتعود الى امتشاق الحسام مجدداً .

امام استفحال العدوان لم تلبث « الجمهورية » ان استعادت سالف عنفوانها . فشرعت باعداد أمر الدفاع عن المقاطعات التي تعرضت للعدوان ، ملقمة على عاتق الأهلين مهمة الدفاع عنها وذلك بموجب مادة من مواد قانون مسيدور السالف الذكر .. ولما كانت الحكومة خاوية الوفاض ، لا جند عندها ولا مال لاستخدامها في شؤون الامن الداخلي فقد حلت المشكلة ببدعة غريبة ألبستها لباس الشرعية : لما كان يعجزها القيام بأمر المقاطعات النائرة فقد منحت ثقتها لتلك المقاطعات ! ولعلها رمت بذلك التدبير الى خنق الثورة في مهدها ، وذلك بتسليح المواطنين ، ليتولى بعضهم أمر بعض :

واليك نص تلك المادة القانونية التي كانت سبباً لاعتداءات داخلية أليمة :
« يصار الى تشكيل سرايات من المتطوعين في مقاطعات الغرب » .

وكان هذا التدبير البعيد عن روح السياسة الحكيمة قد دفع المقاطعات الغربية الى موقف عدائي بلغ الحد الذي يثبت فيه « حكومة المديرين » من بلوغ النصر . فما عتمت الحكومة ان طلبت من « الجمعية العمومية » اتخاذ تدابير خاصة تتعلق بسوق مجندي القرع العسكرية الخفيفة المفروضة بموجب تلك المادة التي كانت تقر إنشاء سرايات المتطوعين .

وبناءً على ذلك نشر قانون جديد ، قبل بضعة أيام لبدء حوادث هذه
القصة ، يقضي بتحويل تلك القرع الصغيرة من المجندين الى فرق نظامية .
وكان على تلك الفرق ان تكنى بأسماء مقاطعات السارت ، والاورن ،
والمايان ، وإيسل - إ - فيلان ، والموربيهان ، واللوار الاسفل والمين -
إ - لوار .

جاء في نص القانون ذلك : « ان تلك الفرق المخصصة لكفاح « الشوان »
لا يُسمح بسوقها الى الحدود لأي سبب كان » .

كل ما تقدم من التفاصيل المملة المجهولة ، يوضح لنا حالة الضعف التي آلت
اليها حكومة المديرين ، ويلقي النور على تلك المسيرة التي مشى فيها ذلك القطيع
من الرجال ، بحراسة زمرة من « الزرق » ، جنود الجمهورية .

وان شئنا زيادة في التفصيل فلا بأس من ان نضيف قائلين : ان جميع تلك
المقررات الوطنية الحسان ، التي صدرت عن حكومة المديرين ، لم تعرف من
مراحل التنفيذ إلا نشرها في الجريدة الرسمية ، المدعوة في ذلك العهد بلائحة
القوانين .

ولما كانت تلك المراسم الجمهورية قد أضعفت ما كان يدعمها في الاصل من القيم
الاخلاقية الكبرى او دوافع الوطنية ، او سطوة الارهاب ، فقد ظلت ، تلك
المراسم الجمهورية ، تخلق الاموال وتحشد الجنود ، بالوهم ، دون ان يدخل الى
خزينة الدولة من تلك الاموال شيء ، ولا الى ثكنات الجيش من ذلك الجند
احد .. لقد بليت نوابض الوثبة الاولى في أيد لا براعة فيها ، اما القوانين فكانت ،
لدى تطبيقها ، تنطبع بطابع الظروف ، بدل ان تتحكم هي بالظروف .
كانت مقاطعتا المايان وإيسل - إ - فيلان ، تداران من قبل ضابط قديم .

(١) الشوان - او جماعة الناعقين - اشتهروا بترديد صيحة شوان - شوان ؛ يحاكون بها
نميب البوم او نميق الغربان ، فغلب عليهم اسم ذلك النميب فدعوا به ، في غير صالحهم . ودعوناهم
في العربية بالناعقين لسهولة اللفظة وقرب معناها من الاصل .

ترأى لعينيه ان الظروف مواتية لاتخاذ الاجراءات اللازمة ، فأراد ان يحاول سوق حصة بريتانيا من المهندين، وبخاصة حصة «فوجير» ، وهي من أشد مراكز «الناعقين» مراساً وأقواها بأساً . وكان في محاولته يصبو الى كسر شوكة تلك المناطق الخطرة .

واستناداً الى التقديرات التي تخيلتها تلك القوانين المتفائلة ، فقد أكد القائد المتحمس امكان تجهيز المهندين بالعدة والسلاح ، كما أعلن ان في خزائنه راتب الشهر الذي وعدت به الحكومة اولئك الجند ذوي الوضع الفريد .

ورغم امتناع بريتانيا على أي نوع من أنواع الخدمة العسكرية ، فقد نجحت العملية في البدء لما وضعه الناس من ثقة في وعود المسؤولين . حتى بلغ من نجاح العملية وإقبال المهندين ما ملأ صدر القائد بالفزع . لكنه كان حذراً فطناً ككلب من كلاب الحراسة التي يصعب أخذها على حين غرة . فلم يكذب يلاحظ قدوم قسم من المهندين حتى خامره الشك في سرعة ذلك التجمع . ولعله ما أخطأ الظن اذ استراب في ان بغية اولئك الرجال انما كانت محصورة في الحصول على السلاح .

ودون ان ينتظر المتأخرين من الجند أعد عدته للانسحاب يجنوده الى آلانسون حيث يكون أقرب الى المناطق المستسلمة . هذا بالرغم من ان الثورة التي كانت تزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم في هذه المناطق كانت تجعل نجاح المشروع من معضلات الامور .

وهكذا فقد حاول ذلك القائد ، وهو العليم بما لحق جيوشنا من الويلات ، وبما ورد من أبناء فأنده المقلقة ، معتصماً بمجبل الصمت لا يبوح بشيء مما يعلم ويسمع من أمر ذلك كله ، عملاً بما تلقاه من التعاليم ، حاول في صبيحة ذلك اليوم الذي بدأت فيه القصة ان يغذ السير يجنوده لبلوغ مايان ، بمنياً نفسه بتنفيذ القوانين حسب هواه وذلك بالكامل نصاب فرقته من المهندين من أبناء بريتانيا ..

وكان القائد ذاك ، قد عمل قبل مغادرة فوجير ، على سحب الذخيرة والمؤن ، بحفية من جنوده ، لئلا يخامر المهندين أي فكرة عن طول الطريق الذي

سقطعوناه ؛ فقد أزمع ألا يقف يجنده في مرحلة «عرنه» خشية ان يخرج المصادرون من رجاله من ذهول المفاجأة، فيعملوا على التفاهم مع جماعة الناعقين، وهم ، لا شك ، منتشرون في الحقول القريبة .

وقد فوجئ، المهندون المصادرون بمخطة القائد الجمهوري الذي عركته السنون، ولندعه منذ الآن القائد «هولو» .. فران عليهم الصمت . فتوجس هولومسن ذلك الصمت، واستيقظت فيه وساوس الحذر لما لمسه من ثقائل سيرهم على دروب الجبل . فسار مطرقاً ، وحوله خمسة من الضباط الشبان لا ينبثون ، خشية ان يعكروا صفو ذلك الاستغراق الذي استسلم قائدهم اليه .

وما كادوا يبلغون ذروة البلين ، حتى أدار «هولو» رأسه فجأة ، كأنما دفعه دافع من غريزته ، فقلّب نظره في وجوه المهندين القلقة السبات . وكانت المسافة قد بلغت حوالي مئتي خطوة ما بين المهندين وحراسهم من العساكر بفعل تباطؤ المهندين المتزايد . وما لبث القائد الحذر ان قطع حبل الصمت ، مصعراً خده بطريقته التي اشتهر بها . وصاح بصوت مرفقع :

— يا قرد !.. ما بال أولئك المرفقين !.. أترام يمشون على البيض !..
امام تلك الكلمات استدار الضباط بحركة عفوية كتلك التي يحدثها الموقظ من سباته امام صوت مزعج .

واقندي بهم العرفاء والرقباء . وتوقف المشاة جميعاً دون ان يلقي في سمعهم امر الوقوف الذي طال ارتقابه .

لقى الضباط بنظرة على الفصيلة التي كانت ترقى منكب الجبل كسلحفاة ممطوطة . لكن الضباط الذين انتزعهم الدفاع عن الوطن من دراساتهم العالية ، شأن العديدين غيرهم من الشبان — لم تلبث عيونهم ان استقرت ، بشيء من الدهول ، على ما احاط بهم من منظر ذاك المكان . لكأن الحرب لما تطفئ في نفوسهم حتى الساعة ، نزعوا الاحساس بمظاهر الفنون . وما كان ليخفف من اعجابهم بما يرون ، أنهم من ابناء فوجير ، حيث يشاهدون شيئاً كهذا المنظر المنبسط على مرمى ابصارهم المشوقة . فهناك ، في ديارهم القريبة ، كانت تبدو

هذه اللوحة بالذات لكن في تشكيل آخر ، اذ يرونها من خلال زاوية غير هذه . وما كان لهم ان يمنعوا عيونهم من القاء نظرة اعجاب اخيرة ، كشأن هواة الموسيقى المفرقين كلما ازدادوا الماماً بتفاصيل لحن من الالحان البديعة ازدادوا لذة بسماحه .

فمن اعلى جبل البارين يرى المرء وادي كويسنون الفسيح ، وعلى مرتفع من مرتفعاته البارزة في الاقن قامت مدينة فوجير . وقد اشرف قصرها المبني فوق الصخرة المنيقة ، على ثلاثة دروب هامة او اربعة . وبذلك كانت فيما مضى تعد مفتاحاً من مفاتيح ذلك الجزء الشمالي الغربي من فرنسا الذي يدعونه : بريتانيا . هنالك بدا لعيون الضباط ذلك الحوض الشهير بخصبه العجيب ، كما امتاز وتنوع مناظره . فحيث تنظر ، فيجبال صفيحية التكوين سمقت كالمدرجات ، واخفت سفوحها المحمرة تحت كساء من غابات السنديان ، وبدت في سفوحها شماب عميقة ، طرية الجو بليلة التسميم . وقد ضربت تلك المرتفعات الصخرية نطاقاً واسعاً ، يبدو لأول وهلة مستدير الشكل . امتدت في قاعه برية فسيحة رخية ، فصلت رسومها كأنها من حدائق الانكليز .

وهنا وهناك ما لا يحصى من حواجز السياج الاخضر ، تفصل الآلاف المؤلفة من صغار الممتلكات بأشكال شتى لا نظام لها ، غرست جميعاً بالشجر . فأضفت على ذلك البساط السندسي هيئة نادرة الوجود بالنسبة لما تراه من المناظر الكثيرة في فرنسا .. وطوى ذلك العالم الأخضر في اختلاف مشاهدته أسراراً من البهاء ، لها من سعة التأثير ما لا يفوته أشد النفوس انغلاقاً وبرودة .

وفي تلك اللحظة بالذات كان مشهد البلاد ينتفض حياةً بذلك الالتي العابري الذي يحلو للطبيعة ان تلقيه على بدائع خلقها الخالد لتريدها رونقاً وجلالاً . وبينما كان الجندي يعبرون الوادي كانت الشمس المشرقة قد بددت ، رويداً رويداً ، سحب البخار الخفيفة الناصعة ، التي تموج في أصابع ايام ايلول على صفحات الحقول .

وكان يبدأ خفية امتدت ، في تلك اللحظة التي تلفت فيها الفتيان نحو

الوادي ، فانترعت آخر غلالة من الغلالات التي كستها بها منذ قليل سويحبات رقيقة أشبه شيء بالغلالة الشفافة التي تلقى على الحلي الغالية لتكون الجواهر من خلال شفافها المثير أشد عصفاً بتشوّف الناظرين .

وكذلك بدت السماء ، في ذلك الافق الرحب الذي انفسح لأعين الضباط ، نقية ، خالية ، ليس فيها من السحاب بقية تنبئ ، ببريقها الفضي ، ان تلك القبة الزرقاء هي قبة السماء .

بل كانت السماء تبدو كسجفة من حرير ، مرفوعة على عمد الجبال ، بقمها المنطلقة في الجو على درجات متفاوتة من السموق ، ومدت في الهواء وقاءاً لذلك الحشد البهيج النفيس من الحقول والمراعي والجداول والمشاتل .

وما كانت عيون الفتية من النظارة لترتوي من مشهد ذلك الفضاء الفسيح الذي انبثقت فيه جميع تلك البدائع الريفية .

ولكم ترددت عيون بعضهم قبل ان تستقر على مشهد واحد من مشاهد لا تحصى في فيض تلك الغياض ، أضفت عليها بعض لفائف الشجر المصفرة من لونها فغنيت ألوانها بلون الصّفر ، الذي زاده بروزاً زمرداً الحقول المحشوشة حشاً لا انتظام فيه .

وعلقت عيون الآخرين على تنافر الألوان الذي عرضته حقول وردية الصبغ ، حيث وقفت حزم الشوفان المحصود ، على سوقها ، مخروطة القوام ، شبيهة بضائم السلاح التي يقيمها الجند في الخيم . كل ذلك مفصلاً بعضه عن بعض بحقول آخر لوّحها حصاد الدخن بلون الذهب .

وهنا وهناك سطوح قائمة من حجر الالواح ، تنهادى منها سحائب من الدخان الابيض . وأخاديد حية بلون الفضة رسمتها جداول « الكويسون » المتعرجة ، كانت تجتذب العيون ببعض من أحابيلها البصرية ، تتلاعب بالنفس فترسل فيها الحيرة ، وناعم الاحلام .

وكسحابة من الطيب تسامت في السماء نفحة مبردة زكية من نسائم الخريف ، مع ريح

الغابات الفاغم ، لتسكر المعجبين بتلك المناطق الجميلة ، وهم يتأملون بذهول
أزاهيرها المجهولة ، ونباتها الخصب ، وخضرتها التي ضاهت خضرة بريطانيا ،
جارتها تلك التي اشتركت وإياها بمحمل اسم واحد .
وأضفت حركة من الحياة على ذلك المشهد بعض قطعان السائمة فزادته تأثيراً
وروعة .. والاطيار تغرد فينبعث في الوادي لحن عميق تهتز رعشاته في اجواء
السماء .

حسب الضباط ان اولئك البؤساء المساكين يغادرون آسفين ملتاعين أرضهم
وما ألغوه من العادات والتقاليد ، لغير رجعة ، فقد يلاقون حتفهم قبل ان
يعودوا ، فغفروا لهم ، من حيث لا يريدون ، تأخرهم ذاك الذي أدركوا كنهه .
ومبروءة المحارب الطبيعية أخفوا شعورهم تحت غشاء من رغبة التأمل ، فراحوا
يقلبون أبصارهم ليفحصوا المواقع العسكرية في تلك البقعة الجميلة .

وما كان القائد هولو بالعسكري الذي يلهيه سحر المناظر امام الخطر المهدق ،
ولو امتدت لعينيه مناظر الجنان . فhez رأسه ، وزم حاجبيه الكثيفين الاسودين
الذين كانا يضيفان على ملامحه صرامة . وكرر السؤال ، بصوته الذي زاد
في خشونته ما مر به من عناء الحرب ، قائلاً :

— ما لهؤلاء لا يتقدمون؟! ام لعل في القرية صورة للعدراء يودون ان يقدموا
بين يديها ففروض الطاعة !

قال قائل : أتسأل ما السبب ؟

التفت القائد بغتة ، كمن مسته ذبابة سيف ، اذ سمع اصوات نفير كأنها تنبعث
من قرن من تلك القرون التي يستعملها فلاحو تلك الأودية لجمع قطعانهم . وبالتفاتة
رأت عيناه ، على بعد خطوتين منه انساناً غريب الحلقة ، لا يشبهه واحد من
اولئك الرجال المساقين الى مايان لخدمة الجمهورية .. كان الرجل مربع القامة ،
عريض المنكبين ، ذا هامة بمحجم رأس الثور ، على تقارب شديد ما بين شكلها .
وبدا أنفه اقصر مما هو في الواقع لغلظ منخرية . وكان يبدو اقرب الى فصيلة
الحيوانات المجترة منه الى جنسنا القوقازي الابيض بفضل شفثيه العريضتين ،
اللتين ارتفعتا بفعل أسنانه الناصعة كالثلج ، وبفضل عينيه المستديرتين السوداوين

المحفوفتين بأهدابه الصارمة ، وبأذنيه المتدليتين وشعره الأحمر .
وبدا الرأس العاري أدعى للعجب ، لتجرد ذلك المخلوق من صفات الانسان
الاجتماعي تماماً .

وكان المحيا هو الجزء الوحيد الظاهر للعيان في جسم ذلك المخلوق العجيب . وقد
بدا ، بما خلفته الشمس فيه من آثار اللفح ، وبما حفّاه به من التخوم المترعجة
كالزوايا ، على شيء من الشبه وتلك الصخور الغرانيتية التي تشكلت منها
أرض تلك المناطق .

وبدل الهراوة العجراة التي كان يتكئها المهندون فقد كان هذا يسند الى
صدره ، كعوض للبندقية ، سوطاً ضخماً مزدوج الطول يُجدل سيره بمهارة .
وما كان من الصعب تأويل ظهوره الفجائي ، فقد حسبه بعض الضباط لاول
وهلة ، مجنداً يعود الى قواعده في الرتل اذ الفاه واقفاً . على ان قدمه لم يلبث
ان اثار تعجب القائد . فاربد جيئنه ، ولو خلت اسارير وجهه من امارات
الوجل . وبعد ان تبين ملامح الغريب ، اخذ يردد بشكل لاشعوري ، كأن
فكره قد شغلته الهواجس .

— اجل . اجل . تراهم لم لا يأتون ؟ .. اعندك ، انت ، تأويل لذلك ؟
اجاب الرجل الغامض بلهجة من يستصعب النطق بالفرنسية ، مشيراً بكفه
الحشنة الى « عرنه » :

— ذلك ان نهر « المين » يجري هناك .. وهناك تنتهي حدود بريتانيا .
والقى بشدة قبضة سوطه الثقيلة قريباً من قدم القائد . فكان لذلك في نفوس
الحاضرين ما يشبه وقع دردبة الطبل اذا انفجر ضجيجها بين نغمات الموسيقى
الناعمة .

خشونة ذلك الرجل ، الذي بدا وكأنه 'قد' هيكله بمجد الفؤوس ، وجلده
الغليظ ، وجهه الغبي المحفور في ثنايا ملامحه ، كانت تجعل منه صورة حية لنصف
إله بربري .

واتخذ في موقفه ذاك وضعاً من اوضاع النبوة ، برز فيه وكأنه هو روح بريتانيا

إذ تترد الى اليقظة بعد ثلاث سنين من السبات ، لتستأنف حرباً لم تخل قط من
عظيم الاخطار وجسيم الصعاب .

قال هولوف في نفسه : « يا للمخلوق الظريف ! يخيل الى انه سفير القوم الذين
يتهاون للتفاوض بلغة الرصاص .

وبعد ان تتم بهذه الكلمات ، تحول القائد بنظره من الرجل الى المنظر ، ومن
المنظر الى الجند ، ومن هؤلاء الى جانبي الطريق المنحدرين ، تفيأت اعرافهما
بانجم الرتم الباسق . ثم صوب بصره بغتة الى الغريب يستنطقه بغير كلام . وانهى
القائد الاستنطاق فجأة بقوله : « من اين جئت ؟ »

وكانت عينه اليقظة البصيرة تحاول النفاذ الى اسرار ذلك الوجه المغلق الذي
غشيته في تلك الفترة القصيرة غشاوة الفتور الناعس التي تنتاب وجوه الفلاحين
بوقت الراحة .

اجاب الرجل دون ان يطرف له جفن :

— من بلاد الغار .

— ما اسمك ؟

— مارش آتير (اي : الماشي على الارض) .

— لم تدع نفسك بهذا الاسم ، وهو من ألقاب الناعقين ، التي حظر
القانون استعمالها ؟

ألقى مارش آتير على القائد نظرة بلغت من الغباوة ما حمله على الاعتقاد
بأن الرجل لم يدرك سؤاله . فاستأنف كلامه قائلاً :

— أنت من مجندي فوجير ؟

— ما بعرف !

كذلك أجاب الرجل وفي لهجته ما يدفع السائل الى اليأس من جدوى
الحوار . ثم جلس على حافة الطريق مطمئناً ساكناً ، فتناول من جرابه كسراً
من خبز الشعير الاسود ، وهو غذاؤهم المحلي الذي لا يدرك لذائذ مذاقه البائس

(١) أي من بلاد الفتیان ، في اللغة الدارجة في تلك المناطق .

سوى سكان تلك المناطق المحرومة . واخذ الرجل يلتهم طعامه بشرود أبله .
وبدا في جلسته مجرداً من كل فطنة ، حتى شبه احد الضباط بحيوان من
تلك السائمة التي كانت تقضم اعشاب الوادي السمينة . وشبهه آخر بسكان امريكا
البدائيين او بسكان « رأس الرجاء الصالح » الذين يعيشون على الفطرة .

كان هولوا قد تخفف من هواجسه ، لما خدعه من مظهر الرجل ، لما التقى
بنظرة حذر اخيرة على مارش آتير ، وقد خامره الريب بشأنه ، حادساً انه نذير
مذبحة وشيكة الوقوع ، إذ رأى شعره ، وجرايه ، والفروة التي تدر بها ، قد
علق بها الشوك ، ونثار الاوراق ، ووقس الحراج والادغال ، شأف من قطع
طريقاً طويلة خلال الآجام الكثيفة . فسدد نظرة ذات مغزى الى مساعده
جيرار ، وكان على مقربة منه ، ثم شد على يده بعزم وقال له بصوت منخفض :
« رحنا نجز الصوف وعدنا مسلوخين » .

نظر الضباط بعضهم الى بعض بصمت ذاهلين .

هنا يحسن بنا التوقف قليلاً لألقاء بعض النور على ما تعيب معرفته عن الكثيرين
من الناس من شؤون تلك المناطق ، ليتسنى لبعض المتشككين ادراك مشاعر القائد
هولوا وتخوفه ، وقد ألفتوا التشكك والاسترابة في كل ما يسمعونه ، لانهم لا
يرون شيئاً وهم قابعون في عقر ديارهم لا يبرحونها . وقد ينكرون وجود مارش
آتير وامثاله من فلاحى الغرب الذين بلغوا في بعض المواقف من نبل التصرف
وروعة (السلوك) ما يمكن وصفه بالسمو .

ان لفظة « غار » – ويلفظونها « غا » – بقية من بقايا اللغة السلتية ، انتقلت
من اللغة البروتونية السفلى الى الفرنسية – وهي اغنى كلمات لساننا الحديث
بالنسبة لما تحمله من الذكريات القديمة .

ومنها تحدرت كلمات غار (شاب) و غرسون (صبي) و غرسونيت (صبّية) ،
و غارس و غارسيت ، وكانتا تعنيان (الصبية) ايضاً ، دون اي معنى من معاني التحقير
التي لصقت بهما في اللغة الحديثة . . وسيرد استعمال هاتين اللفظتين في هذه الرواية

بمعناها القديم الذي لا يخلو من معاني البطولة^١ .

وبين المقاطعات الفرنسية تظل بريتانيا اعلمها انطباعاً بالاخلاق الغالية . ولا تزال بعض مناطق هذه المقاطعة حتى عهدنا تدعى بلاد الشباب الفتيان او بلاد « الغار » ، وهي المناطق التي لا تزال حتى اليوم محتفظة بالحياة الوحشية والخرافات التي دار في مدارها اسلافنا الاشداء الحشون . فاذا كانت ولاية من ولاياتنا مأهولة بعدد وفير من الاجلاف المتوحشين امثال هؤلاء الذين نشاهد في المشهد الحالي ، قال اهل المنطقة : « غار » المنطقة الفلانية ، يعني فتياها ورجالها الاشداء . وهذه التسمية التقليدية هي المكافأة الثمينة لذلك الاخلاص الذي بذلوه للاحتفاظ بتقاليد البلاد واخلاقها الغالية . لذا احتفظت حياتهم بآثار عميقة من عقائد الازمان السالفة وطقوسها المطبوعة بطابع الوهم والخرافة والتطير . هناك ، لا تزال أعراف عهود « الاقطاع » سائدة مبعجة . هناك يرى تجار العاديات مباني الـ « درويد » قائمة . وهناك تلم رعشة الخوف بروح الحضارة الحديثة اذا ما حاولت ان تتغلغل في الاحراج العظيمة التي لا تزال على عهدها الاول .

ان الشراسة المذهلة ، والعناد الوحشي ، والصدق بالعهد ، وانعدام قوانيننا وعاداتنا وأخلاقنا ، ولباسنا ، ونقدنا الجديد ، ولساننا ، مضافاً إليها بساطة العصور السالفة ، والشبائل الناصعة والسجايا البطولية . تضافرت جميعاً لجعل سكان تلك السهول أقل حظاً من الثقافة بأشكالها المختلفة ، من قبائل الموهيكان والهنود الحمر في امريكا ، على تساويهم هؤلاء البدائيين في السموسعة الحيلة والقسوة . وان المكان الذي تحتله بريتانيا في قلب اوروبا يجعلها أشد غرابة في أعين المراقبين من كندا .

(١) حين قدمت « مدام دوستال » بريتانيا لقضاء بضعة من ايام إبعادها عن باريس ، بامر من نابليون ، استقبلها بعض سكان المنطقة قائلين باعجاب « يا للغارس النفيسة ! » وكاد يفمى على الكاتبة الشهيرة من الغم ، لانها لم تكن تعلم ان معنى « غارس » هناك غير معناها في باريس ...

وهي ، والأنوار تحف بها من كل جانب دون ان يمسا دفؤها الخيّر ، اشبه شيء بفحمة متجمدة ، تظل سوداء قائمة وسط موقد مضيء .

وكل ما بذله كبار الناس من ذوي الفكر النيّر من مساع لاكتساب هذا الجزء الجميل من فرنسا ، العظيم الغني بكنوزه المجهولة ، وفتح ابوابه لحياة المجتمع والرخاء ، باء بالفشل ، بما في ذلك جهود الدولة . فكل مسعى من مساعي التحضير لا يلبث ان يدركه الموات في ثنايا اللاحرارك ذاك الذي مني به أولئك القوم ، وقد قيّدت حركاتهم بعادات قديمة ليس في الناس من يذكر بدءها . ويمكن رد أسباب هذا الطالع السيء الى طبيعة تلك الارض التي سعت فيها الاخايد ومسايل الماء ، والبحيرات والمستنقعات . وهي مكسوة بحشد من الجدران كأنها الأبراج الترابية جعلت من كل معسكر قلعة ، والى حرمانها من الطرق والأقنية ، والى العقلية الجاهلة التي اتصف بها سكانها ، مستسلمين الى عاداتهم الخرقاء الموروثة التي سنشهد بعض تفاصيلها في مجرى هذه القصة . وقد كان من آثارها اعراض أصحاب تلك البلاد عن اتباع اصول زراعتنا الحديثة .

وقد حال تشكيل تلك الارض الطبيعي المعجّب ، واستسلام أبنائها الى الخرافة والاوهام ، دون تمرکز الافراد في المجموعات السكنية المألوفة كالقرى والديساكر وما تجلبه حياة الجماعة من منافع المقارنة وتبادل الأفكار . اما الأبنية المهلهلة التي يدعونها تجوزاً بالمساكن ، فهي منشورة في المنطقة ، تسكنها كل أسرة بانعزال عن الآخرين كأنها تعيش في صحراء . وما كانوا ليلتقون إلا في الاجتماعات السريعة الانقضاء التي خصصت للصلاة بأيام الآحاد او الأعياد الدينية .

تلك الاجتماعات الصامتة ، التي يشرف عليها راعي الكنيسة ويده وحده زمام تلك العقول الحشنة ، ما كانت تدوم سوى ساعات ثم يؤوب الفلاح الى داره القدرة لينعزل فيها طوال اسبوع ، بعد ان يكون قد ملأ سمعه بصوت الراهب الرهيب . يفادر داره ليعمل ، ثم يؤوب اليها لينام .

ولا زائر يزوره سوى راعي الكنيسة ذاك ، وقد غدا هو روح تلك المنطقة .
وبفعل ذلك الصوت الذي أطلقه هذا الراهب اجتمع ، للثورة ضد الجمهورية ،
لخمس سنوات خلت ، ألوف الرجال ، قدمتهم هذه المناطق البريتونية جنوداً
للوثبة الاولى .

وكان الاخوان « كوترو » ، وهم من أشداء المهربين ، يقومون بعملهم المحفوف
بالاخطار ، ما بين « لافال » و « فوجير » ، وباسمهم تكنت تلك الحرب الداخلية .
لكن انتفاضات تلك المناطق لم يكن فيها شيء من بوادر النبل وان كانت مناطق
« الفانديه » جعلت من اللصوصية حربياً فقد جعلت « بريتانيا » من الحرب لصوصية .
وما كان تحطيم الدين واقصاء الامراء من قبل الجمهورية سوى الذريعة التي
تذرع بها جماعات « الشوان » الثائرين للمضي في أعمال النهب والسلب . ورائت
على الاحداث خشونة الطبائع المحلية وفضاظتها .

فاذا جاء حماة الملكية الحقيقيون ليجنّدوا فريقاً من سكان تلك المناطق الجهلة
المتعدين ، فانهم عبثاً حاولوا حينما ارادوا ان يصفوا شيئاً من السمو والجلال على
تلك الأعمال الثورية التي أحاطت الحركة الشوانية بهالة قائمة من المقت والكراهية .
وخلّدت في أذهان الناس ، كمثال نموذجي لذلك الخطر الكبير الذي يكن دائماً في
تحريض الجموع المتخلفة على الثورة في أي بلد من البلدان .

ان صورة اول واد تعرضها بريتانيا لعين المسافر ، واللوحه التي تمثّل مشهد
تلك المفرزة من المجندين المصادرين ، ووصف الزعيم ، الملقب بالـ « غار » ، واقفاً
على قمة جبل « البارين » ، توجز للأذهان بأقصر طريق الصورة الأمانة لتلك
المقاطعة وسكانها .

وفي وسع الخيال المحرب ، امام هاتيك التفاصيل ، ان يتصور مسرح المارك
وآلاتها : فهنالک كانت عناصرها .

الأسیجة المزهرة ، في هاتيك الاودية الحسان ، كانت ستاراً لعدو خفي .
كل حقل كان قلعة .. كل دوحه أضمرت شرکاً .. وخلف كل جذع من

جذوع الصنفاة العجوز كمت مكيدة وأحولة ، وميدان القتال كان في كل مكان .

والبنادق في زوايا الدروب كانت تنتظر عساكر الجمهورية . تجذبهم الفتيات الضاحكات الى فوهات الموت ، وهن لا يدرين ان ما يفعلنه من عمل الغادرات الخؤونات .

ثم يحججن ، برفقة الآباء والاخوة ، الى تماثيل من الخشب النجر ، طمعاً في الغفران ، وبحثاً عن مزيد من المكر والحيل . وكان دين اولئك الخالق الجاهلة ، بل وثبتهم ، تجرد سفك الدماء من كل شعور بالندم . وكذلك أضحي كل شيء في تلك الارض ، مذ ذر قرن القتال فيها ، خطراً دائماً الوعيد ؛ الضوضاء كالسكون ، وليونة العفو كفظاظة الارهاب ، وداخل الدار كقارعة الطريق .

كانوا يغدرون بقناعة وايمان ، وحوشاً مجاهدة في سبيل الله والملك كشأن قبائل الموهيكان في المعارك الحربية .

لكن لا بد للؤرخ ، إن شاء ان يكون واقعيًا دقيقاً في تصوير النزاع ، ان يذكر ان المنطقة بأسرها عادت ذات يوم ضاحكة الاسارير لينة الملامح بعد ان اعلن الجنرال « هوش » ، الصلح فيها ووقع ميثاقه . ولكم من اسرة ، كانت بالامس منقسمة ، يمزق بعضها بعضاً ، عادت في الغداة تتناول الطعام معاً دونما خطر ما تحت سقف واحد .

حين بدا لهولو ما باحت به فروة « مارش آتير » من صور الغدر الخفية ازداد يقيناً بقرب انقصاص ذلك السلام الهانئ الذي حققته عبقرية القائد هوش قبل ذلك بسنين . وبات يرى ان دوام ذلك السلام شي مستحيل .

وكذلك كانت الحرب تعود الى سيرتها الاولى ، لكن أشد عنفاً وقسوة ، بعد ان ركبت طوال سنوات ثلاث .

وبعد ان سارت الثورة الفرنسية في طريق اللين ، منذ التاسع من شهر ترميدور ، فما هي ذي تستأنف السير في طريق قد يعيدها الي طابع الارهاب

الفضيع الذي صرف عنها القلوب فكانت مقبته في أعين الكثيرين من ذوي الفكر
السليم .

ولعب ذهب الانكليز ، كدأبه ، دوره المألوف في مساندة الخصومات في
فرنسا .

وبدت الجمهورية عاجزة عن مقاومة كل ذلك الحشد من الأعداء ، بعد سفر
« بونابرت » ، وقد ظهر أنه هو وليها المنقذ . وكان آخر الاعداء ظهوراً
أشدهم قسوة .

وها هي الحرب الداخلية تتخذ مظهراً جديداً من مظاهر الخطورة والجد ،
وآية ذلك ما عقد جماعة الشوان النية عليه من مهاجمة هذه المفزة الكبيرة .
تلك كانت الخواطر التي مرت في ذهن هولو منذ قرأ في قدوم مارش آتير
المفاجيء امارات بيئته لمكيدة ماهرة . ذلك لأنه كان هو وحده من أحس
بالخطر الخفي .

وكانت فترة السكوت التي أعقبت عبارة هولو قد أتاحت للقائد ان يستعيد
السكينة . فقد كاد منذ لحظات ، وهو المحارب القديم ، ان يهوي ، عاجزاً عن
تبيد الغيوم التي غشيت مخيلته إذ تذكر الاخطار التي ارتكبت في حرب بلغت
من الوحشية حداً قد يستنكره أكلة اللحوم البشرية .

حاول ميرل وجيرار ان يفسرا مخاوف رئيسها ، التي لم يألفها منه ،
فأخذوا يتأملان مارش آتير وهو منصرف الى التهام خبزه ، جالساً على حافة
الطريق ، فلا يستطيعان تخيل صلة ما ، ما بين هذا الحيوان البشري وقلق القائد المقدم .
لكن هولو لم يلبث ان انبسطت أساريه حين استعرض في خياله ما قدمه من
الجهود دفاعاً عن الجمهورية ، معاهداً نفسه ، وهو طيب النفس منشرح الصدر ألا
يكون ضحية مكر الناعقين ، فلسوف يكشف عن ماهية ذلك الرجل المراوغ
الذي اختارته الجماعة الثائرة للعمل ضده .

وقبل اتخاذ أي قرار ، راح هولو يدقق في الوضع الذي اراد أعداؤه ان
يفاجئوه فيه . واذ رأى ان الطريق التي سلكها تمز في مضيق قليل الغور مكسو

بالادغال ، تنتهي اليه عدة دروب ضيقة ، قطب ما بين حاجبيه الكشيفين
الفاحين . ثم خاطب صاحبيه بصوت خافت بلغ به التأثير مبلغه وقال :

– وقعنا في مصيدة خبيثة !

قال جيرار :

– ومم تخاف ؟

قال هولو : – أخاف ؟!.. ثم تابع قائلاً :

– اجل ، كنت ولا أزال اخاف ان يباغتني الرصاص في منعطف الغابة

ككلب شارد دون ان يصيح احد : من الحي !

قال جيرار : نحن اذن في خطر !

– صه ! اجاب القائد : اننا في حلق الذئب حيث لا نرى في ظلامه ابعد من

انوفنا . ومن حسن حظنا اننا في اعلى المنحدر . ولعلي ان ارى في النهاية بشيء
من الوضوح .

جذب القائد الضابطين نحوه . وطوق الثلاثة الريفي . فنهض هذا متظاهراً بأنه

يتجنب مضايقتهم . فانتهره هولو دافعاً اياه بعنف الى حيث كان جالساً على
العشب قائلاً له :

– مكانك ايها الارعن ! ومنذ هذه اللحظة لم يكفّ رئيس الفرقة عن مراقبة

هذا البريتوني اللامبالي . وعاد الى مخاطبة الضابطين بصوت خافت قائلاً . ايها

الصديقان ، لقد حان الوقت لتعلمنا ان «الدكّانة» قد انهارت . فعلى اثر التبديلات

التي جرت في « مجلس العموم » سدد الينا « مجلس المديرين » ضربة قاسية . فقد

خسر مجلس الدمى الرعاء واحداً من خيرة قوادنا وسيفاً من امضى سيوفنا .

فبرنادوت نفض يده من الجيش .

– ومن ذا الذي يخلفه ؟ سألّه جيرار ، فأجاب :

– ميله مورو ، ذلك العجوز العتيق . لقد اختاروا اردأ وقت لتحريك

احناكهم . الاشارات تنطلق قرب سواحلنا من بواخر الانكليز . وسكان

« الفانده » والناعقون جميعاً في اوج المرح والتفاؤل . والذين هم وراءهم عرفوا

اختيار اللحظة التي اشرفنا فيها على الهلاك .

قال ميرل :

- وكيف ذلك !

فأجابه هولو وصوته يزداد انخفاضاً :

- لقد خسرت جيوشنا في جميع النقاط ، وحجز الناعقون بريدنا مرتين . وما تلقيت برقيات والمراسم الاخيرة الا بواسطة رسول خاص ارسله برنادوت حال تخليه عن الوزارة . ومن حسن حظنا أن بعض اصدقائي كتبوا الي ، سرأً ، عن هذا الانحلال الطارىء . لقد اكتشف فوشه ان الطاغية لويس الثامن عشر قد تلقى انذاراً من الخونة في باريس بوجوب ارسال رئيس الى اتباعه في الداخل . ويظن بعضهم بان « بارا » قد خان الجمهورية . وما عثم ان ارسل « بيت »^١ والامراء الى هنا احد النبلاء ، وهو رجل مقدم مقتدر ، يريد ان يقضي على الجمهورية بتوحيد جهودالناعقين وسكان فاندو . ولقد نزل في موربيهان . وكنت اول من عرف ذلك واطلعت عليه « اذكياءنا » في باريس . ولقد خلع على نفسه اسم « الغار » . ان جميع هؤلاء البهائم (قال ذلك وهو يشير الى مارش آتير) يحملون اسماء لو دعي بها مواطن عاقل لاصيب بالزحار . وان مجيء هذا الناعق (و اشار هولو الى مارش آتير) لينبئني بان « الغار » في المنطقه في اثرنا . ولكن لا بأس ، فالقرود الجرب يعرف ما يعمل . ستساعدني في اعادة عصافيري الى القفص ، وباسرع ما يمكن . وسأكون مغفلاً احمق ان فسحت المجال للنيل القادم من لندن لينغدر بي .

وعندما اطلع الضابطان على هذه الظروف الخطرة السرية - وقد علما فيها مضى من حياة قائدهما انه لا يضطرب عبثاً - اتخذوا موقفاً حازماً كما يفعل المحاربون المجربون في حالة الخطر الشديد .

اقترب خيران من رئيسه ليرد عليه ويطلب منه جميع الانباء السياسية التي بقي قسم منها مكتوماً عنه ، غير ان اشارة من هولو فرضت عليه الصمت ،

(١) رئيس الوزارة البريطانية .

وراح الثلاثة يمدقون الى مارش آتير ، ذلك الناعق الذي لم يبدِ اي انفعال. وهو يرى نفسه تحت رقابة مشددة معززة بذكاء هؤلاء الرجال الثلاثة وقوتهم الجسدية. هذا النوع من الحرب بدا جديداً بالنسبة للضابطين اللذين بدأ فضولهما يتحرك حيال قضية لا تخلو من طابع قصصي. فراحا يتأزحان ، ولكن ، لدى اول كلمة تلفظ احدهما بها نظر هولوا شذراً وقال لهما :

– يا للصاعقة ، لا تزيدا النار وقوداً أيها المواطنان ، الغباوة خير من الجرأة في غير محلها . وأوماً الى جيرار ان يقترب منه . واذ فعل ، أسر في أذنه قائلاً : اقترب من هذا الرجل بكل هدوء وكن مستعداً لأن تقعد سيفك في قلبه لدى أقل حركة مشبوهة. اما أنا فسأتحذ التدابير اللازمة لدعم الحديث اذا شاء هؤلاء الجهولون ان يتحدثوا إلينا باللغة التي يشاؤون .

أحنى جيرار رأسه طائعاً . ثم راح ينعم النظر في مناظر ذلك الوادي الذي ألقوه . اراد ان يتفحصها بدقة فمشى بدون تكلف . ولعل المناظر الطبيعية كانت أقل شيء نظر اليه . وتظاهر مارش آتير بأنه يجهل تماماً مناورة الضابط . فقد راح يلعب بطرف سوطه كأنه يصطاد السمك في حفرة .

وفيا كان جيرار يحاول ان يتخذ وضعاً امام الناعق همس القائد لميرل :

– اعط احد الضباط عشرة من نخبة الرجال . واذهب بهم وضعهم قريباً من قمة هذه التلة حيث تنبسط الطريق وتتسع ويطل النظر على منحني طريق « عرنه » ... واختر مكاناً لا تكتنفه الغابة وتسهل فيه المراقبة للعرين . وادع « مفتاح القلوب » فهو ذكي ... لا مجال للضحك !

وفيا كان الضابط ميرل ينفذ الاوامر باندفاع ملحوظ . لوح القائد بيده اليمنى طالباً السكوت التام من الجنود المحيطين به . وبجركة من يده أمر بحمل السلاح . فإذا استتب الهدوء نقل بصره بين طرفي الطريق مصغياً بانتباه وقلق كأنه يأمل ان يسمع حركة خفية او صليل اسلحة او خطوات تنبئ بمركة منتظرة . وقد أنعم النظر كأنه يسبر غور الغابة في أعماقها . ولكنه لم يعد بأي دليل . فحص غبار الطريق ، على طريقة المتوحشين ، عله يكتشف أثراً لأعدائه المختفين

الذين لا ينكر بأسهم . واذ خاب امله باكتشاف ما يبرر مخاوفه ، تقدم نحو منحنيات الطريق وتسلم التلال بعناية . ثم صعد على مهل الى القمم العالية ، وفجأة تبين له مبلغ ما استفاده من خبرته ، لسلامة جيشه ونزل الى الطريق وقد ازداد وجهه تجمهاً . وكان القواد في ذلك الحين يتحسرون لعدم استئثارهم بأخطر المهام . واذ لاحظ الضباط والجنود اهتمام رئيسهم ، وكان يثير إعجابهم بخلقهم الصارم المستقيم ، اعتقدوا ان حذره الشديد ينبىء بمخطر محقق . غير انهم عجزوا عن تقدير جسامة هذا الخطر . وان هم لاذوا بالصمت المطبق ، فذلك بالفطرة . وكالكلاب التي تحاول ان تتبين مقصد الصياد الماهر وتطيعه إطاعة عمياء دون ان يعطيها امراً جلياً ، راحوا يتحرون بالنظر وادي كويسنون ، وغابات الطريق ، ووجه قائدهم المتجههم ، محاولين ان يقرأوا فيه مصيرهم .

كانوا يتشاورون بالنظر ويتبادلون الابتسامات ذات المعاني الخفية .

فاذا كشر هولو ، تتم « بوبيه : ذو القدم الجميلة » ، مهرج الفرقة ، قائلاً : يا للشيطان ! ترى في أي مأزق نحن واقعون حتى يقابلنا هولو بهذا الوجه العبوس كأنه في مجلس حربي .

ألقى هولو على بوبيه نظرة قاسية فعاد السكون يخيم تحت الاسلحة المشهورة ، ووسط هذا السكون الرهيب كانت خطوات الجنود ، التي صاحت رمال الطريق تحت وطأتها ، تتحرك بإيقاع رتيب يزيد في الانقباض العام . مثل هذا الشعور الذي لا حدود له لا يفهمه إلا الذين وقعوا فريسة انتظار فظيع وأحسوا في سكون المساء بقلوبهم تزداد خفقا لسباع حركة مريبة ، كلما عادت بحسها الريب سكبب الرعب في قلوبهم قطرة قطرة .

وبعد ان رجع القائد الى منتصف الطريق راح يتساءل : اتراني اخطأت ؟ وكان يتطلع وشرار الغضب يتطاير من عينيه الى مارش آتير الهادىء البليد . غير ان السخرية الوحشية التي استطاع الناعق ان يركزها في نظرة حقود نبهت هولو الى عدم التخلي عن اتخاذ التدابير الوقائية . في هذا الوقت ، رجع ميرل الى قائده بعد ان نفذ اوامره . وكان الممثلون

الصامتون في هذا المشهد ، الشبهون بألوف غيرهم من الذين جعلوا من هذه الحرب افطع كارثة ، ينتظرون بفارغ الصبر انفعالات جديدة ، واذا بهم يرون بذهول جلاء النقاط المظلمة في وضعهم الحربي .

قال القائد هولو مخاطباً ميرل :

- لقد احسنا صنعاً ايها الملازم بوضعنا في مؤخرة الفصيلة عدداً صغيراً من المواطنين . خذ عشرة من الجنود واجعل عليهم «لوبران» . واتجه بهم سريعاً الى مؤخرة الفصيلة ليدعموا المواطنين وليساعدوهم في تحريك جماعة المجندين وحشم لبوغ المرتفع الذي يشغله الرفاق هناك . انني في انتظارك .

اختفى الضابط وسط الجيش . وتطلع القائد الى اربعة رجال عرفوا بمحذقهم وخفة حركتهم فاستدعاهم باشارة حبية من كفه وقال لهم :

- لقد خدمتم معي تحت قيادة هوش يوم اعدنا الى الصواب اولئك اللصوص ، الذين يسمون انفسهم «قناصة الملك» وانتم تعرفون كيف كانوا يختبئون ليخدعوا الزرق ويعيدوهم .

حيال هذا التقريظ ، رفع الجنود الاربعة رؤوسهم عالياً كاشفين عن وجوه بطولية تنبئ ان آراءهم لم تتعد جمعياتهم الخلفية وحرايمهم المشهورة منذ بداية الحرب بين فرنسا واوروبا . وبشفاه مزمومة تطلعوا الى قائدهم بانتباه .

اردف هولو قائلاً وكان بليغاً في استعمال لغة الجنود :

- لا يجوز لنا نحن الجنود الاقوياء ان ندع الناعقين يقلقون راحتنا . والافلن يكون اسمي هولو . انتم الاربعة ستقاتلون على جانبي الطريق . اما الفرقة فستعلن النفير . هيا ، شدوا العزائم واحرصوا الا تخفضوا الحراسة ، وانبثوني بما يجد بسرعة .

قال ذلك ودلهم على القمم الخضراء المشرفة على الدروب : وعلى سبيل الشكر رفع الجنود ايديهم ، مقلوبة ، الى مقدمة قبعاتهم ذات الاطراف المسترخية على الجبين . وكان بين هؤلاء جندي يعرفه هولو معرفة جيدة يدعى العريف لاروز . هز بندقيته بعنف وقال :

– سنلقن الاعداء درساً قاسياً يا سيدي القائد .

وذهب الجنود الاربعة ، بعضهم باتجاه اليسار والبعض الآخر الى اليمين .
وبتأثر خفي شنيع افراد الفرقة رفاقهم الاربعة الذين تواروا على جانبي الطريق .
ولم يكن القائد هولوا قل منهم تأثراً ، فقد كان يخشى ان يكون ارسلهم الى موت
محتم ، بل احس برعدة في جسمه عندما غابت رؤوس قبعاتهم عن ناظريه . وظل
الضباط والجنود يصيغون السمع الى وقع اقدامهم المتلاشي على اوراق الاشجار
الجافة ، وهم على اشد ما يكون من الهلع ، ولا غرابة في ذلك ، ففي الحروب
غالباً ما يثير مشهد اربعة رجال يسرون الى حتفهم الهلع في النفوس اكثر من
رؤية الوف الموتى في ارض المعركة . وللملاح العسكرية تعابير متعددة تدعو
الرسامين الى ابرازها احياء لذكريات الجنود وتمكين النفوس الآمنة من تفحص
هذه الوجوه المحزنة . فالمآسي الغنية بالتفاصيل لا يمكن وصفها الا بسيل من
العبارات الطويلة .

ما كاد الجنود الاربعة يتوارون عن النظر حتى عاد ميرل وقد انجز اوامر
القائد بسرعة . وبيضع اوامرصف هولورجال فرقته للمعركة وسط
الطريق ، ثم امر بتسلق قمة جبل بلرين حيث تتمركز فرقة صغيرة من الحرس
الامامي . الا انه سار في المؤخرة ونحطى بطيئة ليراقب اقل طاريء على جميع
نقاط هذا الاطار الفاتن من الطبيعة الذي جعله الانسان رهيباً مفجعاً . ووصل
هولو الى حيث يقوم جيرار بحراسة مارش آتير الذي كان قد تتبع جميع مناورات
القائد بعدم اكتراث في الظاهر ، إلا أنه راقب بانتباه شديد الجنديين اللذين توغلا
في الغابة القائمة على يمين الطريق . وصفر ثلاث مرات او أربع ، مطلقاً صرخات
صافية نافذة تشبه نعيب البوم ، وهكذا كان المهربون الثلاثة المعروفون الذين تقدم
ذكرهم يطلقون في الليل شيئاً من هذه الاصوات للتنبيه الى الاخطار التي
تصادفهم والى كل ما يهمهم أمره . وذلك ما كان سبباً في تسميتهم الشوان ،
ومعناها البومة بلغة تلك المناطق .

ثم أطلق اسم « شوان » في الحرب الاولى على الذين كانوا يقلدون الاشقاء

الثلاثة بالحركات والمظاهر .

واذ سمع القائد هولوا الصغير الذي أطلقه مارش آتير وقف يمدق الى الرجل . وتظاهر بأنه خدع بمظهر اللامبالاة الذي أبداه ليحتفظ به كأداة تعكس تحركات العدو . وعلى هذا الاساس أمسك هولوا بيد جيرار المرفوعة لدفع الناقع الى الامام ، ثم وضع جنديين على بضع خطوات من الجاسوس وأمرهما خفية ان يظلا على استعداد لاطلاق النار عليه لدى أقل اشارة تبدر منه ، اما مارش آتير فعلى الرغم من الخطر المهدق به ، لم يبد أي انفعال ، وقد لحظ القائد الذي كان يتفحصه جيداً هذا التغلغل وخاطب جيرار بقوله :

– الطائر الغريد قصير المعرفة . ليس من السهل تبين أي شيء على وجه ناعق . إلا ان هذا الذي امامنا قد فضحته رغبته الملحة في التظاهر بالجرأة . رأيت يا جيرار ، لو انه لعب دور الجبان الرعديد لكنت اعتبرته أبه ولكننا ، أنا وهو ، صنوان ، فقد كنت على وشك الوقوع في الخطأ . اننا عرضة للهجوم . فليات الأعداء ، انا على استعداد لمواجهةهم الآن .

وبعد ان تلفظ القائد بهذه الكلمات بصوت خافت وبلهجة المنتصر . فرك يديه وألقى على مارش آتير نظرة ثاقبة ثم شبك ذراعيه على صدره ووقف وسط الطريق بين الضابطين بانتظار نتيجة التدابير المتخذة . وراح ينعم النظر بهدوء في جنوده وهو مطمئن البال من جهة المعركة .

قال « بو بيه » بصوت منخفض :

– سيفنسي الرصاص بعد قليل ، فالقائد يفرك يديه ..

ان الوضع الحرج الذي واجه القائد وجنوده من الاوضاع التي تهدد الحياة حقاً والتي يحرص ذوو العزم من الرجال ان يجابهوها بهدوء الاعصاب وانطلاق الأسارير اظهاراً لرجولتهم . وكذلك جعل القائد هولوا ، وهو أدري من مساعديه بالخطر المهدق ، نصب عينيه كرامته العسكرية ، فبدا هادئاً يرسل بصره الى جميع الجهات متأملاً مارش آتير والطريق والغابة . ويقلق خفي كان ينتظر انطلاق رصاص الناعقين ، وقد خيل اليه أنهم محتبثون كالجن حوله ، إلا انه ظل منبسط الأسارير . وعندما تعلقت عيون الجنود به انكشفت وجنتاه السمران والطرف

الايمن من شفته العليا و اغض عينيه ، وتلك كانت بوادر ابتسامة القائد هولو
بنظر جنوده . ثم ربت على كتف جيرار قائلاً :

– نحن الآن في فترة هدوء ، ماذا اردت ان تقول لي منذ حين ؟

– في أي مازق جديد نحن الآن يا حضرة القائد ؟

– ليس الشيء يجديد ، فأوروبا ضدنا وستلعب دوراً مهماً هذه المرة . فبينما
يقاتل أعضاء « مجلس المديرين » بعضهم بعضاً كالجناد الجامعة في الاسطبل ، وبينما
ينهار كل شيء كالحرق البالية في الحكومة ، نجد القوات المحاربة بدون نجدة . لقد انهمزنا
في ايطاليا ! اجل ، يا صديقي ، لقد أخلينا « مانتو » إثر كارثة « تريبياء » ، وها
هو « جوبير » قد خسر معركة « نوفي » . املي ان يتمكن الجنرال « ماسينا »
من الاحتفاظ بمراتنا في سويسرا التي اجتاحتها « سوفاروف » . وقد انهار
جيشنا في « الرين » فأرسلت اليه حكومة المديرين بالقائد « مورو » . فهل يحمي هذا
الارنب الحذر الحدود ؟ ارجو ذلك . غير ان تكمل الحلفاء سيحقتنا . وما
يؤسف له ان القائد الوحيد الذي يستطيع ان يخلصنا هو هناك ، في مصر ، ترى
كيف يتسنى لنا بوليون بونايرت الرجوع وانكلتري هي سيدة البحار ؟ .

– غياب بونايرت لا يقلقني يا حضرة القائد .

بهذا اجاب الضابط الشاب جيرار ذي التفكير المتفوق والثقافة العالية ،

واردف قائلاً :

– هل تقف ثورتنا بسبب غياب الجنرال ؟ آه ! ان مهمتنا ليست الدفاع عن
اراضي فرنسا فحسب ، بل لنا مهمة مزدوجة تشمل الدفاع عن روح البلاد
ومبادئ الحرية السمحة والاستقلال ، هذا الادراك البشري الذي ايقظته
« مجالسنا » سينتصر رويداً رويداً على ما اعتقد . ففرنسا كسافر انيط به حل
المشعل ، تحمل مشعلها بيد وتدافع عنه باليد الاخرى . فاذا كانت انبواؤك
صحيحة ، فالبلاد وشرائعها على وشك الانهيار . فنحن لم نكن منذ عشر سنوات
محاطين بمثل هذا العدد من الناس الذين يتوخون ضياع فرنسا .

فأجابه القائد هولو وهو يصعد الزفرات :

- اجل، لقد عرف اعضاء مجلس المديرين المغفلون كيف يتدبرون الأمر مع جميع الرجال الذين يحسنون ادارة دفة السفينة . لقد تحلى عنا برنادوت ، وكارنو ، والمواطن تاليران ذاته ، ولم يبق في الميدان سوى وطني واحد صالح هو صديقنا فوشه الذي يتلقى كل شيء من البوليس . هذا رجل ! ، كما انه هو الذي اخبرني في الوقت المناسب عن هذه الثورة ، وها نحن في الفتح ، انتي متأكد من ذلك ، قال جيرار :

- اوه! لو ان الجيش خفف قليلاً من تدخله في شؤون الحكم لسبب لنا النواب من المحن اكثر مما كنا عليه قبل الثورة : هل لمثل هؤلاء الصعاليك ان يحكموا ؟ فاجاب هولوا .

- ما برحت متخوفاً من ان يتعاملوا مع آل بوربون ، يا الله ، ترى ماذا يحل بنا نحن اذا تم التفاهم معهم ؟

- لا، لا يا سيدي القائد، لن نصل الى هذا الحد ، فالجيش يرفع الصوت عالياً كما ألحمت ، وفي يقيني اننا لم نجازف بأرواحنا طوال عشر سنوات في سبيل مكاسب وطنية لندع غيرنا يستمتع بها .

- اجل، لقد عانينا مشقات عظيمة في سبيل الحفاظ على أهدافنا .
وهنا قال الضابط ميرل :

- حسناً ، لتتصرف هنا كوطنيين صاقين ولنجتهد ألا نسدع الناعقين يتصلون بـ« سكان » فاندو ، اذ لو فعلوا ذلك وتدخلت انكلترا فقد لا أكفل نجاح قلنسوة الجمهورية التي لا انفصام لها .

في هذه اللحظة انطلقت صرخة يوم من مسافة بعيدة فانقطع مجرى الحديث . والتفت القائد ، وكان اشد قلقاً من الجميع ، نحو مارش آتير فلم ير على وجهه بريق حياة ، والمجنودون المتجمعون تحت قيادة ضابط كانوا أشبه بقطيع وسط الطريق على مسافة ثلاثين خطوة تقريباً من الفرقة المشتبكة في المعركة ، ووراء هؤلاء ، على مسافة عشر خطوات ، جنود ومواطنون بقيادة الضابط لوبران .

ألقي القائد نظرة على هذا الترتيب الحربي وحدق للبرة الاخيرة الى مجموعة الرجال المتمركزة في المقدمة على الطريق ، واذا اعجب بما رأى عاد فالتفت

ليمطي الامر بالزحف . وهنا رأى الشارات المثلثة الالوان على الجنديين العائدين بعد ان فتشا الغابة على يسار الطريق . وقد اراد القائد ان ينتظر عودة الكشافين الآخرين اللذين ذهبوا ليفتشا الغابة الى اليمين . وقال لمساعديه إنه قد تنفجر القنبلة من هذه الناحية ، أي من الغابة التي اختفى فيها الكشافات المذكوران اعتبارا مفقودين .

فيما كان الجنديان العائدان يتلوان عليه ما يشبه التقرير عن مغامرتها ، كفت هولوا عن النظر الى مارش آتير فأخذ يصفر بعنف بقصد اىصال صرخته الى مسافة عظيمة . وقبل ان يتمكن اي من حارسيه من صفعه انهال عليها بضربة سوط قلبتها على حافة الخندق ، وفي اللحظة ذاتها فوجيء الجمهوريون بصراخ ، او بالاحرى بزئير وحشي ، تبعته فرقة رصاص هائلة مصويبة الى المكان الذي سبق ان قعد مارش آتير فيه وجندل الرصاص ثمانية جنود او سبعة . وانطلق مارش آتير ورصاص الجمهوريين يسدد نحوه ولا يسه . وتوغل في الغابة بعد ان تسلق المنحدر بسرعة ! فكان يتدحرج الى الهوة كالدولاب ، فظهر شكل جزمته الضخمة المحددة على غرار احذية القناصة الملكيين ، ولدى انبعث الصرخات الاولى التي اطلقها الناعقون ، اندفع جميع المجندين الى الغابة ، يمين الطريق ، كأنهم رف من الطيور يطير لدى اقتراب المسافر .
صاح القائد هولوا :

– اطلقوا النار على هؤلاء الفارين .

واطلقت الفرقة النار على المجندين الفارين الذين عرفوا كيف يتحامون الرصاص بالالتصاق بالاشجار . وقبل انتهاء فترة تعبئة البنادق ثانية كان الهاربون قد اختفوا . وهنا خاطب هولوا جيران بقوله :

– تلك هي نتيجة المراسم بتجنيد الفرق الاقليمية ! هه ! ينبغي ان يكون الانسان حيوانا كعضو من اعضاء ذلك المجلس ليعتمد على المصادر للتجنيد في هذه البلاد .

ليت اعضاء الجمعية العمومية كانوا اقل سخاء بمراسيمهم السخية التي تغدق

الذخائر والمؤن والسلاح ، حبراً على الورق ، مقابل مدنا بقليل من ذلك بالفعل لا بالكلام .

— هؤلاء ضفادع يفضلون اللقمة على الذخيرة ، قال بوبيه أخبث جندي في الفرقة . وما كاد يتلفظ بها حتى تصاعدت من الفرقة قهقهات وكلمات ساخرة بحق الفارين . إلا ان السكوت عاد فساد المكان فجأة . فقد شاهد الجنود القناصين اللذين كان القائد قد أرسلها لتفتيش الغابة الى يمين الطريق يهبطان السياج بكل صعوبة ، والاقبل جراحاً منها يسند رفيقه الذي كان يروي الارض بدمه . وكان الجنديان التعسان قد تمكنا من الوصول الى منتصف المنحدر عندما ظهر مارش آتير بوجه الكالنج ، فأرداهما برصاص بندقيته فتدحرجا الى الهوة . وما كاد رأسه الضخم يظهر حتى كانت فوهات ثلاثين بندقية قد صوبت اليه ، إلا أنه اختفى وراء الاشجار الكثيفة كالشبح .

هذه الحوادث التي تتطلب الكثير من الكلمات جرت في وقت وجيز . وكذلك انضم الوطنيون وجنود حرس المؤخرة الى بقية الموكب بسرعة . وبأمر من القائد سارت الفرقة الى الامام ، وسرعان ما وصلت الى المكان المرتفع واكتشفت مكان الودد الموضوع كعلامة . إلا أنها لم تلاحظ أي بادرة عدائية من قبل الناعقين وحسبت ان الهدف من هذه الضجة التي أثارها هؤلاء هو تحرير الجندين فقط ، وهنا خاطب هولو مساعديه بقوله :

— يبدو لي من الصرخات التي سمعناها ان عدد هؤلاء ليس كبيراً . بإمكاننا ان نصل الى « عرنه » قبل ان يلحقوا بنا اذا حثثنا الخطى .

سمع هذه الكلمات متطوع وطني خرج من بين الصفوف ومثل امام هولو وقال له :

— سيدي الجنرال ، سبق لي ان اشتركت في الحرب كناعق معاكس ، هل تسمح لي بكلمة ؟

وقبل ان يجيبه بكلمة مال الى ميلر وأسرّ في أذنه قائلاً ، وهو يشير الى الجندي :

- انه محام . والحامون يحسبون انهم دوماً على منبر المرافعة .

ثم التفت نحو الجندي وأجابه :

- والآن رافع اذا شئت .

- أيها القائد ، ان الناعقين لا بد ان يكونوا حملوا معهم السلاح الكافي لهؤلاء الذين انضموا اليهم اليوم ، فاذا مشينا أمامهم يفاجئوننا في الغابة من كل ناحية ويقتلوننا جميعاً قبل ان نصل الى « عرنه » . ينبغي ان أرفع كما قلت . ولكن المرافعة لا تفيد بدون ذخيرة ، في رأيي ان يذهب احد الرفاق في طلب الحرس الوطني والفرق المرابطة في فوجير فتصل الى هنا قبل انتهاء المناوشة التي سيطول امدها اكثر مما تتصور ، واذا ذلك ستعرف اننا من سلالة العقبان وان كنا حديثي عهد بالجنديّة .

- في زعمك ان عدد الناعقين كبير اذن ؟

- احكم بنفسك ايها القائد المواطن .

قال ذلك وقاد الجنرال هولوا الى مكان منبسط حيث التراب مبعثر كأنه محروث بالمعول . وبعد ان لفت نظره الى ذلك ، قاده الى طريق متربة حيث شاهدا آثار اقدام تدل على مرور عدد كبير من الرجال وقال الجندي :

- هؤلاء هم فتيان « فيتره » وهم ذاهبون للانضمام الى معسكر نورمانديا

السفلى .

- ما اسمك ايها المواطن ؟

- غودان ، يا سيدي القائد .

- حسن يا غودان ، رقيتك الى رتبة عريف وستكون رئيساً لرفاقك المدنيين .

يبدو لي انك رجل حازم . افوضك باختيار احد الرفاق لترسله الى فوجير ، اما انت فتبقى الى جانبي ، وقبل كل شيء اذهب مع رفاقك المجندين وجرّدوا رقيقكم اللذين صرعا برصاص العدو من سلاحيهما وملابسهما .

وذهب ابناء فوجير ليجلبوا متروكات القتيلين تحت حراسة الفرقة التي صوبت

فوهات بنادقها الى الغابة ليتمكنوا من تجريد القتيلين دون ان يس

احدهم بأذى .

وذهب مبعوث غودان ، راکضاً في طريق ضيقة متعرجة في الغابة التي الى يسار الطريق . واستعد الجنود للمعركة ، وبعد ان استعرضهم الرئيس الأعلى ابتسم لهم ووقف على مسافة بضع خطوات من المقدمة مع مساعديه المفضلين بانتظار هجوم الناعقين . وساد السكون مرة اخرى ، لكن لوقت قصير ، فقد سد احد منافذ الغابة من جهة اليمين ثلاثمائة ناعق لا تختلف بزاتهم العسكرية عن بزات الجنود المصادرين وجاءوا بدون نظام يحتلون الطريق امام عين كتيبة الزرق الضعيفة ، وكانوا يطلقون صيحات نخيفة .

قسم القائد هولو جنوده الى صفتين متعادلتين كل منهما مؤلف من عشرة رجال ووضع في وسط هذين الصفتين اثني عشر مجنداً جهزوا بالاسلحة بأقصى السرعة ووقف هو في المقدمة .

هذا الجيش الصغير الذي كان يحميه جناحان كل منهما من خمسة وعشرين رجلاً كانوا يقومون بمناورات على جانبي الطريق تحت إمرة جيرار وميرل . وكان على هذين الضابطين حصار الاعداء ومنعهم من التفرق والانتشار في ارجاء الغابة حيث يحتمي كل واحد منهم بحاجز او شجرة ليطلق النار على « الزرق » دون ان يخشى خطراً ليتضعض الجمهوريون ويعجزوا عن مباغطة اعدائهم .

اتخذ القائد هولو هذه التدابير بالسرعة المرجوة وسار الجميع بصمت وثقة في النفس نحو الناعقين . وخلال دقائق قليلة من زحف الفريقين للتلاقي ، تبادلوا النار ووقع ضحايا من الجانبين .

وفي الوقت ذاته وصل الجناحان الجمهوريان سالمين الى امكنة قريبة من الناعقين وفتحوا ناراَ حامية متواصلة نشرت الموت والفوضى في صفوف الاعداء وبهذه المناورة تعادلت الخسائر بين الجانبين غير ان الناعقين ذوي الطبع العنيد والصبر على المحن ، لم يتحركوا من اماكنهم ولم تخذلهم الخسائر التي منوا بها ، بل ازدادوا تلاحقاً ، واجتهدوا في تطويق الفرقة المتراسة امامهم كأنها خلية نحل حول ملكتها . واشتبك الجانبان في معركة رهيبة بالاسلحة الابيض .

وباشتباك الاجسام والجرأة المتعادلة يكون العدد الاكبر هو ما يقرر النصر
الاخير . وكان بإمكان الناعقين ان يحرزوه لو لم يتمكن الجناحان بقيادة جيران
وميرل من اطلاق زختين او ثلاث من الطلقات النارية حصدت مؤخرة الاعداء ،
وقد كان يتوجب على الزرق من هذين الجناحين ان يظلوا محتفظين باماكنهم وان
يستمرروا في صيد اعدائهم بمهارة ، غير انهم تهيّبوا المخاطر التي تحيق بالكتيبة
الباسلة ، وقد احاط بها قناصو الملك من كل جانب . فهرعوا الى الطريق
كالمجانين وخاضوها الى جانب الكتيبة معركة هائلة فاقت جميع الممارك ضراوة
وفظاعة . وكل فريق منهما قدر ما كان يحيق به من الخطر فقاتلوا بصمت
رهيب . ووسط هذا الصمت لم يكن يسمع سوى صليل الاسلحة ، وحفيف
الرمال تحت الارجل ، وانين مخنوق يتصاعد من الجرحى والمحترجين .

كان المجددون القلائل الباقون في الفريق الجمهوري يناضلون ببسالة فائقة حتى
ان الجنود قاطعوا عدة مرات القائد الذي كان يعطي الاوامر والارشادات ،
هاقنين لهؤلاء البواسل « عاش المجددون » .

وقد شاهد هولوا اليقظ بين الناعقين رجلاً محاطاً ، مثله ، بالجنود ، هو ، ولا
شك ، القائد . وبدا له ان من الضروري ان يتبين هذا الرجل بوضوح . لكن
محاولاته لتمييزه باءت بالفشل . ولقد رأى مارش آتير الى جانب قائده
يعيد الاوامر بصوت اجش ، وبندقيته في نشاط مستمر .

اضاع هولوا صبره امام هذه المشاكسات المتكررة . فاستل خربته وراح
يطلق النار على الناعقين بهياج شديد وصاح في رجاله يستنهض الهمم حتى فرق تكتلهم .
فاستطاع ان يرى الرئيس الاعلى لكن وجهه كان محجوباً بقناع من الجلد
الابيض ، الا انه ، وقد فوجيء بهجوم صاعق ، اتى بجرعة ، وهو يرفع قبعته
بمصيبة ، أتاحت لهولوا ان يتبين وجهه .

ذلك الرئيس الشاب الذي لم يقدر هولوا سنه باكثر من خمسة وعشرين عاماً ،
كان لابساً سترة صيد من الجوخ الاخضر ، وفي حزامه الابيض عدة مسدسات .
كان ينتعل حذاءً مشبكاً بالحديد كالأحذية التي ينتعلها الناعقون ، وفي قدميه

مساوان^(١) ترتفعان حتى الركبتين، وتتصلان ببنطال خشن. وكان ذا قامة مربوعة متناسقة، وقد هاله اقتراب الجمهوريين منه فخفض قبعته وتقدم نحوهم ولكن، سرعان ما احاط به مارش آتير وبعض زملائه خوفاً عليه.

خيل له لو انه لحظ من خلال الرؤوس المحيطة بالزعيم رباطاً عريضاً احمر على مقلب السترة المفتوحة على صدر الرجل. وبعد ان ميز هذا الوشاح الملكي، نقل بصره فجأة الى وجهه الذي سرعان ما غاب عنه في زحمة الاصطدامات وحرصه على تفقد جيشه الصغير وتطور الأعمال الحربية.

وبكل صعوبة استطاع هولوا ان يلحظ عيني الرئيس اليراقطين. لكنه غفل عن تبين لونهما، ورأى شعره الأشقر، وقسماته الدقيقة، وبشرة لونها الشمس، وقد لفته في الرجل نضوج عنقه العاري الذي زاده رباط العنق الاسود بياضاً. وقد بدا في صموده وحماسه وبسالته جندياً عريقاً يتصرف تصرف من يتوخى من المعركة النصر والعزة والثناء.

كانت يده تهز في الهواء سيفاً يلمع في الشمس، وفي مظهره أناقاة وقوة. وفي كل حركة من حركاته صورة عن حياة القصور الفرنسية. وكان في مظهره على عكس هولوا الذي كان، وهو على بعد أربع خطوات عنه، يعطي بدوره صورة حية عن بسالة الجمهورية التي يحارب من اجلها هذا الجندي الكهل ذو الوجه الصلب والبدلة الزرقاء ذات المقالب الحمراء وشارات الكتفين القائمة المسترسلة وراء كتفيه والمعبرة تعبيراً صادقاً عن العوز والاستقامة.

لاحظ هولوا الشباب الغض والوضع الجذاب فتحداه بقوله له :

- هيا يا راقص الاوبرا، اقترب حتى أزهبك !

نارت نائرة الزعيم الملكي امام ذلك التحدي فاقترب من هولوا مستبسلاً. وما كاد أتباعه يرونه يلقي بنفسه الى التهلكة حتى وثبوا على « الزرق » في هجوم صاعق وسمع صوت لطيف واضح طغى على ضجيج المعركة يقول :

(١) المساء : ما يلف حول الساق ليقبها . بالعامية : الطباقات .

– هنا فاضت روح القديس ليكور ، ألا تتأرون له ؟

هذه الكلمة السحرية ألهمت الناعقين فتحولوا الى كواسر صعب على جنود الجمهورية ان يصمدوا امامهم دون الاخلال باصول المعركة ، وقال هولو وهو يتقهقر خطوة فخطوة : لو لم يكن على رأس الملكيين مثل هذا الشاب لما كنا هوجنا ، وهل سبق للناعقين ان خاضوا معركة ؟ لكن ، لا بأس ، لن يقتلونا كأننا كلاب على جوانب الطريق ، ثم رفع صوته وقال بلهجة صارمة مخاطباً جنوده : هيا ، يا أراني ، لن ندع العصابات تتصرف بنا كما تشاء .

وأضاف مخاطباً جيرار وميرل : استدعيا رجالكما وألتفا كتيبة . قفا في المؤخرة . وأطلقوا النار على هؤلاء الكلاب لنقضي عليهم . نفذ أمر هولو بصعوبة ، اذ ، ما ان سمع الرئيس الشاب صوت عدوه حتى صاح بدوره : وحق القديسة خنة لا تتركوهم ، توزعوا يا جنودي .

لما انفصل الجناحان اللذان تحت امرة جيرار وميرل من المعركة ، كان وراء كل كتيبة فرقة من الناعقين تفوقها عدداً . وكان ان احاط لانسون ذوو جلود المعزى بجنود جيرار وميرل من كل جانب ، وهم يطلقون صرخات رابعة أشبه بالزئير . وقد انتهرهم بوبيه الجمهوري بقوله :

– السكوت أيها « السادة » . لسناعلى استعداد للوت !

هذه الدعابة أيقظت بطولة الزرق وبدلاً من ان يقاتل الجمهوريون في نقطة واحدة راحوا يدافعون عن أنفسهم في ثلاثة امكنة مختلفة من سهل البلين . وقد دوت أصداء صليل السلاح والطلقات النارية في الاودية الهادئة وكانت قوة الفريقين متعادلة ، فلم ترجح كفة النصر لأي منها . كلا الفريقين استمتا في القتال وكانت المعركة تزداد ضراوة عندما سمع صوت قرع الطبول من بعيد . وحسب مصدر الصوت ظهر ان القادمين يجتازون وادي كويسنون . وهنا صاح غودان بصوت حاد : حرس « فوجير » الوطني !

بانطلاق هذا الهتاف الذي سمعه زعيم الناعقين ورئيس أركان حربه قام الملكيون بمحركة تقهقر فأطلق مارش آتير بصيحة وحشية ، سمعت لها

أقدامهم وبصوت خافت أعطى الرئيس بئمة أوامر نقلها مارش آتير الى الجماعة بلغة بريتانيا السفلى وبذلك تمّ تراجعهم بمهارة أدهشت الجمهوريين وقائدهم. فموجب الأمر الاول انتظم الصحاح من الناعقين في صف واحد مكونين جبهة انسحب وراءها الجرحى وبقية الاتباع ليعبثوا بنادقهم ، ثم ، فجأة ، وبخفة اشتهر بها مارش آتير ، وصل الجرحى الى أعلى القمة التي تشرف على بين الطريق ولحق بهم نصف الناعقين الذين اجتازوها ليصلوا الى القمة غير مظهرين للجمهوريين سوى رؤوسهم العنيدة . وهناك أقاموا حاجزاً من الأشجار وصوبوا فوهات بنادقهم على بقية الركب الذي انتظم في صف وفقاً لأوامر هولوا الصارمة ليقبوا جبهة تضاهي جبهة الناعقين الذين تراجعوا على مهل ودافعوا عن مكانهم وهم يدورون على محورهم بطريقة تمكنهم من الانتظام تحت نيران بندق رفاقهم .

وعندما وصلوا الى الهوة التي تحف بالطريق ، تسلقوا بدورهم المنحدر الذي يحتل أتباعهم احد أطرافه وانضموا اليهم متحاشين نيران الجمهوريين بمهارة وهم يصلونهم ناراً حامية ليملأوا الهوة بأجسادهم .

وفي هذه اللحظة وصل الحرس القومي الى مكان المعركة وبوصوله انتهت القضية . وقد اراد هذا الحرس ، مع بعض الجنود ان يمتاز منعطف الطريق ليخوض المعركة في الغابة ، غير ان القائد أطلق صرخة قوية قائلاً :
- أتريدون ان تموتوا هناك ؟

وانضم القادمون الى فضيل الجمهورية على الساحة التي جرت فوقها المعركة والتي خسر فيها الجمهوريون عدداً كبيراً من رجالهم . اعتلت القبعات العتيقة رؤوس الحراب ، وارتفعت البنادق عالياً وصاح الجنود مرتين صيحة رجل واحد :
- عاشت الجمهورية !

حتى الجرحى الجالسين على جانب الطريق شاركوا في تلك الحماسة . وشد « هولوا » على يد « جيرار » بانفعال وحماسة .
ثم عهد الى « ميرل » بدفن الموتى في مجرى السيل الممتد على جانب الطريق .

كما اهتم بعض الجنود بنقل الجاريج. وصودرت عربات النقل والدواب من المزارع القريبة لحمل الجرحى الموجهين بسرعة فوق مخلفات القتلى .

ولقد سلم حرس فوجير الوطني الى القائد ، قبل ذهابهم ، جريحاً من العصاة متخفياً بجراحه كانوا ألقوا القبض عليه بكعب الطريق ذي الجوانب الشديدة الانحدار ، في المكان ذاته الذي انطلق منه العصاة هاربين ، مخلفين وراءهم هذا الزميل الذي خانته قواه المنزوفة فسقط .

قال هولو : شكراً لكم أيها المواطنين لما مددتم الينا من يد المساعدة ! .
وحق الصواعق لولاكم لتقضينا دقائق رهيبية .. حذار ، تيقظوا ، فالحرب قد بدأت .. وداعاً أيها الشجعان ! .

ثم التفت هولو نحو الجريح وقال له :

- ما اسم قائدك ؟

- الغار^(١) .

- من ؟ .. « مارش آتير » ؟

- كلا ، الغار .

- من أين جاء هذا الغار ؟

امام هذا السؤال لزم الناعق الصمت ، وقد ارتسم على وجهه الحشن الوحشي علامات الوهن الذي يحدثه الألم الشديد، وقد اخذ بسبحته يتلو عليها دعوات ضلته .
تمتم هولو قائلاً :

- الغار ، لا ريب ، هو ذاك المتأنق الشاب ذو العقدة السوداء ؟! انه هو

رسول « الطاغية » ، ومبعوث حليفه البريطانيين « بيت » و « كوبرغ » .

- بل مبعوث من عند الله والملك !

قالها الريفي بجدة اتت على البقية من قواه . فعلم القائد انه من العسير استجواب هذا الرجل المحتضر الذي كان كل مظهر من مظاهر ثباته وجلده ينم

عما انطوى عليه صدره من التعصب الغامض . فحول رأسه مقطباً .
هناك تراجع جنديان بضع خطوات الى خلف ، وكانا من اصدقاء النفرين
الذين عجل بها مارش آتير الى حتفها على جانب الطريق بلسعة من سوطه .
فسددا بندقيتهما نحو الجريح وعيناه ترمقان الفوهة بطرف لا يخلج . واطلق
الجنديان الرصاص عليه عن كنب فسقط .

فاذا اقتربا لانتزاع ملابسه صاح بصوت لا يخلو من العزم :

- عاش الملك !

- نعم ! ، نعم ، يا مكار ! اذهب الآن الى سيدتك « العذراء » الطيبة
وتناول خبزك .

كذلك قال « مفتاح القلوب » ، واردف :

- الا ترونه كيف يزعق في وجوهنا: عاش الطاغية . ونحن نحسبه في مشواة

جهنم !

مد بوييه يده برزمة اوراق قائلاً :

- اليك يا سيدي القائد اوراق اللص .

وصاح مفتاح القلوب :

- تعالوا انظروا الى هذا الفرد من عساكر الرحمان الذي يزين بطنه بالألوان .

اقترب هولو وعدد من الجنود ليحيطوا بجثة القتيل وهي بكامل العري .

فشاهدوا على صدره وشماً ازرق اللون يمثل قلباً لاهباً . وكان ذلك هو اشارة

المريدين في جمعية « اخوة القلب المقدس » .

ولقد استطاع هولو ان يقرأ تحت الشارة : ماري لمبركان ، وهو دون شك

اسم ذلك الناعق .

قال بوييه :

- أترى يا مفتاح القلوب ! لو ظلت ألف عام تبحث ، لما حزرت لأي شيء

يفيد هذا الزي .

- وهل تراني فقيهاً بازياء البابا ؟

قال بوبيه :

- يا غبي ! أستقضي العمر دون ان تتعلم شيئاً . كيف خفي عليك انهم بشروه بالبعث بعد الموت . فصبغ صدره ليعرف نفسه يوم الحشر !
امام هذه الملحة التي لم تكن من دون أساس ، لم يستطع هولوا كبح جماح مرحه فانخرط مع جنوده في ضحك صاخب .

كان ميرل قد أنجز مهمة دفن الموتى . اما المجاريح فقد جعلوا في عربتين على نسق لا يخلو من الفوضى . وحفّ بالعربتين باقي العسكر ، بعد ان تولوا ترتيب أنفسهم على صفين يواكبان المحفّتين المرتجلتين ، منحدرين على قفا الجبل المطل على «المالين» حيث يشرف الناظر على وادي «البرلين» المنافس لوادي «الكويسنون» بحسنه وبهاء مناظره .

تبع هولوا جنوده بخطى وثيدة ، يرافقه صديقه ميرل وجيرار ، وهو يمني النفس ببلوغ «عرنه» دون حادث ، حتى يتم اسعاف الجرحى .

تلك المعركة ، التي دعيت باسم الموقع الذي نشبت فيه ، تكاد تكون منسية في غمرة الاحداث الجسام التي كانت تتمخض بها فرنسا في ذلك العهد .

اما في المناطق الغربية فقد أثارت شيئاً من الاهتمام لما لمسه السكان من تبدل في الطريقة التي عاود بها الناعقون الحرب . وجلّ الاهلين في تلك المناطق شغلهم هذا العvisان المسلح الذي اندلعت نيرانه للمرة الثانية ..

ففيما مضى لم يكن الناعقون ليقدموا على التصدي لفرق عسكرية بمثل هذه القوة .

ترأى لهولو ان الثائر الملكي الشاب الذي شاهده لا بد ان يكون هو «الفار» ذاك الذي أوفده الامراء الى فرنسا ليتولى مهام القيادة الجديدة .. وقد أخفى لقبه واسمه بكنوة من الكنوات ، الشهيرة بـ «باسم الحرب» .

ذلك ما جعل قائد الحملة قلقاً ، مشارهواجس ، بعد نصره الحزين ، كما كان ساعة استراب بأمر الكين . فتلفت مرات عديدة ليتأمل هضبة البرلين التي خلفها وراءه . وكان لا يزال ينبعث منها خافتاً ، على فترات متساوية ، قرع طبول

الحرس الوطني الهابط في وادي كويسنون ، بينما كان الزرق ، جنود الجمهورية ،
ينحدرون في وادي البلين .

قال هولوا لصاحبيه فجأة :

- أبينكما من يدرك علّة هجوم الناعقين ؟ .. فان طلقات البنادق بالنسبة
اليهم تجارة . وأنا لم افهم بعد وجه الربح فيها .

وأردف يقول مصعراً خده الايمن ، غامزاً بعينه لبسم :

- خسروا مائة رجل على الاقل ، بينما نحن لم تبليغ خسارتنا ستين رجلاً .
وصواعق السماء ! إني لعاجز عن ادراك مغزى هذه الصفقة التجارية . أفما كان
في وسع اولئك الحمقى ان يعفونا من هجومهم فنمضى في سبيلنا كما تمضي الرسائل
بالبريد . إني لا أرى الفائدة التي يحنونها بتثقيب اجساد رجالنا برصاصهم .

وأشار الى عربيي المجاريح بحركة حزينة من كفه . ثم أردف قائلاً :

- لعلهم ارادوا ان يصبحونا بالخير على طريققتهم .

قال ميل :

- لكن يا سيدي القائد ، لقد آبوا من المعركة بعصافيرنا المائة والخمسين ..

قال هولوا :

- لو ان هؤلاء قفزوا الى الغابة كالضفادع لما حاولنا استعادتهم ، خصوصاً
بعد رشّة الرصاص الغادر التي قوبلنا بها . كلا ! كلا ! .. إن وراء الأكمة ما
وراءها .

وتلفت هولوا صوب « البلين » ، وما كاد يفعل حتى صاح :

- انظروا ، هل ترون ؟!

وبالرغم من ابتعاد الضباط الثلاثة عن ذلك النجد المشؤوم ، فقد استبان
عيونهم المتمرسه ، بغير جهد ، مارش آتير وعدداً من جماعة الناعقين فوق ذلك
النجد الذي احتلوه مجدداً .

(١) النجد ؛ ما أشرف من الارض وارتفع .

صاح هولو بجنده :

- سيروا هرولة !! افسحوا الخطو !! .. حثوا الجياد لمزيد من السرعة .. ام ترى قوائمها قد تجمدت من البرد؟! ام لملها من فصيلة « بيت » و « كوبرغ »؟! هاجت كلمات القائد فرقته الصغيرة فدب فيها النشاط .

قال هولو لصديقيه الضابطين :

- أما ذلك السر الذي يبدو لي غموضه صعب الاختراق، فنرجو الله يا صحابي ألا ينجاب عن وابل من الرصاص في « عرنه » .. اني لشديد الخشية ان يأتينا وشيكاً نأقطع الطريق الى مايان ايضاً من قبل اتباع الملك .

لم يكن امر تلك الحطة الحربية التي قف لها شاربا هولو ، في تلك اللحظة ، بأقل اثاره لقلق ذلك النفر من الثائرين الذين لهمم القائد في أعلى النجد . فحالما انقطع طبل الحرس الوطني عن القرع وشاهد مارش آتير جنود الجمهورية في اسفل النجد الطويل الذي هبطوه ارسل من بين شفثيه صغيراً كنعيب الصدى^١ . فبرزت شخوص العصاة ، لكن أقل عدداً .

ورجح في ذهن هولو ان نفراً منهم كانوا منهمكين في ابواء الجرحى في قرية البلرين القائمة على سفح الجبل المطل على وادي كويسنون . اقترب من « مارش آتير » زعيان او ثلاثة من زعماء « قناصة الملك » . وعلى اربع خطوات منهم كان النبيل الشاب جالساً فوق صخرة من الغرانيت وبدا مستغرقاً في خواطره العديدة ، التي اثارها ما ظهر من المشاكل والمصاعب في مشروعه .

جعل مارش آتير كفه على جبينه كافريرز تتقي به عيناه وهج الشمس . وتأمل مجزئ الطريق التي يسلكها الجمهوريون عبر وادي البلرين . كانت عيناه الصغيرتان السوداوان الثاقبتان تحاولان اكتشاف ما كان يجري على المنحدر الآخر ، بأفق الوادي .

(١) الصدى : نوع من البوم عظيم الرأس ، أينا درت ادار رأسه قبلك .

قال احد الزعماء بصوت خشن ، وكان واقفاً قرب مارش آتير :
- سيصادر الجنود بريدنا .

وقال آخر :

-بحق القديسة حنة الاورية ، لم حملتنا على القتال ؟ اكان ذلك لتنجو بجلدك؟
فالقى مارش آتير على صاحب السؤال نظرة تقطر حقداً وضرب الأرض
ببندقية الثقيلة وقال :

- أأنا الرئيس !؟

وبعد فترة من صمت اشار باتجاه الجنود واستأنف كلامه مخاطباً صحابه :
- لو انكم قاتلتم كما قاتلت انا لما نجا احد من اولئك الزرق .

قال ثالثهم :

- هل تظن انهم كانوا يقدمون على خفارة البريد او منعه من السفر لو اننا تركنا
مركبته تمر بسلام ؟ لكنك اردت ان تنجو بجلدك ، جلد الكلب ، لانك لم
تكن تحسب الجنود قادمين .

ثم التفت نحو الآخرين واردف قائلاً :

- من أجل سلامة خطمه خلى الخنزير دماءنا تنزف . وفوق ذلك فستضيع
علينا عشرون الفاً من الفرنكات من الذهب الصافي !

- خنوص ، وحدك !

كذلك صاح مارش آتير وهو يتأخر خطوات مصوباً ببندقية الى خصمه ،
واستأنف قائلاً : ليس « الزرق » من تبغض ، بل الذهب هو ما تحب ، لسوف
تنفق¹ دون « اعتراف » ايها القبيح اللعين الذي لم « يتناول » مرة واحدة طوال
هذا العام !

اثارت الالهانة الريفية حتى شحب لونه ، فانطلق من صدره بغام كبغام
الوحش المغضب بينما كانت يدها تتأهبان لرمي مارش آتير بالرصاص .

حال الزعيم الشاب بين المتخاصمين وبضربة من انبوب بندقية القى سلاحها

(١) نفقت الدابة : ماتت (قطست) .

ارضاً . ثم سأل عن سر تلك المشاحنة ، فقد ظلت مغلقة عليه لتراشق الرجلين في حوارهما بكلمات من البروتونية السفلى ، وهي لهجة غريبة عليه !
قال مارش آتير في كلامه :

- يا سيدي المريكز ، ان ما يزيد تحاملهم علي بعداً عن الحق اني خلفت ورائي زميلنا بيل ميش لعله ان يجد الطريقة التي يمنع بها « المركبة » من الوقوع في مخالب اللصوص .
قال ذلك مشيراً الى الزرق ، وكانوا في نظر المخلصين للكنيسة والعرش ، جميعاً من جملة قتلة لويس السادس عشر ، وكانوا في عرفهم من اللصوص السفاحين .

صاح الزعيم الشاب مغضباً :

- كيف ! اذن ، فمن اجل الاستيلاء على مركبة تنتظرون هنا حتى الآن ، ايها الجبناء ! يا من عجزتم عن تسجيل النصر في المعركة الاولى التي قدها ! ولكن كيف يتم النصر بمثل هذه المآرب والسرائر . ايكون حماة الدين والعرش من اللصوص الناهبين ؟! وحق القديسة حنة الاورية ! ان ما نريد محاربته انما هو الجمهورية لا عربات المسافرين ! ان الذين سيعودون منكم الى ارتكاب امثال هذه المعصية الشنيعة لن تكتب لهم مغفرة عند ربهم ولن يذوقوا ما اعد من الاطايب لاتباع الملك الصالحين .

انبعثت من الحاضرين جمجمة غامضة . وكان من السهل ان يرى المرء ان نفوذ الزعيم الجديد كان على وشك ان يكون مهدداً بين تلك الاقوام الفوضوية .
وبينا كان الشاب يحاول انقاذ هيبة القيادة ، وقد بدا له ما انطوت عليه تلك الجمجمة من الخطر ارتفعت في خلال الصمت قرع حوافر جواد يعدو خيماً باتجاههم .

استدارت الرؤوس بالاتجاه الذي خيل اليها ان الفارس آت منه .. كانت امرأة في مقتبل العمر ممتطية ظهر برذون بروتوني صغير الحجم على طريقة «الامازون» . وقد انطلقت مسرعة لتدنو من جماعة الناعقين حين لمحت الزعيم الشاب .

قالت وهي تنقل نظرها ما بين الثوار ورئيسهم :
- ما بالك !

- هل يخطر على بالك يا سيده ، انهم ينتظرون المركبة القادمة من مايان الى فوجير ، بغية السطو عليها وما فيها ! وقد خرجنا لتونا من مناوشة لاطلاق قتياننا من أبناء فوجير ، فقتل الكثير من رجالنا دون ان تتمكن من تحطيم الزرق .
- وما وجه الخطأ في هذا ؟! أين الضرر ؟

سألت السيدة الصبية التي تكشف لها سر ذلك المشهد بما أوتيته من دقة الاحساس الذي حبت الطبيعة به المرأة .
واستأنفت قائلة :

- فقدتم عدداً من الرجال ؟! لن يعوزنا الرجال ابداً . اما البريد فانه يحمل مالا ، وسنظل دوماً بحاجة الى المال !.. اما موتانا فسندفنهم في الارض ليصعدوا الى السماء ، واما النقود فسنأخذها لتدخل جيوب جميع هؤلاء الرجال الطيبين ..
فأين وجه الصعوبة ؟

أيد الناعقون باجماع هذه الكلمات بابتسامات غمرت وجوه الجميع .
قال الزعيم الشاب بصوت منخفض :

- أليس في ذلك ما يشير الحياء في وجهك ؟! ام هل بلغ بك الاملاق الى درجة طلبه على الطرق ؟!

- بلغ بي الجوع الى المال ، أيها المركز ، مبلغاً يكاد يحملني على رهن قلبي لقاء المال لو لم يكن أسير غيره ..

قالت ذلك وهي تبتسم بدلال .. ثم استأنفت تقول :

- من اين تراك آتياً حتى تظهر انك ستستخدم الناعقين دون ان تدعهم ينهبون هنا وهناك بعض الزرق ؟.. ألا تعرف المثل : أسرق من يومة ؟! ..
وما هو « الناعق » ؟ .. ثم رفعت صوتها قائلة :

- أليس ذلك من الاعمال العادلة ؟.. أفلم يستول الزرق على اموال الكنيسة واملونا؟

استقبل الناعقون هذه الكلمات بجمجمة استحسان تختلف جداً عن تلك الطريقة التي أجابوا بها على كلمات المركز .

انتحى الشاب بالحساء جانباً وهو مريد الجبين . وقال لها باستياء شديد ،
شأن الرجل المهذب :

- أولئك السادة هل سيحضرون الى « الفيفتير » في اليوم المحدد ؟
قالت :

- اجل . جميعاً : الأتيمي ، وجاك الكبير . وقد يحضر فردينان ايضاً .
- اسمحي اذن ان اعود من حيث اتيت ، اذ لا يسعني ان اقر امثال هذه
الاعمال اللصوية . ان ارتكابها بحضوري بمثابة اقرار لها من قبلي . نعم ياستي ،
قلت لصوصية .. أن يكون المرء هو هدف السارقين فقد يكون في ذلك
شيء من النبيل ، اما ...
فقاطعتها قائلة :

- لا بأس ، آخذ انا حصتك وشكراً لك لتخليك لي عنها . فهذه الزيادة
في حصتي ستكون خيراً وبركة بالنسبة الي . لشد ما تأخرت والدي بموافاتي بالمال ،
حتى كدت اياس .

- وداعاً ! قالها المريكيز بصوت منفعل لا يخلو من النعومة .
ثم اختفى عن الأنظار ، غير ان السيدة أسرع في اللحاق به وسألته لم لا
يبقى معها ، وهي تحدج بنظرة عميقة فيها تعالٍ وشغف واغراء ، قال الشاب :
- ألا تنهبون المركبة ؟

- نهب المركبة ؟ ما هذا التعبير ؟! دعني اوضح لك الأمر ...
قال ، وهو يلثم يدها بكياسة مصطنعة :

- لو وجدني رجالنا هنا أثناء السطو على هذه المركبة فلن يوفروا دمي .
قالت بصوت نزق :

- لن يقتلوك ، بل يقيدوك بوقار يلقى بمركزك . وبعد ان يفرضوا على
الجمهوريين المساهمة الضرورية لجهازهم ومعيشتهم وما يشترون به البارود فسطيعونك
اطاعة عمياء .

- ورغم ذلك تريد ان أكون القائد هنا؟ اذا كانت القضية التي ادافع عنها

في حاجة الى حياتي فاسمحي لي ان انقذ شرف المهمة الملقاة علي . إني بانسحابي من هنا أستطيع ان تجاهل هذه الدناءة . ومن ثم أعود لاصطحابك .

قال ذلك مبتعداً بسرعة وهي تصفي الى وقع خطواته بانفعال ظاهر . واذ تلاشي حفيف الاوراق اليابسة تحت وطء أقدامه بدت في حيرة من أمرها ، ثم أسرع نحو الناعقين ، وبجركة تم عن الازدراء قالت لما رش آتير وهو يساعدها على النزول عن الحصان :

- ان هذا الشاب يريد مهاجمة الجمهورية بحرب نظامية ..! لسوف يبدل رأيه بعد ايام معدودة .. ثم أردفت قائلة : يا للمعاملة التي لقيتها منه ..! جلست على الصخرة التي سبق للمركيز ان جلس عليها وانتظرت بهدوء وصول العربية :

لم يكن من النادر في ذلك العصر وجود سيدة نبيلة في دوامة المعارك الناشبة ما بين الملكيين والجمهوريين . تدفعها العاصفة العنيفة ويحرفها تأجج الحواس في تيار لم تكن شريكة في اثارته . كانت في ذلك ، اشبه بكثيرات من زميلاتها اللواتي انسفن إثر حلم غالباً ما كان يأتي بالثار الطيبة . وكثيرات هن النساء اللواتي لعبن ، مثلها ، ادواراً ، بطولية ، او مشينة ، في الملمات . والملكية لم تجد لها مؤيدين اشد اخلاصاً ولا اكثر نشاطاً من اولئك النسوة ، غير ان اياً منهن لم تدفع ثمن اخطاء الاخلاص او ثمن سوء الاوضاع المناقبة لطبيعة الجنس اللطيف ، بتكفير اشد قسوة مما ذاقته هذه السيدة اذ عجزت عن كتم اعجابها بولاء ذلك الزعيم الشاب لقضيته وحتى بازدرائه بها . ومن حيث لا تشعر استسلمت لحلم عميق ! خطرت لها ذكريات مريرة اعادت اليها اسفها على براءة سنواتها الاولى ثم أسفت لكونها لم تكن ضحية تلك الثورة التي كان زحفها ، المظفر ، حتى ذلك اليوم ، يبدو اقوى من ان تقفه ايد كتلك الأيدي الضعيفة . كانت العربية التي دخلت بشكل ما في هجوم الناعقين قد غادرت « عرنه » قبل بدء المناوشات بين الفريقين ببضع ثوان .

لا شيء يحسن ابراز مكانة بلد ما كأجهزته الاجتماعية وعلى هذا

الصعيد استحقت هذه العربة علامة مشرفة ، فالثورة نفسها لم تستطع ان تهدمها ولا تزال تجوب الشوارع حتى هذه الأيام . فيوم دفع الوزير « تورغو » ثمن الامتياز الذي حصلت عليه احدى الشركات في عهد لويس الرابع عشر لنقل الركاب من جميع انحاء المملكة . ويوم انشأ مشروع النقلات المعروفة باسم « التورغوتين » ، كانت العربات القديمة تنكفء على الارياض . وكانت احدى تلك المركبات المهترئة تؤمن المواصلات بين مايان وفوجير . وقد دعاها بعض ذوي الرؤوس العنيدة بالتورغوتين محاكاة لباريس او تشيفيا من وزير جعل دأبه التجديد .

والتورغتين التي نحن بصدها عبارة عن عجلة قديمة بدولابين بالغي الارتفاع . يكاد صدرها يضيق بشخصين على شيء من الاكتناز . وما كانت ضالة حجمها لتسمح باضافة اي زيادة الى حملها . وقد خصص لنقل البريد صندوق أعد في الوقت ذاته ليكون مقعداً للسائق . وكان غلى الركاب ان يجعلوا متاعهم بين اقدامهم المنهكة في علبة ذات شكل يذكر بالمنفاخ . وعبثاً كان يحاول ركابها ان يتصوروا لونها الأصلي فقد كان ذلك لغزها الذي لا يحل . ولها ستارتان من الجلد ، صعبتا المراس رغم طول الخدمة ، اعدتا لوقاية الركاب الصابرين من غائلة البرد والأمطار . وكان لا بد للسائق من الاشتراك في الحديث وهو مستوٍ على عرشه المرتعش ، ما بين ضحاياه من بني آدم ومن ذوي الاربع .

كانت العربة تحمل سمات عجيبة المحاكاة لسمات العجزة الهرمين الذين عانوا الكثير من الامراض ، والموت لا يزال يحترمهم ، انه يتضابق في سير العربة ، يصرخ احياناً . وكسائح استولى عليه النعاس يلتوي تدريجياً الى الورا ثم الى الامام كأنه يحاول ان يقاوم عنف الجوادين البريتونيين الصغيرين اللذين يجران العربة في طريق وعرة . هذا الاثر التاريخي لعصر سابق كان يضم ثلاثة ركاب استمروا في حديثهم مع السائق منذ انطلاق العربة من « عرنه » . وقد سأل السائق رفاقه :

— كيف يمكن للناعقين ان يطلوا من هنا ؟ لقد قال لي ناعقو عرنه ان القائد

هولو لم يفادر بعد فوجير . فأجابه احد الزكاب وكان أصغرهم سناً :
- آه ! ايها الصديق انك لا تخاف إلا على بدنك ، لو كنت تحمل مثلي ،
ثلاثمائة دينار مع شهرة المواطن الصالح ، لكنت اقل اطمئناناً . فأجابه السائق
وهو يهز رأسه : على كل حال فانك لثرثار . وقال الآخر : الخراف الممدودة
يأكلها الذئب .

قائل هذه الكلمة الاخيرة ، كان يبدو ، بلباسه الاسود ، في الاربعين من
عمره . وكان من الممكن ان يكون مرشداً في احدى الضواحي . ذقنه تتكئ
على طبقتين من اللحم ولونه الزاهي مرده الى حياة الرهينة . وعلى الرغم من بدانته
وقصره كان يبدي بعض الرشاقة في كل مرة ينزل فيها من العربة او يصعد اليها
- لعلكم من جماعة الناعقين !

هكذا صرخ الرجل حامل الدنانير . وكان يرتدي معطفاً واسعاً من جلد
المعزى يغطي بنطالاً من الجوخ الجيد وستره نظيفة تشير الى انه احد اثرياء المزارعين .
واردف قائلاً :

- وحق روح القديس روبسبير لن تلاقوا أي ترحيب مني .
قال ذلك ونقل بصره بين السائق والراكب وهو يشير الى المسدس الذي
في حزامه .

اجابه المرشد بازدياء :

- البريتونيون لا يخافون . ومع ذلك ، هل يبدو علينا اننا نبغي مالك ؟
كان وجه السائق يتجهج كلما سمع لفظة مال او دراهم ، واما المرشد ، فقد
كان من الذكاء بحيث ارتاب في كون موطنه يحمل دنانير ، لا هو ، ولا الدليل .
سأل الراهب سائق العربة : هل تحمل مالاً يا كوبيو ؟
فأجاب على الفور : لست احمل شيئاً .

قبل ان ينتهي السائق من جوابه كان الراهب « غودان » قد ميز بين وجهي
المواطن والسائق فوجدهما خاليين من سياء القلق .
ورد المواطن الاول مخاطباً السائق :

- من حسن الحظ انك لا تحمل شيئاً . هكذا استطيع ان اتخذ التدابير لانقاذ ما املكه في حالة الخطر .

هذه الدكتاتورية اغضبت كويبو فاردف قائلاً بشراسة : انا سيد عربي وبارادتي اقودك .

فقاطعه خصمه بقوله :

- أنت مواطن ؟ .. أنت ناعق ؟

- لا هذا ولا ذاك . انا حوذي بريتوني لا اخاف الزرق ولا النبلاء .

- يعني انك لا تخاف الناس الذين ينهبون الآخرين .

هنا اجابه المرشد :

- الناس لا يأخذون الا ما انتزع منهم .

وتبادل الراكبان النظر . لقد كان في مقر العربة راكب رابع يلزم الصمت العميق . لم يكثرث به السائق ولا المواطن ، حتى ولا الأب غودان . وكان ، في الواقع ، واحداً من هؤلاء الركاب المتزمتمين الاجلاف اشبه بثور عاقل يقاد ، مقيد القوائم ، الى سوق مجاورة . وقد اخذ كل منهم بالاستيلاء على نصيبه المعين من المكان ، واستسلموا الى النوم دونما حياء ، بعضهم على اكتاف بعض وقد ترك السائق والمواطن والاب غودان الرجل لنفسه مستسلماً للنوم بعد ان لاحظوا انه من العبث التحدث مع رجل يدل وجهه المتحجر على انه امضى حياته في قياس البضائع وقد شغل فكره ببيعها بسعر اعلى من الكلفة .

هذا الرجل الضخم الجثة الملتف على بعضه في الزاوية كان من وقت الى آخر يفتح عينيه الزرقاوين ، وينقل بصره بالتوالي الى كل متحدث ، ويصغي بخوف وارتباب . إلا انه لم يكن يخاف إلا رفاق السفر ولا يابه بالناعقين . فاذا نظر الى السائق خيل الى من يراها انها من جماعة الماسون . في هذه اللحظة بدأ اطلاق الرصاص في « البارين » فوقف كويبو عربته قلقاً . وبدا الراهب كأنه على علم بالأمر فقال :

- انها معركة كبرى ، وفيها خلق كثير .

قال السائق كوبيو :

- المهم يا سيد غودان هو معرفة من الذي يربح المعركة .
لدى هذه الكلمة علت جميع الوجوه امارات القلق وقال المواطن .
- لندخل العربية الى ذلك النزول ، هناك بانتظار نتيجة المعركة .
بدا الرأي وجيباً فأخذ به كوبيو ، وساعد المواطن السائق في اخفاء العربية
عن جميع الاعين وراء حزمة من الحطب وقد اغتم المرشد فرصة سانحة ليسر
في اذن كوبيو ما يلي : هل يحمل مالا حقاً ؟

- آه يا سيدي غودان ، لو دخل ما معه من المال في جيوبك لما شعرت بثقلها .
كان الجمهوريون مستعجلين للاستيلاء على عرنه ، فمروا أمام النزول دون ان
يدخلوه . وعلى ضجيج زحفهم الحثيث تقدم صاحب النزول والاب غودان ، وقد
اخذ بها الفضول ، نحو مدخل الساحة ليريا الجمهوريين عن كذب . وفجأة هرع
الراهب الجسيم نحو جندي بقي في المؤخرة وقال له : هيه ! يا غودان ! ايها العنيد ،
اهكذا ذهبت مع الزرق يا ولدي ؟ هل انت جاد ؟
- أجل يا عماء . لقد اقسمت ان ادافع عن فرنسا .

- أيها التعس ، انك تخسر نفسك : قال الراهب محاولاً ايقاظ روح العقيدة
المتأصلة في قلب ابن اخيه البريتوني .

- يا عم ، لو ان الملك سار على رأس جيوشه فلن اقول ان ...
- ايها الاهبل : من يمدنك عن الملك ؟ هل تحترم جمهوريتك الاديرة ؟ لقد
هدمت كل شيء ، وعلى ماذا تعمل ؟ ابق معنا . لسوف نتصر اليوم او غداً .
ولسوف تصبح مستشاراً في احد مجالس الأمة .
- في احد مجالس الامة ؟ الوداع يا عماء .

وهنا غضب العم على ابن اخيه وقال له مهدداً ، لقد حرمتك من ارثي ،
لن تحصل من تركتي على فلس واحد ، فأجابه الجندي الجمهوري : شكراً .
وافترقا . وكانت الخمرة التي سكبها المواطن للسائق كوبيو اثناء مرور
الجيش قد ذهبت بوعيه الا انه استفاق مسروراً عندما اعلن صاحب النزول ،

وقد اطلع على نتيجة المعركة : ان الزرق احرزوا بعض النصر . عندئذ اخرج كوبيو عربته الى الطريق وسرعان ما اخترقت اسفل وادي بلرين حيث كانت من السهل رؤية المدينة المذكورة ومنبسطة «ماين» وبريتانيا، وهي اشبه ببقايا مركب يطوف على الأمواج بعد العاصفة .

اما الزرق ، فبعد ان وصلوا الى قمة منحدر يشرف عن بعد على بلرين ، التفتت هولوا الى الورا ليرى الا يزال الناعقون مقيمين . وقد رأى حراهم تلعب تحت اشعة الشمس الوهاجة . واذ القى نظرة اخيرة على الوادي الذي اوشك ان يقطعه ليدخل في وادي عرنه ، خيل اليه انه يرى على الطريق الكبرى عربية كوبيو فسأل صديقيه :

- اليست هي عربية «مايان» ؟

نظر الضابطان مليا الى التورغوتين العتيقة فتبيناهما بوضوح وقال هولوا :

- ترى لماذا لم نلتق بها ؟

وتبادل الثلاثة النظرات وصرخ القائد قائلاً :

- هوذا لغز آخر! ومع ذلك بدأت استجلي الحقيقة .

في هذا الوقت ، تبين مارش آتير العربية ، ودل رفاقه عليها فانطلقت قهقهات عالية ايقظت السيدة الشابة من حلمها ، فتقدمت ورأت العربية تقترب من مقلب بلرين بسرعة مشؤومة .

واخيراً وصلت التورغوتين التعمسة الى المنبسط حيث كان الناعقون يختبئين فانقضوا على الفريسة بجرأة نادرة . اندس الراكب الصامت في قعر العربية والتف على نفسه محالاً الظهور بمظهر صرة من الثياب . وهنا خاطب كوبيو الناعقين وهو يدهم على الفلاح وقال :

- لعلكم شمتم رائحة المواطن الموجود هنا . انه يحمل كيساً مملوءاً بالذهب !

استقبل الناعقون هذه الأقوال بالضحك وهم يصرخون :

- بيل ميش ، بيل ميش ، بيل ميش !

وسط هذا الضحك الذي اجاب بيل ميش بمثله كالصدي ، نزل كوبيو عن مقعده

بهدهو . وعندما ساعد جيبو الشهير باسم بيل ميش جاره على النزول من العربية ،
ارتفعت اصوات هاتفة باحترام :

- الاب غودان ! وما كاد يلفظ هذا الاسم المحترم حتى رفع الناعقون
قبعاتهم عن رؤوسهم ، وجثوا امام الكاهن طالبين منه البركة فنحها بوقار .
وقال وهو يربت على كتف بيل ميش :

- انه لقادر ان يخدم القديس بطرس ويستل مفاتيح الجنة من جيبه . لولاه
لاحتجزنا الزرق .

واذ وقع بصر الاب غودان على السيدة مال اليها ليحدثها . هذا في حين
كان مارش آتير يفتح على مهل صندوق العربية . ويفرح وحشي شاهد الكيس
وقد بدا من ضخامته انه محشو بالذهب الرنان . وسرعان ما راح يوزعه . كل
ناعق تلقى حصته بالضبط . وكان من العدالة في التوزيع بحيث لم يحدث اي خلاف
بينهم ، ثم تقدم نحو السيدة والكاهن وقدم لكل منها نحو ٦٠٠ الف فرنك ،
وسألت السيدة الاب غودان وهي تتوقع الموافقة : هل اقبل المبلغ براحة ضمير
يا سيدي ؟

- ولم لا يا سيدي ؟ الم تأمر الكنيسة سابقاً بمصادرة اموال البروتستانت
ثم لسبب ام ، اموال الثوار الذين انكروا وجود الله وهدموا الكنائس
واضطهدوا الدين ؟

وقرن الاب غودان القول بالعمل وهو يتقبل المبلغ من العملة الجديدة الذي
قدمه له مارش آتير وقال :

- استطيع الآن ان اكرس كل ما املكه للدفاع عن اسم الله والملك ، لقد
ذهب ابن اخي مع الزرق .

واذ احتج كوبيو قائلاً انه في حالة يرثى لها ، قال له مارش آتير :

- تعال معنا فنتال نصيبك .

- ولكنهم سيظنون أنني مهدت للسرقة بارادتي اذا عدت اليهم بدون أي

دليل على المقاومة . فقال له مارش آتير :

– أهذا كل ما تخشاه ؟ وبإشارة منه انطلقت عبارات نارية ملأت العربة بالثقوب. وأثناء الطلقات ارتفع من العربة صوت استغاثة جعل الناعقين يتراجعون خوفاً ورعباً لأنهم كانوا من المؤمنين بالخرافات ، غير ان مارش آتير رأى رجلاً بوجه أصفر في زاوية الصندوق يقفز ويرتمي على الارض ، وكان هو الرجل الصامت الذي كان ما برح مختبئاً في جوف التورغوتين. وهنا خاطب كوبيو بقوله :

– اما زال في القن فرخة اخرى يا كوبيو ؟

فهم بيل ميش معنى السؤال فغمز من طرف خفي السائق فأجاب هذا :
– اجل ، إلا انني أضع شرطاً للالتحاق بكم وهو ان تدعوني اقود هذا الرجل الى فوجير سليماً معافى ، لقد تعهدت له بذلك باسم قديسة اوربي .

– من الرجل ؟ قال بيل ميش .

– لا يمكنني ان اقول لكم من هو .

فقال مارش آتير لبيل ميش وهو يدفعه من ذراعه :

– دعه وشأنه ، لقد أقسم باسم قديسة اوراي ويجب ان يفني بوعده . ثم تحول نحو كوبيو وقال له :

– لا تهبط الجبل بسرعة ، سنلحق بك ، ولتعرض ما ، اريد ان أرى أنف صاحبك قبل ان نعطيه جواز مرور .

في هذه الاثناء ، سمع وقع خطوات حصان يقترب من بلرين ، وما عثم ان ظهر الرئيس الشاب ، وبسرعة أخفت السيدة كيس الدراهم الذي كانت تحمله بيدها فقال لها الرئيس :

– بإمكانك ان تحتفظي بالكيس دون أي تبكيت ضمير . وهذه رسالة وجدتها لك بين الرسائل التي كانت تنتظرني في فيفتير ، انها من والدتك .

وبعد ان نقل بصره بين الناعقين العائدين الى مخابثهم في الغابة ، وحدق ملياً الى العربة التي تهبط وادي كويسنون . اضاف قائلاً :

– على الرغم من سرعتي لم أصل في الوقت المعين. ليت السماء تكذب ظنوني.

وبعد ان فضت السيدة الرسالة وقرأت الاسطر الاولى منها
هتفت قائلة :

- انه مال والدي المسكينة .

انطلقت من انحاء الغابة قهقهات مخرقة ، حتى الشاب فانه لم يتالك نفسه عن
الضحك وهو يرى السيدة تحمل في يدها الكيس الذي يحتوي على حصتها من
مالها المنهوب . وقالت للرئيس :

- حسناً يا حضرة المركز لیتمجد اسم الرب ، الآن أستطيع ان احتفظ بهذا
المال بكل راحة بال . فأجابها :

- تحفظين الحق في كل شيء حتى في تبكيت الضمير .

امتقع وجهها بحمرة الحجل وتطلعت الى المركز بتوبة حقيقية جعلته يلين .
وأعاد الكاهن بأدب المبلغ الذي سبق وقبله ثم تبع الرئيس الشاب الذي اتجه
نحو الطريق التي جاء منها . وقبل ان تلحق السيدة بها اعطت اشارة لمارش
آتير فاقرب منها فقالت له بصوت خافت :

- تقدم نحو « مورتان » واعلم ان الزرق سيرسلون قريباً الى « ألتسون »
مبلغاً كبيراً من المال لسد نفقات الحرب . واذا كنت قد تخلت لرفاقك عن
صيد اليوم ، فذلك بشرط ان يعوضوا علي غداً . ان « الغار » لا يعلم شيئاً عن
هذه الارسالية . قد يعترض . ولكن في الوقت المناسب أستطيع ان أئينه .
واذ التحقت بالمركز ، تخلت عن جوادها للكاهن وركبت خلف الرئيس ،
على جواده فقال لها :

- يا سيدتي ، اصداقاً في باريس كتبوا الي بوجوب الحذر ، فالجمهورية تريد
ان تأخذنا بالخدعة وبالخيانة . فاجابت :

- لا بأس ، لا بأس . لهؤلاء الناس افكار نيرة ! فلسوف أستطيع ان اشترك في
الحرب وان اجد لي خصوماً .

- اعرف ذلك .. لقد حتم علي « بيشفرو » ان نكون حذرين متحفظين في
صداقاتنا مع الجميع ، فالجمهورية تشرّفني باعتقادها بانني اشد خطراً من جميع

سكان فأنده ، وتعتمد على مواطن ضعفي لتستولي علي .
- وهل تحترس مني ؟ قالت له ذلك وهي تربت على قلبه بيدها التي تمسكت به . فالتفت نحوها مقترباً يجبينه منها فقبلته وقال لها :
- هل بلغت هذا الحد في تفكيرك يا سيدتي ؟
أردف الكاهن قائلاً :

- وهكذا سيكون بوليس فوشه أشد خطراً علينا من الجنود المتحركة ومن المعاكسين للناعقين .
- هو ما تقول يا سيدي الكاهن .
صرخت السيدة :

- هه ، هه ! اذن ، فيرسل فوشه النساء لمحاربتك ؟ ثم أردفت قائلة بصوت خافت : انني لهن بالمرصاد ...

على مسافة طلقة رصاصة من منبسط الصحراء الذي تحلى عنه الرؤساء ، حصل حادث من الحوادث التي أصبحت مألوفة على الطريق . فلدى خروج بيل ميش ومارش آتير من قرية بلرين ، اوقفوا مرة ثانية العربية في خسفة الطريق . وقد نزل كوبيو عن مقعده بعد مقاومة ضعيفة ، والراكب الصامت الذي جره الناعقان من مخبئه وجد راکماً وسط الوزال فسأله مارش آتير بصوت أجش :
- من انت ؟

واذ ظل صامتاً ركله بيل ميش وكرر عليه السؤال فأجاب وهو يتطلع الى كوبيو :

- انا جاك بينو تاجر قماش فقير .
أعطى كوبيو اشارة سلبية دون ان يخطر في باله ان يخون صاحبه ، وهذه الاشارة نبهت بيل ميش الذي صوب فوهة بندقيته نحو الرجل ، في حين وجه مارش آتير له هذا الانذار القطعي :

- انك كثير السمنة لتدعي الفقر والمسكنة ، ان أحوجتنا مرة أخرى الى السؤال عن اسمك الحقيقي ، فان صديقي بيل ميش ، بطلقة نارية واحدة ،

يكتسب امتنان وراثتك وشكرهم فمن أنت ؟

– انا دورجون من فوجير .

ضحك الناعقان وقال كويو للرجل :

– لست انا الذي أطلعتها على اسمك يا سيد دورجون ، تشهد لي السيدة العذراء بأنني دافعت عنك .

وأردف مارش آتير قائلاً باحترام ساخر :

– بما انك السيد دورجون من فوجير ، فسندعك تذهب بسلام ، لكن ، بما انك لست ناعقاً صالحاً ولا ازرق حقيقياً ، ومهما كنت ، فأنت الذي اشتريت املاك دير جوفيني ، وعليه ستدفع لنا ٣٠٠ دينار من فئة الست فرنكات كفدية ، فالحياد يقضي بذلك .

وهنا ردد كل من الممول التعس وبيل ميش وكويو بلهجة مختلفة :

– ٣٠٠ دينار من فئة الست فرنكات !..

وقال دورجون :

– آسف يا سيدي ، لقد انتهيت الى الخراب . ان القرض الاجباري بمئة مليون فرنك الذي فرضته جمهورية الشيطان أنقض ظهري وقادني الى الافلاس .

– كيف تستوفي جمهوريتك الضرائب منك ؟

– ألف دينار يا سيدي ، قال الممول ذلك بذل ومسكنة طائفاً انه سينال

اطلاق سراحه .

– اذا كانت جمهوريتك تبتز منك قروضاً واهية الى هذا الحد ، ألا ترى أننا

ارحم بك منها؟ ان حكومتنا اقل ثراء وهي تقنع بثلاثمائة دينار فدية عن جلدك .

– ومن أين آتي بها ؟

– من صندوقك ، على ان لا تكون دنائرك ناقصة وإلا أنقصنا من اظفارك

في النار .

– أين ادفعها لكما ؟ فقال بيل ميش :

– ان منزلك الزيفي في فوجير ليس ببعيد عن « جيباري » حيث يسكن

ابن عمي غالب شوبين ، تستطيع ان تدفعها اليه . اجاب :
- هذا ليس عدلاً .

قال مارش آتير :

- ما معنا ؟ فكر انك اذا لم تدفع المبلغ خلال ١٥ يوماً ، فسوف تجدنا في
زيارتك لنشفيك من آلام النقرس ان كنت تعانها .
والتفت مارش آتير نحو كوبيو قائلاً :

- اما انت فستحمل منذ اليوم اسم « مين آبيان » أي « دليل الخير » .
بعد هذا ابتعد الناعقان وصعد المسافر الى العربية ، فاجمعت بسرعة نحو فوجير
بفضل سوط كوبيو الذي خاطب رفيقه بقوله :

- لو انك كنت تحمل سلاحاً لكننا دافعنا عن أنفسنا .

- يا لك من عبيط ! انني أحمل في حذائي عشرة آلاف فرنك وهل يمكن
الدفاع مع هذا المبلغ الضخم ؟
هنا ، فرك مين آبيان اذنه ونظر الى الوراء ، غير ان صاحبيه كانا قد
اختفيا عن النظر .

توقف هولو وجنوده في عرنه لوضع الجرحى في مستشفى القرية الصغيرة ،
ثم تابع سيره دون توقف الى ان وصل الى مايان ، حيث استطاع ، في اليوم
التالي ، ان يحل جميع الشكوك حول البعثة . اذ ، في اليوم الثاني عرف السكان
بنهب العربية ، وبعد مضي أيام قليلة ارسلت السلطات الى مايان عدداً كبيراً من
المواطنين المكتتبين ليتمكن هولو من ملء المراكز الشاغرة في فرقته . ثم ما عثم
ان تالت الاقاويل المقلقة عن الثورة التي عمت جميع النقاط حيث كان الناعقون
والفانديون قد أنشأوا اثناء الحرب الاخيرة ، معاقل رئيسية لتلك المحرقة .

في بريطانيا كان الملكيون قد سيطروا على بوتورسون بقصد الاتصال بالبحر
وقد سبق لهم ان استولوا على مدينة سان جيمس بين بوتورسون وفوجير التي
كان في نيتهم ان يجمعوا منها ، مؤقتاً ، مقرأ ، ومركزاً للدخائر والعمليات
الحربية ، ومنها يتمكنون من الاتصال بالنورماندي ومورييهان دون خطر .

وكان الزعماء الثانويون يجوبون هذه البلدان الثلاثة لتحريض انصار الملكية وتوحيد صفوفهم . وكانت محاولاتهم تتجاوب مع الانباء الواردة من « فاند » حيث اسفرت مثل هذه الحركات عن إثارة سكان البلدتحت نفوذ الرؤساء الشهيرين الاربعة وهم السادة الاب فرنال ، والكونت دو فونتين ، ودوشاتيلون ، وسوزانه . وكان الشفالييه دوقالوا ، ومركيز اسغرينيون ، والسادة تروافيل ، على اتصال بهؤلاء الرؤساء الأربعة في ولاية «اورن» . وكان رئيس مخططالعمليات الواسعة النطاق التي تدور ببطء لكن بحزم ومهارة هو « الفار » نفسه . والفار لقب اطلقه الناعقون على المركيز دومونتوران . وكانت المعلومات التي ينقلها هولوا الى الوزراء صحيحة في جملتها . ولقد اقر الناعقون زعامة المركيز منذ اوفد من الخارج ليقود الانتفاضة . وجعلهم يدركون الهدف الحقيقي من الحرب واقنعهم بان الاسراف في الاعتداءات التي يرتكبونها تسيء الى القضية العامة التي يقاتلون من اجلها .

هذا الرئيس النبيل احيا يجرأته وبسالته وحنكته ومرونة طبعه ، آمال اعداء الجمهورية وانعش غرور سكان تلك المناطق ، حتى اقلهم نخوة ، فاخذوا يشتركون في تهيئة الحوادث الفاصلة لصالح الملكية .

ولم يكن هولوي تلقى اي جواب على طلباته وتقاريره التي كان يرسلها الى باريس . وكان في هذا الصمت الغريب ما يثير الشك بوجود ازمة ثورية . وعلى هذا الاعتقاد خاطب القائد المعجوز معاونه بقوله :

– افى مثل هذا الوقت يلزمون السكوت عن جميع الاسئلة والطلبات ؟
غير ان الشائعة التي انتشرت عن عودة الجنرال بونابرت ، وعن حوادث ١٨ برومير ، عادت الى الرواج ، ومنها فهم القادة العسكريون في الغرب معنى صمت الوزراء المطبق .

هذا ، في حين كان هؤلاء الرؤساء تواقين للتخلص من المسؤولية الملقاة عليهم . وقد دفعهم الفضول الى معرفة التدابير التي تتخذها الحكومة الجديدة ، وما كادوا يعرفون ان الجنرال بونابرت قد عين قنصلاً اول للجمهورية ، حتى غمرتهم

فرحة كبرى . فلأول مرة رأوا واحداً منهم يتلم ادارة الشؤون . وقد عم
الفرح والرجاء فرنسا التي جعلت من هذا الجنرال الشاب معبوداً لها .
وتجدد نشاط الامة واستلمت العاصمة ، بعد تجمهم الموقف ، للأعياد والاحتفالات
التي حرمت منها زمناً طويلاً . فأعمال القنصلية الاولى لم تخيب أي أمل ، والحرية
لم تترزع . ووجه القنصل الاول نداءً الى سكان غربي فرنسا ، وكان للكلمات
التي وجهها الى الجماهير بأسلوبه البديع ، تأثير عظيم في زمن الوطنية والمعائب .
وكان صوته يدوي في العالم كصوت نبي اذ ان أياً من نداءاته لم يكن لتكذبه
الاحداث . وهذا هو نص النداء :

أيا السكان

ان حرباً كافتة تلتهم ، مرة اخرى ، المقاطعات الغربية . وصانعو هذه
الاضطرابات خونة باعوا انفسهم للانكليز او العصابات التي لا يعينها من هذه
الفوضى سوى تغطية اخطائها وشرورها .

حيال هؤلاء الرجال لا تلتزم الحكومة بأي مداواة او رحمة او تطبيق
لمبادئ السحاء . وثمة مواطنون اعزاء على قلب الوطن غرر بهم وهم جديرون
بالاطلاع على الحقائق .

هنالك قوانين جائرة وضعت ونفذت ، واجراءات اعتبارية اساءت الى امن
المواطنين والى حرية التفكير والرأى . وفي كل مكان سُجلت في لوائح المهاجرين
الاسماء اعتباراً وتناولت عدداً من المواطنين بغير حق . وكذلك انتهكت
مبادئ عظيمة من مبادئ المجتمع .

فعملاً بالدستور الضامن لحرية العبادات . فان قناصل الجمهورية يعلنون نفاذ
قانون الحادي عشر من شهر «بريرال» للسنة الثالثة ، الذي اباح للمواطنين استعمال
الاماكن المعدة للمباداة .

ان الحكومة تعلن العفو عن التائبين ، العفو التام الناجز المطلق . ولسوف
تضرب بيد من حديد أي انسان يجرؤ ، بعد هذا البيان ، على مقاومة السيادة
الوطنية . انتهى .

بعد ان قرأ هولوا الخطاب القنصلي علناً ، خاطب معاونيه قائلاً :
- ألا تجدون فيه نفحة من الابوة ؟ ومع ذلك ، اراهن ان أياً من أفراد
العصابات الملكية لن يغير رأيه .

كان القائد على حق ، فالنداء لم يسفر إلا عن تشبث كل انسان بحزبه . وبعد
بضعة ايام ، تلقى هولوا وزملاؤه النجيدات . وأنبأهم وزير الحربية الجديد بأن
الجنرال برون اختير لتسلم قيادة جيوش غربي فرنسا ، اما هولوا ، وهو المعروف
بمخبرته العسكرية ، فقد أسندت اليه مؤقتاً القيادة في اورن ومايان .
لقد عم النشاط جميع أجهزة الدولة ، وصدر بلاغ لوزير الحربية ووزير
الشرطة العامة جاء فيه ان قوانين صارمة قد اتخذت لخنق الفتنة في مهدها .
غير ان الناعقين والفانديين كانوا قد استفادوا من جود الجمهورية ، فأثاروا
سكان الارياف واستولوا عليها بكاملها .

ورجه القنصل الاول نداءً جديداً الى الجنود هذا نصه :
أها الجنود :

لم يبق في الغرب سوى عصابات ومهاجرين وأجراء لانكلترا .
ان الجيش مؤلف من أكثر من ٦٠ ألفاً من الجنود البواسل . وحذار ان
أسمع بعد اليوم ان رؤساء المتمردين لا يزالون يعيشون ! .. ان المجد لا يؤخذ إلا
بالجهد والكد . ومن ذا الذي لا يحرز المجد اذا كان احرازه يتم بحصر القيادة
العامة في المدن الكبرى ؟

يا رجال الجيش من كل رتبة !

ان امتنان الامة بانتظاركم ، ولاستحقاق امتنان الامة ينبغي ان تستهينوا
بتقلبات الفصول ، بالجليد والثلج وبرد الليالي المتزايد . ينبغي ان تفاجئوا
اعداءكم في فجر النهار وتبيدوا هؤلاء الرعاع الذين دنسوا اسم فرنسا .
لتكن معارككم قصيرة ومحكمة . لا ترحموا العصابات والزموا النظام الصارم .
يا جنود الحرس الوطني ، ضموا جهودكم الى جهود جنود الخطوط .
فان اكتشفتم بينكم رجالاً ينتمون الى العصابات فاقبضوا عليهم ! لا ملجأ في

أي مكان لمن يلاحقه جندي ، فان تجرأ خائن على الدفاع عنه او على ابوائه
فليقتل معه ! انتهى .

قال هولوب بعد ان قرأ النداء :

- ياله من ماكر ! لا يزال يفعل كما كان في حملة ايطاليا اذ كان يدق جرس
القداس ثم يقدر .. هذا كلام رجل !

اجاب جيرار وقد بدأ يتخوف من مضاعفات الثامن عشر من شهر برونيير :

- اجل ، الا انه يتكلم وحده وباسمه .

وقال ميرل :

- ما م ذلك طالما انه عسكري .

على بعد بضع خطوات تجمع عدة جنود أمام البلاغ الملتصق على الحائط وما
بينهم من يعرف القراءة ، فاكتفوا بالتفرج عليه ، بعضهم ينظرون دون اكرات
والبعض الآخر باهتمام واثبات منهم راحا يفتشان بين المارة عن مواطن تدل
سماته على انه عالم .

قال بوبيه لرفيقه مفتاح القلوب مغمماً :

- لننظر ما في هذه القصاصة من الورق . اجاب :

- انا احزر ما فيها بسهولة .

لدى سماع هذا الكلام . نظر الجميع الى الرفيقين اللذين كانا دوماً على استعداد
تام للعب دورها .

واردف مفتاح القلوب قائلاً ، وهو يشير الى اول كلمة في النداء :

- هذا يعني انه يتوجب علينا نحن الجنود ان نمشي بثبات مشية عسكرية !

لقد طبعوا على النداء رسم البيكار مفتوحاً ، ذلك هو الشعار .

فقال له بوبيه :

- لست اهلاً لان تكون عالماً يا بني ان هذا ليس شعاراً بل مسألة لقد

خدمت زمناً في المدفعية ولم يكن رؤسائي يتفدون الا من أمثال هذه الاشياء .

- انه شعار (بالفرنسية امبليم) .
- لا ، بل مسألة (بالفرنسية بروبليم) .
- فلتراهن !
- على ماذا ؟
- على غليونك الالماني .
- موافق .
- وكان الضابط جيرار يتبع هولو وميرل مفكراً حين خاطبه مفتاح القلوب
بقوله :
- غير مأمور يا سيدي العريف قل ، اليس هذا « شعاراً » وليس مسألة ؟
قال العريف :
- انه هذا وذاك . فقال بوبيه :
- ان العريف يهزأ بنا ، هذه الورقة تعني ان قائدنا الذي كان في ايطاليا قد
اصبح قنصلاً وهي درجة سامية ، واننا سنحصل على معاطف واحذية .

الفصل الثاني

فكرة لفوشه

في اواخر شهر برونيير ؛ فيما كان هولو يشرف صباحاً على مناورات فرقته التي احتشدت بكاملها في مايان بناءً على اوامر عليا ، اقبل رسول خاص من ألسون وسله برقية ، ما كاد يطلع عليها حتى تجهم وجهه .
دس الأوراق داخل قبعته وقال :

- هيا ، الى الأمام ، لنذهب معي فصيلتان باتجاه مورثان ، فالناعقون هناك . وقال لميرل وجيرار : وانما سترافقاني . ثم اردف قائلاً :
- ليتني فهمت كلمة من البرقية !.. لست اكثر من بهيمة ! على كل حال فالى الأمام ! فلا وقت للضياع .

واذ سأله ميرل عما ورد في البرقية اجاب :

- يا للصاعقة ! ليس فيها غير المزعجات .

قال ذلك بلهجة تم عن الغضب المكتوم . فما كان من مساعديه جيرار وميرل الا ان لزموا الصمت مترقبين النتائج . وهما يقرءان في ملامح هولو ، درجة انفعاله وانشغال باله ، وقد أضحت ملامحه هي الميزان العاطفي الذي يقرأ فيه ضباطه وجنوده انفعالاته ، كما تقرأ حالة الجو في ميزان الضغط الجوي . ولقد بدت آثار الجدري ، التي كانت تملو وجه هذا المحارب الكهل ، أكثر وضوحاً . ولون بشرته بدا اشد اكفهراراً . وفيما هو جامد في مكانه ، شابك يديه بقوة على صدره ، جازف جيرار بطرح السؤال عليه :

- هل نذهب الآن ؟ اجاب :

- اجل . اذا كانت الذخيرة عامرة .

- هي كذلك .

وباشارة من رئيسه ألقى جيرار الأوامر التالية :

- سلاح ! الى الامام يساراً ، سر !

سار حامل الطبول في مقدمة كل من الفصيلين . وعلى قرع الطبول اخذ القائد يستيقظ شيئاً فشيئاً من غفلته . خرج من المدينة بصحبة صديقيه ميرل وجيرار اللذين تبادلوا النظر دون كلام كأنها يتساءلان : هل سيطول أمد هذا الانقباض؟ وفي الطريق كانا يختلسان النظر الى هولوا الذي استمر في تمتع كلفات مبهمة ، كان بعضها يطن في اذن الضابطين كالشتائم . إلا ان احداً منها لم يجرؤ على التلطف بكلمة واحدة . ففي بعض الظروف كان الجميع يعرفون كيف يحافظون على الانضباط الصارم الذي اعتاده الجنود الذين كانوا فيما مضى في ايطاليا تحت قيادة بونابرت ، ومعظم هؤلاء الجنود كانوا على شاكلة هولوا ، وما تبقى من هذا الفصيل الشهير من الجنود صودروا في ماينس بوعد رسمي ألاّ يُستخدموا على الحدود ، وقد أسماهم الجيش « الماينسيون » وكان من الصعب إيجاد جنود ورؤساء أكثر تفاهماً فيما بينهم .

غداة يوم الرحيل وجد هولوا وصديقه أنفسهم على طريق ألسون في مكان مجاور للمدينة المذكورة ، باتجاه مورتان وفي الجزء الذي يحاذي المراعي الخصبية من الطريق . وكانت المناظر الجميلة من تلك المروج تمتد تدريجياً الى اليسار في حين تغطي جهة اليمين احراج كثيفة تتصل بغابة « منيل - بروست » الواسعة .

على جانبي الطريق حفر انجرف تراهبها الى الحقول وشكل كشبانا توجت بـ « الأجون » ، وهو اسم اطلقه سكان غربي فرنسا على نوع من الوزال الشائك . وهي شجيرات حرجية تتكاثر وتشكل في الشتاء علفاً ممتاز للحياد وللقطعان . وما دامت قائمة على سوقها كانت تتخذ ستاراً يخبئ وراءه الناعقون . وهي تعلن للمسافر عن اقترابه من بريتانيا . وتجعل هذا الجزء من الطريق اشد خطراً مما هو جميل بمناظره . وكانت المخاطر التي تحف بالمسافة من مورتان الى ألسون

قال مايان هي سبب رحيل هولو وسر الغضب الذي بدر منه . وكان يواكب
عربة عتيقة تجرها خيول يشجعها الجنود المتعبون على المشي ببطء .
كانت الفصائل المنتمية الى حامية مورتان والتي كانت قد رافقت هذه
العربة الخفيفة حتى حدود معسكرها حيث جاء هولو يحتمل مكانها في الخدمة ،
قد رجعت الى مورتان وظهرت عن بعد كنقطة سود .
احدى فصيلتي هولو تركزت على بضع خطوات الى الورا ، والثانية امام
العربة ، وقد وجد القائد نفسه بين ميرل وجيرار وسط مقدمة الجيش والعربة
فقال لها :

- يا لآلف صاعقة ! هل خطر لكما ان الجنرال بونابرت قد فصلنا عن مايان
لتخفر هاتين السيدتين في العربة ؟ قال جيرار :
- ولكنك يا سيدي القائد حبيبتها منذ حين بكل لباقة .
- تلك هي المراوغة ، ألم بوصنا القادة في باريس بحسن معاملة الانثيات ؟
وهل يجوز اذلال وطنيين محترفين مثلنا يجعلنا حاشية للباسات الفسطين ؟ من
جهتي سأتابع طريقي لأنني لا احتمل ازعاجات الآخرين . عندما شاهدت عشيقات
دانتون وعشيقات بارا قلت لها : « ايها المواطنان ، عندما اختارتكما الجمهورية
لتسلم الحكم لم يكن ذلك لتأذنا بعودة ملاهي النظام القديم » .
قد تجيبان على هذا بأن النساء ... ها ! لا بد من النساء ، يلزم نساء للوسائل ،
نساء صالحات .

ولكن ، هن دائما أصل السبب عند الخطر . وما الفائدة من ازالة مساوىء
العهد الماضي اذا كان الوطنيون يستعيدونها كما كانت ؟ تأملوا في القنصل الاول ،
هذا رجل حقاً ، ليس عنده نساء . له دائماً ما يشغله عنهن ، انني أراهن بشاري
الايسر انه يجهل العمل المشين الذي كلفنا به هنا .
أجابه ميرل ضاحكاً :

- الحقيقة يا سيدي القائد أنني لمحت انف السيدة الشابة الجالسة في آخر
العربة . وأعترف بأن أي رجل يشعر مثلي ، غير ملوم ، بشوق جارف الى

الاقتراب من العربية والتحدث الى ركبها .. فانتهره جيران بقوله :
- حذار يا ميرل ، برفقة السيدتين مواطن يعرف كيف ينصب لك الشرك .
- من ؟ هذا الغريب الذي ينقل بصره بين طرفي الطريق كأنه يرى الناعقين
حوله؟ هذا الغاوي الذي نكاد لا نرى ساقيه، والذي تخفي العربية قوامه جواده؟
لو عنّ لهذا المغفل ان ينعني من مغازلة عصفورته !

- مغفل ! عصفورة ! آه يا عزيزي ميرل ! انك واهم . لا تستسهل مظهره ،
تبدو لي عيناه الخضراوان أشد مكرراً من عيني الأفعى وأشد مكرراً من عيني
زوجة تغفر لزوجها خياناته ... انني لأخشى الناعقين أقل من خشيتي امام رجال
القانون هؤلاء ذوي الوجوه الشاحبة كأباريق الليمون .

- لا بأس . انني أغامر ! لهذه المرأة عينان كالنجوم تجوز المجازفة من
أجل رؤيتها .

قال جيران موجهاً الكلام للقائد :

- لقد افتتن بها وبدأ يهذي .

هز هولوا كتفيه وقال :

- سأنصحه بشم الحساء قبل أكله .

واردف جيران متحدثاً عن ميرل الذي كان يحاول الاقتراب تدريجياً من
صندوق العربية . الشاطر ميرل ! انه طروب ! انه الرجل الوحيد الذي بإمكانه
ان يضحك من موت رفيق دون ان ينعت بقساوة القلب .

وقال هولوا جاداً :

- انه الجندي الفرنسي الحقيقي .

وهتف جيران قائلاً :

- ها هو يركز الشارة على كتفيه ليعرف من يراه انه من ذوي الرتب ، كأن

الرتبة تعمل شيئاً في مثل هذه الامور .

كانت العربية ، التي كان يحوم حولها الضابط ميرل ، تحوي امرأتين احدهما

تبدو في خدمة الاخرى .

قال هولو :

— هؤلاء النسوة لا يخرجن عادةً إلا زوجاً زوجاً .

كان رجل قصير ، جاف ، نحيل يشاهد تارة خلف العربية وتارة أمامها . ورغم انه كان مرافقاً للسيدتين المميزتين ، فان احداً لم يره يخاطبها ، ومثل هذا الصمت يدل على الازدراء او الاحترام . وكل ما في العربية من أمتعة وصناديق من الورق المقوى كانت للسيدة التي دعاها القائد بالأميرة ، حتى هندام مرافقها آثار حتى هولو . فهندام هذا المجهول كان يمثل لوحة صحيحة لذلك الزي الغريب الذي اشتهر به جماعة الظرفاء المتحذلقين .

كان هذا الرجل مرتدياً بنطالاً ضيقاً وحذاءً على طريقة سوفاروف . في قميصه «بكلة» كبيرة بيضاء وزرقاء تقوم مقام الدبوس . ومن حزامه تتدلى سلسلتا ساعة . وشعره المتدلي على جانبي خديه كان يخفي الجزء الأكبر من جبينه . وقبة قميصه وسترته مرتفعتان الى فوق الى حد ان رأسه بدا مطوقاً كباقة من الزهر في قبع من الورق . زد الى هذه المجموعة من الاوصاف تعاكس الالوان : بنطال أصفر ، وصدار احمر وسترة بلون القرفة . تخيل هذه الاوصاف تجد امامك صورة صادقة عن الزي الذي كان يستهوي الانيقين في بداية العهد القنصلي . وهذه البدلة الكشكولية يبدو انها صممت للبرهان على الرخاء وللدلالة على ان باستطاعة «الموضة» ان تروج أي شيء مهما كان مضحكاً ومبتذلاً .

وقد بدا الفارس في الثلاثين من عمره ولما يجاوز الثانية والعشرين . ولعل مرد هذا المظهر الى الافراط في الاكل او الى معاناة احوال العهد . وعلى الرغم من زيه لم يكن مظهره يخلو من الاناقة ، وكان يبدو مهذباً . وحين وجد الضابط ميرل بالقرب من العربية ادرك مرآه فسهل أمره بتخفيف سير جواده .

وبعد ان ألقى ميرل نظرة خفية على الرجل وقع بصره على احد الوجهن المغلقين اللذين اعتادا اخفاء انواع الانفعالات حتى السطحية منها ، ولا سيما في ابان الثورة ، وعندما رأت السيدتان الطرف المعقوف من قبعة ميرل المثلثة

الزوايا سمع الضابط صوتاً ملائكياً ناعماً يقول له :
- سيدي الضابط ، هل تعمل معروفاً فتقول لنا في أي مكان من الطريق
نحن الآن ؟

ثمّة عذوبة لا توصف في سؤال تطرحه مسافرة مجهولة . ان أبسط الكلمات
تتضمن مغامرة . فاذا كانت المرأة تلمس بعض الحماية مستندة الى ضعفها والى
جهلها لبعض الامور ، فهل هنالك رجل واحد يتوانى عن خلق اسطورة
يبني عليها سعادته ؟ هذا ، في حين شغلت لفظة « سيدي الضابط » ، والطريقة
المهذبة في طرح السؤال ، قلب الكابتن فحاول ان يتفحص المسافرة فصدّه برقع
غيور أخفى معالم وجهها . فكاد لا يرى عينيها اللتين لمعتا من وراء الحجاب
الشفاف ، كما يلتمع ذلك النوع من العقيق ، الشهير باسم « عين الهر » ، تحت
شعاع الشمس .

- انتا الآن ، يا سيدي ، على بعد مرحلة من ألسون .

- ألسون بهذه السرعة ؟!

قالت السيدة المجهولة ذلك وحككت جلستها في داخل العربة دون ان تضيف
كلمة اخرى .

وكررت السيدة الاخرى كلمة ألسون ، كأنها استيقظت من حلم .
وقالت لرفيقتها :

- سترين البلاد مرة اخرى .

وتطلعت الى الضابط ثم صمتت . وراح ميرل يتفحص الريف وقد علل نفسه
عبثاً برؤية الحسناء المجهولة ، فراح يتأمل صاحبها . وكانت هذه في نحو السادسة
والعشرين من عمرها : شقراء ، ممشوقة القامة وسيمة ، نضرة البشرة . نظرات
عينيها الزرقاوين ما كانت لتنبىء بالذكاء بل بالثبات المزوج بالحنان . كانت
مرتدية فستاناً من القماش الدارج ، وشعرها مرفوع تحت قبعة صغيرة تطوق
وجهها اللطيف . ومظهرها ، ولو لم يكن مظهر سيده من النبلاء ، لم يكن ليخلو
من تلك الهيبة الطبيعية ، كشأن من تتأمل في ماضيها دون ان تجد فيه ما يعيبه .

وبنظرة واحدة ادرك ميرل انها احدى زهرات الحقول التي لم يفقدها انتقالها الى الصالونات الباريسية ، حيث تتجمع الكثير من الشمس المزهرة ، لا معالم الطهارة ولا الصراحة الريفية . وادرك من تصرفها الساذج ونظراتها البريئة المتواضعة انها لا تريد ان يسمعا احد . والواقع انه ما كاد ميرل يبتعد قليلاً ، حتى بدأت السيدتان المجهولتان في الحديث بصوت خافت ووصلت بعض تمتماتهما الى اذنيه ، وبما قالته رفيقة الحسنة ما يلي :

– كان خروجك بغتة ، حتى انك لم تجدي الوقت الكافي لتكلمي زينتك . ان تجاوزنا في رحلتنا ألسون فينبغي ان تغيري زينتك فيها ، اليس كذلك ؟
– هذه هي محاولتك الثالثة لمعرفة هدف هذه الرحلة وسببها .

– وهل في ما قلته ما يستحق اللوم
– لقد لاحظت محاولتك . كنت ، اول ما عرفتك ، بسيطة سليمة النية فتعلمت في مدرستي بعض الحث . لقد بدأت تنقرين من طرح الأسئلة المباشرة ، وأنت محقة في ذلك لأنها برأيي أغبى الطرق لانتزاع أسرار الآخرين .
– حسن ، بما انه لا يمكن اخفاء شيء عنك ، فلنضع النقاط على الحروف . ألا يشير تصرفك فضول القديسين يا ماري؟ صباح امس كنت بلا مورد ، واليوم يداك مليئتان بالذهب ، وفي مورثان وضعوا تحت تصرفك صندوق البريد الذي سلب ونهب وقتل سائق عربته . وها انت في حراسة جنود الحكومة . وخلفك رجل فيه نذير شؤم لك .
– تعنين كورنتان ؟

بلهجة كلها احتقار لفظت السيدة اسم كورنتان وهي تشير بازدراء الى الرجل الذي برفقتها وازافت قائلة : أتذكرين « باتريوت » ، ذلك القرد الذي عودته على معاكسة دانتون ، والذي ، طالما كان يسلينا ؟ اجابت فرانسين :

- اجل يا آنستي .
- أكنت تخافينه ؟
- كان مقيداً .

- وكورتان ملجم يا ولدي .

- كنا نسلى مع « باتريوت » ساعات طويلة ، اعرف ذلك ، انما كان
يخدعنا في النهاية .

قالت فرنسين ذلك وجلست داخل العربة بالقرب من سيدتها وراحت تلاطف
يديها بتحبب وتقول لها بصوت عطوف: لقد حزرت ما اردت يا ماري لكنك
لم تجيبيني ، كيف تسنى لك ان تتحولي من الحزن المبرح الى هذا المرح الطاغي
بمدة ٢٤ ساعة بعد تلك الشجون التي آلمتني كثيراً ؟ ان مرحك اليوم يذكرني
بمظاهر مرحك يوم عقدت النية على الانتحار .. أتذكرين؟ .. يحق لي ان أطلب
منك حساباً عن نفسك ، ان نفسك لي قبل ان تكون لأي شخص آخر ، لن
يجبك احد بمقدار ما احبك . تكلمي يا آنستي .

- حسن يا فرانسين ، ألا تلاحظين ما حولنا سر مرحي ؟ انظري الى
الافنان المصفرة المتدلّية من تلك الأشجار البعيدة. لا يشبه واحد منها الاخر.
اذا تأملناها عن بعد نجدها اشبه بسجادة قصر قديم. انظري الى تلك السياجات
التي قد يلتقي وراها الناعقون في أي وقت. انني ، حين انظر الى تلك النباتات
الشائكة يلوح لي انني أرى فوهات البنادق . احب هذا الخطر الجديد الذي
يحيط بنا وكلما تجهم جو الطريق خيل الي اننا سنسمع طلقات البنادق .
فيخفق قلبي ويهزني شعور خفي ليس هو شعور باختلاجات الخوف ولا بانفعالات
الفرح . كلا ، بل احسن من ذلك ، انه شعور نابع من كل ما يمتلج في ، من
الحياة بكليتها .

- آه يا قاسية ! لم افهم شيئاً من كل هذا الكلام !

قالت فرانسين ذلك ورفعت عينيها نحو السماء وهي تتمتم : ايتها السيدة
العدراء ، ان كتمت سرها عني ، فلن تعترف به اذن ؟
واردفت السيدة المجهولة قائلة يجد :

- لا استطيع يا فرانسين ان اعترف لك بمهمتي ، فهي مهمة رهيبية هذه المرة .

– واي ضرر في معرفة السبب ؟

ماذا تريدن ، لقد وجدتنني فجأة افكر كما لو كنت في الخمسين من عمري وأتصرف كما لو كنت في الخامسة عشرة ، كنت وما زلت منبهتي يا ابنتي المسكينة ولكن ، في هذه القضية ، ينبغي ان اخنق ضميري .

وقالت بعد توقف وهي تطلق زفرة : لكنني عاجزة عن ذلك . وكيف تريدنني ان اظل صامته امام عرافة صارمة مثلك . قالت ذلك وربتت على يدها بلطف . وعندئذ صرخت فرانسين :

– متى انتقدت اعمالك ؟ حتى سيأتك لا تخلو من النعومة ، اجل ، لطالما صليت لقديسة اوراي من اجل سلامتك ، وانت بريئة من اي شيء ، ثم الست الى جانبك في هذه الطريق دون ان اعلم الى اين تذهبن ؟

وفي غمرة انفعالها اكبّت فرانسين على يد سيدتها تريق عليها القبلات .
قالت السيدة :

– بوسعك ان تتخلي عني اذا كان ضميرك ...

فقاطعتها فرانسين وفي لهجتها اسي عطوف :

– اصمتي يا سيدتي ! افلا تقولين لي ...

– لن اقول شيئاً .

هكذا قالت الآنسة بصوت ثابت وازافت : انما اعلمي جيداً انني امقت هذه المهمة اكثر مما اكره الذي اوضحها لي بكلمات منمقة . ساعتمد الصراحة واعترف لك بانني ما كنت لأنزل عند رغبتهم لو لم اجد في هذه الخدعة الدنيئة مزيجاً من لذائذ الرعب والحب . وبعد ، لم اشأ ان اخرج من هذه الدنيا دون ان احاول ان اقطف الثمار التي تمنيتها ، اتراني هالكة ! ولكن ، تذكرني اكراماً لذكراي انني لو كنت سعيدة لما كان منظر المقصلة المسلطة على عنقي ليجعلني ارضى بلمب اي دور في هذه المأساة . انها بالفعل مأساة .

وقالت وهي تطلق زفرة قرف واشمزاز : والآن . لو طلب مني التوقف عن انجاز هذه المهمة ، فسألقي بنفسي في « السارت » ولن يكون ذلك انتحاراً

فانا لم اعش عمري بعد .

– يا عذراء اوراي القديسة اغفري لها !

– لم دب فيك الرعب ؟ ان تقلبات الحياة الدنيا لا تهيج عواطفني ، انك تعلمين ذلك ، وهو شيء سيء بالنسبة لامرأة ، غير ان في نفسي حساسية اسمى لتحمل معاناة قاسية كهذه . كان بإمكانني ان اكون مثلك مخلوقة لطيفة . ترى لماذا لم انشأ فوق مستوى جنسي او تحته ؟ آه ، ما اسعد زوجة الجنرال بونابرت ! سأموت شابة ، وما قيمة ذلك وقد بلغت من مراتب الحياة ان اشاهد دون رهبة حفلة من حفلات اللهو تشرب فيها الدماء كما قال «دانتون» التعميس . لكن دعك من كل هذا او انسي ما قلته . هي المرأة ذات الخمين التي تتكلم الآن . وشكراً لله فان الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً لم تمت بعد ولن تلبث ان تعود .

ساور الرفيقة الشابة قلتى شديد . فهي وحدها تعرف سيدتها وتعرف طباعها الحادة الفائرة . هي وحدها مطلعة على مكنونات نفسها الكبيرة ، وما كانت لتجهل ميول هذه المخلوقة التي رأت ، وما برحت ترى ، الحياة تمر كالظلم ، وما فتئت تحاول امساكها .

فتاة زرعت ملء يديها وما حصدت شيئاً ، ما برحت عذراء ، انما خدعت برغائب كثيرة ، يشت من حرب بلا خصم ، وفي غمرة اليأس اصبحت تفضل الخير على الشر ايما وجد بدافع ذاتي ، والشر على الخير اذا كان فيه بعض الاطراء والتعاسة ، وعلى الاعتدال في احسن الأحوال . والمصير المظلم المهول على حياة بلا الم ولا امل .

ما تجمع قط مثل هذا المقدار من البارود من اجل شرارة . ولا مثل هذا المقدار من الثروة لتتفق على الحب ، وما وجدت لحواء ابنة طينتها مجبولة بمثل هذا المقدار من الذهب . وفرانسين ، كملك ارضي كانت تسهر على هذه المخلوقة تتعبد فيها الكمال وفي يقينها انها تكمل رسالة سماوية بحفظ سيدتها ضمن اطار جوقة الملائكة حيث يبدو انها طردت منها لتكفر عن خطيئة الكبرياء . واقترب الفارس من العربية واعلن : هوذا جرس كنيسة النسوان .

فاجابته بكل خشونة : انني اراه .

- حسناً .

قال ذلك وابتعد وهو يقدم لها مراسم الخضوع على الرغم من امتعاضه ،
وقالت للحوذي : هيا انطلق بسرعة ، بأسرع ما يمكنك ، دع الجياد تطير بنا ،
لم يبق ما نخشاه الآن ، ألسنا على مطل ألسون ؟

واذمرت العربية من امام القائد هولوا نادته بصوتها الرخيم :

- سنلتقي في الفندق ، تعال لأراك هناك .

- وهو كذلك ، في الفندق ! تعال لأراك !.. هكذا تخاطبين القائد !

قال هولوا ذلك وهو يشير الى العربية المنطلقة بسرعة على الطريق ، وقال

كورتنان ضاحكاً وهو يستحث جواده :

- لا تبتئس يا قائدي فهذه السيدة تحمل في كها رتبة جنرال لك..

التفت هولوا نحو معاونيه وقال : لن اتساهل مع اولئك المواطنين . لأهون

علي ان ألقى ببذلة الجنرال في حفرة من ان اتال تلك الرتبة في سرير ! ترى ماذا

يريد هؤلاء الناس ؟ أفهمتها شيئاً ؟ فأجاب ميرل :

- أي نعم ، فهمت انها اجمل امرأة رأيتها في حياتي ، أعتقد انك تسيء

فهم الهجاز .. لعلها زوجة القنصل الاول ؟

- زوجة القنصل الاول مسنة وهذه شابة . هذا مع العلم بأن الوزير أعلمني

في بطاقته الي بأنها الآنسة دوفرونوي ، احدى النبيلات ، وانا أعرفهن ، أعرف

انهن كن جميعاً قبل الثورة يقمن بهذه المهام ، يومذاك كن بين ليلة وضحاها يميناً

رؤساء الفرق ولا يحتجن لذلك الي اكثر من النطق بكلمة : « يا قلبي » ،

وترديدها مرتين او ثلاثاً ..

فيما كان كل جندي يزيد في سرعة خطاه ، او يفتح « البيكار » حسب تعبير القائد ،

كانت العربية البشمة قد وصلت الي فندق « المغاربة الثلاثة » لي تروامور ، القائم

وسط شارع ألسون ، وعلى صوت قرقرقتها أسرع الفندق الي المدخل . كان ذلك

شيئاً نادر الحدوث ، ولم يكن احد في ألسون يتوقع وقوع هذه العربية بنزل تروامور ،

غير ان حادث مورثان المشؤوم جعل العربية محاطة بجمهور من الناس ، الأمر الذي حمل المسافرتين على الانسلال الى المطبخ تخلصاً من الفضول العام . وكان صاحب المنزل على وشك اللحاق بهما عندما اوقفه الخوذي من ذراعه وقال له :
- انتبه ايها المواطن بروتوس ، ثمة مواكبون زرق . وبما انه ليس معي دليل ولا رسائل ، فقد جثتك بهاتين المواطنتين ، لا ريب في انهما ستدفعان لك الحساب كاميرتين نبيلتين وهكذا ...

- وهكذا نشرب النبيذ معاً بعد قليل من الوقت يا ولدي ...
وبعد ان ألفت الآنسة دوفرونوي نظرة على المطبخ السودّ بالسخام ، وعلى الطاولة الملوثة بدم اللحم النيء ، هرعت الى الصالة المجاورة بخفة الطير ، فقد تخوفت من هيئة المطبخ ومن رائحته بقدر ما تخوفت من المضيف القذر ومن زوجته السمينة اللذين تفحصاها بانتباه .
وقال المضيف لزوجته :

- ما العمل يا زوجتي ؟ من كان يفكر اننا سنحظى بهذا العدد من الضيوف ؟
لن تصبر هذه السيدة الى ان انتهي من تحضير عشاء لائق لها ، يقيناً . لقد حضرتني فكرة : بما ان ضيوفنا ائس من كبار القوم ، فسأقترح على السيدتين ان تنضمّا الى السيد الذي لدينا في الطابق الاعلى ، فما رأيك ؟

ولما راح المضيف يبحث عن القادمة الجديدة لم ير سوى فرانسين فانحاز بها الى داخل المطبخ بعيداً عن السامعين وقال لها بصوت خافت :
- اعتقد ان سيدتي تريدان ان تتناولوا الطعام على حدة .. لدي عشاء فاخر معد لسيدة وابنها . طبعاً هذان الضيفان لا يعترضان على تقاسم العشاء معكما .
انهما من الطبقة الراقية .

ما كاد المضيف ينهي جملته الاخيرة ، حتى احس بضربة مقبض سوط خفيفة في ظهره . التفت الى الوراى فرأى رجلاً قصير القامة ، منتفخاً ، يخرج على مهل من غرفة مجاورة . وبظهوره ارتعد صاحب المنزل وزوجته وطباخه من الخوف . وامتقع وجهه وهو يدير رأسه . ونفض الرجل القصير شعره

الذي كان يحجب جبينه وعينه كلياً ، وانتصب على قدميه ومال الى اذن المضيف صاحب الحانة قائلاً:

- تعرف جيداً اي ثمن تدفعه لأي حماقة ترتكبها او سر تفشيه . كما تعلم نوع العملة التي ندفعها . واننا للأسخياء .!

وارفق هذه الكلمات بجرعة تعبيرية مخيفة . وعلى الرغم من ان رؤية هذا الرجل قد حجبت عن عيني فرانسيس بسبب ضخامة جسم المضيف، فقد التقطت بعضاً من الكلمات التي تلفظ بها، وصعقت حين سمعت صوتاً خشناً بلهجة بريتونية . ووسط الرعب الذي خيم على الجميع انطلقت نحو الرجل القصير. غير ان هذا كان قد خرج من الباب الجانبي المؤدي الى الساحة بخفة حيوان بري. وظنت انها اخطأت في حدسها اذ انها لم تشاهد سوى جلد اشقر واسود لدب متوسط القامة . اسرعت مذهولة الى النافذة ، ومن وراء الزجاج الوسخ نظرت الى المجهول المتجه نحو الاسطبل بخطى وثيدة ، وقبل ان يدخله ، صوب عينيه السوداوين الى الطابق الأعلى من المنزل ومنه الى عربة البريد كأنه يريد ان يطلع صديقاً له على ملاحظة مهمة تتعلق بتلك العربة . وبفضل هذه الحركة التي اتاحت لفرانسيس رؤية وجه الرجل ، وعرفت من السوط الضخم الذي في يده ومن مشيته الزاحفة الرشيقة عند اللزوم ، انه مارش آتير على الرغم من جلد المعزى الذي كان يلبسه . تفحصته من خلال ظلمة الاسطبل حيث نام على القش متخذاً وضعاً يمكنه من رؤية كل ما يحدث في النزل. لقد كان ملتفاً على بعضه بحيث يحسبه امكر الجواسيس، سواء أراه من بعيد او من قريب ، كلباً من الكلاب الكبيرة التي يقتنيها اصحاب العربات، مكوراً جسمه ، بانسطاً ذراعيه، ورأسه مدسوس بينها كأنه كلب نائم .

وقد اثبت مارش آتير بتصرفه هذا انه لم يعرفها . ولم تعرف هي ، ازاء الظروف الدقيقة التي تحيط بسينيتها أتر لوجود هذا الناعق ام تجزع . غير ان غموض العلاقة بين رقابة الرجل ودعوة صاحب الفندق ، وهي مألوفة عند جميع اصحاب الفنادق الذين يحاولون دائماً ان يصيدوا عصفورين بحجر واحد ،

أثار فضولها. فتركت زجاج النافذة القذر الذي كانت تنظر في الظلام من خلاله الى الكتلة السوداء ومنها عرفت المكان الذي يشغله مارش آتير من الاسطبل . والتفتت نحو الفندق الذي بدا كأنه خطأ خطوة محرجة ولم يعد بإمكانه ان يرتد الى الوراء . فقد افقده الناعق بتصرفه صوابه . فلم يكن في مناطق الغرب من يجهل العقوبات الفظيعة التي يتفطن رجال فرقة « قناصة الملك » في الحاقها بالمشبوهين بافشاء الاسرار . ولذلك خيل للمضيف انه يحس سكاكينهم تحز عنقه ، وينظر بهلع الى « الوجداق » الذي يشوون على ناره الحامية اقدام الذين يتهمون بافشاء اسرارهم . وكانت المرأة السمينة تحمل سكين المطبخ بيد وفي اليد الاخرى رأساً من البطاطا نصف مشطور ، او هي تحددق الى زوجها مشدوهة ، والطاهي يبحث عن السر المجهول بصمت ورعب . وكان من الطبيعي ان يستيقظ فضول فرانسيس حيال هذا المشهد الصامت الذي رأى الجميع بطله الرئيسي المتوارى ، وقد اعتزت الفتاة بسطوة الناعق الخفية ، وهي ، وان لم يكن من طبعها الوديع ان تلجأ الى المكر كالوصيفات المترسات ، فقد شاقها هذه المرة ان تكشف عن السر مستفيدة من مزايا وضعها الخاص .

التفتت نحو المضيف وقالت له بنبرة جادة :

– قبلت الآنسة عرضك .

وكانه استفاق من غيبوبة فانتفض وسألها بدهشة :

– أي عرض ؟

وسألت الآنسة دو فرنوي :

– أي عرض ؟

– أي عرض ؟ قال كورنتان سائلاً بدوره وهو يدخل .

وسأل شخص رابع كان على الدرجة الاخيرة من السلم وهو يقفز بنخفة

الى المطبخ :

– أي عرض ؟

اجابت فرانسيس بصبر نافذ :

– عرض العشاء ، مع ضيفيك المميزين .

وكرر الشخص الذي هبط السلم كلمة المميزين بصوت لاذع ساخر وأضاف قائلاً :
– تلك هي دعاية فندقية سيئة يا عزيزي ، لكن ، اذا كانت هذه المواطنة
الشابة هي التي تدعوها لتكون ضيفتنا ، فمن الجنون ان نرفضها ، وقال له ، وهو
يتطلع الى الآنسة دو فرنوي : انك لرجل طيب ، وأضاف وهو يربت على كتف
الفندقي الذي أصيب بالذهول : اقبل العرض في غياب امي .

لقد ألقى نزق الشباب الظريف حجاباً أخفى عن الحاضرين ما كان في تلك
الكلمات من تعال مستخف . تلك الكلمات التي استرعت ، ولا شك ، انتباه
جميع ابطال هذا المشهد الى هذا الشخص الجديد ، واذ ذاك اتخذ المضيف موقف
«بلاطس البنطي» الذي غسل يديه من دم المسيح . وخطا خطوتين نحو زوجته
وأسر في اذنها : تشهدين انني برىء من أي ذنب ان وقع ما لا تحمد عقباه .
وزاد في خنق صوته واطاف قائلاً :

ومع ذلك اذهبي وأخبري السيد مارش آتير بما حصل .

كان المسافر الجديد شاباً معتدل القامة يرتدي لباساً ازرق وجزمة سوداء
تعلو الى ما فوق ركبتيه على بنطال من الجوخ الازرق ، وسترة بسيطة على طريقة
طلاب مدرسة البوليتكنيك .

بنظرة واحدة عرفت الآنسة دو فرنوي ان تميز تحت هذه البذلة الداكنة
الاشكال الانيقة ذلك الشيء الذي لا تدري أي شيء فيه مما ينبىء عن اصالة
نبيلة . انه يبدو ، للوهلة الاولى عادياً ، في وجهه تكوين متناسق يكشف عن
نفس قادرة على أشياء كبيرة ، بشرة لفتحها الشمس وشعر أشقر مجمد بمجملقات
كالخواتم . وعينان زرقاوان نافذتان ، وانف صغير وحركات رشيقة ، كل شيء
فيه واضح يدل على انه يعيش حياة تسودها العواطف السامية وتسهل له اصدار
الاوامر . ابرز ما فيه ذقنه الشبيهة بذقن بونايرت وشفته السفلى التي تنضم الى
الشفة العليا وترسم حنية جميلة كحنية ورق الأكانتوس (شوك الجمل) . لقد وضعت
الطبيعة في هذين التكوينين مفاثن لا تقاوم .

وقالت الآنسة دو فرنوي في نفسها : « ان كان هذا الشاب من الجمهوريين حقاً فان ما يمتاز به من سمو النفس والحركات تجعل منه جمهورياً نسيج وحده ومثلاً نادراً بين اترابه » .

بومضة عين رأت الفتاة ما رأتها وغشيتها رغبة في الارضاء ، في ارخاء رأسها بدلال الى جنب ، في ابتسامة مغناجة ، في تسديد نظرات مخملية تحمي الحب في القلب الميت ، في تظليل عينيها السوداوين بأهداب كثيفة متكسرة تترك على الوجه خطأ ظليلاً ، في البحث عن اجمل نعم لصوتها ، لتضفي على العبارة التالية فتنة نافذة : « اتنا شاكرتان لك يا سيدي » .

كل ما تقدم من حركات الفتنة لم تستنزف الوقت اللازم لوصفها ، والتفتت الآنسة دو فرنوي نحو المضيف سائلة عن شقتها ، ورأت الدرج فتواتر مع فرانسين تاركة للشاب الغريب ان يتساءل هل كان جوابها قبولاً ام رفضاً .
- من هي هذه المرأة !

سأل تلميذ مدرسة البوليتكنيك بخفة ، المضيف الذي عرته موجة من الدهول ، فجاءه الجواب من كورنتان الذي اجابه يجفاء :
- انها المواطنة دو فرنوي ، احدى النبيلات ، فماذا تريد منها ؟

تطلع المجهول الى كورنتان بزهو وكبرياء وراح الاثنان يتبادلان ، لبعض الوقت نظرات حادة كأنها ديكان يستعدان للقتال ، ومن هنا احتدم الحقد في قلبها الى الابد . وبقدر ما كانت نظرة الجندي صريحة كان في نظرة كورنتان من الحُبث والرياء ، برز احدهما بمزاياه النبيلة الاصيلة والثاني بمزاياه الدخيلة ، احدهما يتشامخ والثاني ينطوي ، هذا يفرض احترامه فرضاً وذاك يسعى للحصول عليه ، احدهما يقول : فلنأخذ ! والآخر يقول : فلنقتسم .

ودخل عليها احد الفلاحين ، وبدخوله سأل :

- هل المواطن غوا دو سان - سير هنا؟

اقترب منه الشاب واجابه :

- ماذا تريد منه ؟

حياه الفلاح باحترام زائد وقدم له رسالة قرأها ، ثم ألقاها في النار . وكان الجواب احناة رأس ايجابية وعندئذ توارى الرجل .

اقترب كورنتان من الشاب الغريب بشيء من الدالة والاستخفاف ، الامر الذي أزعج المواطن غوا ، وسأله :

- انت ، لا ريب ، قادم من باريس .

فأجابه يجفاء :

- أجل .

- وانك ، ولا شك تحمل رتبة في المدفعية ؟

- كلا ، بل في البحرية .

- اذن فأنت متوجه الى برست .

لم يجبه الشاب على سؤاله هذا ، بل استدار على عقبيه وكذب ، بعد حين ، الآمال الجميلة التي تبينتها الآنسة دو فرنوي في وجهه . لقد انشغل في عشائه بخفة وسأل المضيف والمضيعة عن لائحة الطعام واستغرب عادات اهل الريف كباريسي انتزع من بيته ، وتأفف كعشيقة مدللة . واخيراً انكشف عن طبع مخالف لما توسمته الفتاة في وجهه وفي تصرفاته . وقد تبسم كورنتان شغفاً وهو يراه مكفهر السحنة كما رشف رشفة من تلك الخمرة التي كانت امامه وهي ألد ما في النورماندي من خمور ، ويقول الشاب بقرف :

- كيف تبتلعونها انتم ؟ للجمهورية الحق في ان تحترس من الريف حيث القطاف يتم باسقاط الثمار بالعصا الطويلة وحيث يطلقون النار ، غدرأ ، على المسافرين في الطريق ، لا تضعوا لي على المائدة زجاجة من هذه الخمرة ذات الطعم الشبيه بطعم الدواء المسهل ، بل زجاجة من النبيذ الطيب ، نبيذ بوردو الابيض والاحمر ، وانتبهوا الى نار المدفأة في غرفتي ، اريدها حامية مشبوبة . وأضاف قائلاً وهو يصعد زفرة : هؤلاء الناس يبدوون لي متأخرين عن ركب الحضارة والتمدن . آه ! ليس في العالم سوى باريس واحدة ، ومن المؤسف ألا نستطيع ان نقلها معنا في البحر ! وقال لرئيس الفندق : لماذا تضع الخلل على هذه الفرخة

المتحطمة طالما عندك حامض ايها الغبي ؟ اما انت ايتها المضيفة ، فقد أعطيتني حرامات بلغت من الحشونة اني لم تغمض لي عين طوال الليلة الماضية .

قال ذلك وراح يلعب بعضا ثخينة ألعابا سخيفة ، يضع فيها من البراعة والبلادة ما يدل على الدرجة المنحطة التي يبلغها شاب من طبقة المتحذلقين في العهد الجمهوري الجديد .

قال كورنتان للمضيف وهو يرمق وجه الشاب خفية :

- أمبثل هؤلاء الطائشين يأملون ان يرفعوا مستوى البحرية في الجمهورية ؟

وأسر الشاب في اذن المضيفة مشيراً الى كورنتان :

- هذا الرجل هو احد جواسيس فوشه . سياء البوليس منحوتة على وجهه .

وانا متأكد من الأثر الذي على ذقنه انه من اوباش باريس ولكنه غدار ماكر ، فلا بأس .

في هذه اللحظة دخلت مطبخ النزل سيدة تقدم نحوها البحري الشاب بكل مظاهر الاحترام وقال لها :

- امي الحبيبة ، ها قد وصلت اخيراً ، أرى انني استقطبت الضيوف في

غيابك .

فأجابت :

- ضيوف ؟ ما هذا الجنون ؟

فقال لها بصوت خفيض :

- انها الآنسة دو فرنوي .

- لقد هلكت على المقصلة بعد قضية سافيني ، كانت قد قدمت الى « مانس »

لتنقذ شقيقها الامير دولودون .

- انك على خطأ يا سيدتي ، قال كورنتان وهو يشدد على لفظة « سيدتي »

واضاف : يوجد آنستان باسم فرنوي ، فللاسر الكبيرة دائماً عدة فروع .

فوجئت السيدة الغريبة بهذه الدالة . فتراجعت بضع خطوات لتتفحص هذا

المتكلم الطفيلي وركزت عينيها السوداوين المليئين بنباهة وحذق هما من خصائص

النساء ، وراحت تبحث عن الفائدة التي يجنيها من تأكيد بقاء الأنسة دو فرنوي على قيد الحياة . وفي الوقت ذاته جرد كورنتان في ذهنه هذه السيدة من جميع صفات الأمومة ليحل محلها متع الحب . فقد ابى ان يرى ابنا في العشرين من عمره لسيدة ذات بشرة نضرة وحاجبين منحنيين كثيفين وأهدباً لا تزال على شيء من الكثافة اعجب بها اعجاباً شديداً . كما ان شعرها الأسود المفروق على الجبين كان يكشف عن فتوة ذكية . والفضون الخفيفة على الجبين كانت تفضح ، دون ان تكشف عن سنها ، لواعج شهوة شابة . وعيناها الحادتان ، ان كانت تغشاها غشاوة رقيقة ، فليس من يعرف اذا كان ذلك ناتجاً عن مشقة السفر او عن الافراط في معاقرة اللذات . واخيراً ، لاحظ كورنتان ان الفستان الذي ترتديه كان من القماش الانكليزي ، وان شكل قبعها الاجنبية لا تنتمي لاي من الازياء الاغريقية التي كانت ما برحت تطفى على الزينات الباريسية .

لقد كان كورنتان من المخلوقات المطبوعة على رؤية الشر قبل الخير . وسرعان ما ثارت في نفسه الشكوك حول هذين المسافرين .

اما السيدة ، فقد لاحظت بدورها على كورنتان وبنفس السرعة ملاحظات عدة . والتفتت نحو ابنا التفاتة ذات معنى فكأنها تقول : من هو هذا الرجل الشاذ ؟ اهو من جماعتنا ؟

على هذا السؤال الذهني اجاب البحري الشاب بجرأة ، وبنظرة وباشارة من يده معناها : يقيناً ، لست ادري . لست اعلم شيئاً واني مثلك لمرتاب بامرّه . قال ذلك وترك لاهمه مهمة حل هذا اللغز . ليلتفت هو نحو المضيفة وليسر في اذنها : حاولي جهدك ان تعرفي من هو هذا البلبد ، وهل يرافق الأنسة فعلاً ، ولماذا يرافقها .

وقالت السيدة دوغوا لكورنتان :

– على ذلك انت متأكد ان الأنسة دو فرنوي ما برحت حية ؟

– انها حية بلحمها وعظمها كما هو مواطن غوا دو سان – سير حي برزق .
تضمن هذا الجواب سخرية عميقة لم يعرف سرها احد سوى السيدة ، وفجأة

حذق ابنها الى وجه كورنتان الذي سحب ساعته من جيبه ببرود درن ان يبدو عليه انه شعر بالقلق الذي سببه جوابه .

وقالت السيدة لكورنتان ، وهي القلقة المستعجلة لمعرفة اذا كان الجواب يخفي مخادعة ام انه جاء عفويًا :

– يا الله ما اكثر مخاطر الطرق ! لقد هاجمنا الناعقون في مورثان وابى ابني ان يبقى مكتوف اليدين . فاصيب برصاصتين في قبعته وهو يدافع عني .

– ماذا تقولين يا سيدتي ؟ اكنتا في عربة البريد التي نهبتها العصابات على الرغم من خفرها والتي حملتنا الى هنا . على ذلك فانت تعرفين العربة ! قيل لي لدى مروري في مورثان ان عدد الناعقين كان يربو على الالف رجل عندما هاجموا العربة وان جميع الذين كانوا فيها قد هلكوا ، حتى سائقها لاقى حتفه . هكذا يكتبون القصة !

كان كورنتان ، في لهجته السامة وهيبته البلهاء ، اشبه بابن الريف الذي يصدق ، بال ، نبأ سياسياً كاذباً . وتابع كلامه قائلاً :

– آه يا سيدتي ، اذا كانوا يقتلون المسافرين قرب باريس ، فتصوري الأخطار التي تحيق بطرق بريتانيا . يقيناً ، سأعود الى باريس ولن ابتمد عنها .

وطراً على بال السيدة خاطر فجائي فسألت المضيفة :

– هل الآنسة دو فرنوى جميلة صبية ؟

في هذه اللحظة قطع المضيف هذا الحديث القاسي الذي كان على غاية من الأهمية بالنسبة الى الثلاثة المتحدثين بقوله ان العشاء اصبح جاهزاً ! وهنا قدم البحري يده لامة بدالة مصطنعة اكدت ظنون كورنتان . فقال الغريب له بصوت عال وهو يتجه نحو الدرج : ايها المواطن ، ان كانت الانسة دو فرنوى قد قبلت اقتراح المضيف وان شئت ان ترافقها فلا بأس في ذلك .

قال ذلك وتسلق الدرج ، اما الشاب فقد ضغط بشدة على يد السيدة . وما ان ابتمد كورنتان عنها بضع درجات حتى خاطب البحري السيدة بقوله :

– انظري الى اي المخاطر تعرضنا مشاريعك الحفقاء ، كيف تنجو اذا اكتشف

امرنا ، واي دور هو هذا الذي تسدينه الي ؟
اجتمع الثلاثة في غرفة واسعة . ولا حاجة الى الكثير من التجول في مناطق
الغرب لندرك ان صاحب الفندق قد غالى كثيراً في اكرام ضيوفه وأتى بكل
ما عنده من الممتعات ليرضيهم : مائدة عامرة ، وشقة دفتة بأحسن الوقود ،
والبياض والصحون والمقاعد كلها كانت نظيفة ، ولاحظ كورنتان ان صاحب
الفندق « قطع نفسه اربعاً » حسب التعبير الشعبي ليرضي نزلاءه الاغراب .
فخاطب كورنتان نفسه قائلاً : هؤلاء الناس ليسوا كما يبدو ، فهذا الشاب
مخادع محتمل .. ظننته في بادىء الأمر أبله . اما الآن فاني اعتقد انه يضاهيني
فطنة ودهاء !.

وجلس الشاب البحري وأمه و كورنتان ينتظرون الآنسة دو فرنوي التي
سارع المضيف الى اعلامها بذلك . غير ان المسافرة الحسنة لم تحضر . وخطر في
بال طالب البوليتكنيك انها تلاقى بفض الصعوبات ، فخرج وهو يتغنى بمطلع
نشيند : « لنسهر على سلامة الامبراطورية » واتجه نحو غرفة الآنسة دو فرنوي
تدفعه رغبة ملحة في التغلب على شكوكه ومرافقتها الى الصالة . ربما اراد ان
يطرد مخاوفه ، او لعله كان يزجو ان يمارس على هذه الفتاة المجهولة سلطانه كرجل .
واذ رآه كورنتان يخرج من الغرفة قال في نفسه :

- ان كان هذا الشاب جمهورياً فسأشتق نفسي ! إن على منكبيه سمة اعمل القصور .
وقال وهو يتطلع الى مدام دو غوا :

- واذا كانت هذه امه فاني انا البابا ! انهم ناعقون ، ولا بد لي من التأكد .

هوذا الباب يفتح ليخرج منه البحري آخذاً بيد الآنسة دو فرنوي . ثم
أجلسها الى المائدة بكل رعاية .

والساعة التي انقضت في انتظارها لم تذهب سدى ، فقد تسلحت الآنسة
دو فرنوي ، بمساعدة فرانسين ، بزينة أشد فعالية من زينة حفلة رقص . كان في بساطتها
ميل ناشئ عن فن تتقنه أي امرأة جميلة عندما تنزع عنها حليها لتتخذ زينة ذات
قيمة ثانوية ، فقد لبست فستاناً اخضر بقصات وغبنات جميلة ترسم أشكال جسمها

بفتنة قد لا تليق بالفتيات الحفريات، ويكشف عن قامه رشيقه وعن خصر انيق وحركات ناعمة .

ودخلت وهي تبتم بطرف وكياسة طبيعية لدى النساء القادرات على فتح الفم الوردي لتبرز فيه اسنان حسنة التنضيد ذات تألق كالبورسلين، وعلى خديها غمازتان غضتان كغمازتي طفل . نزعنا عنها المعطف الذي كان يجب تكوينها عن عيني البحري ، فأصبح بإمكانها ان تتصنع ما شاءت وان تأتي ألف حركة وحركة ناشطة في الظاهر كأبي امرأة تتوخى اظهار مفاتها . وكان بين حركاتها وبين زينتها تجاوب يزيد في فتوتها الى حد ان مدام دو غوا لم تقدر عمرها بأكثر من عشرين عاماً .

هذه الزينة الانيقة الرامية ، دون ريب، الى الارضاء أحييت الآمال في قلب الشاب. بيد ان الحسنة حيتها باحناء رأسها بفتور دون ان تنظر اليه . ثم تجاوزته بعنجهية أقلقت باله . ولم يكن في تحفظها ذاك أي دليل على التدلل او الحذر في نظر الغبراء ، بل كان فيه لامبالاة طبيعية او تظاهرية . فقد أضفت الفتاة على وجهها تعبيراً بريئاً لا يرقى اليه الشك ولم تدع أي مجال للارتياح بأنها تعمدت ذلك . ثم بدت تجنح الى اصطناع الحركات الصغيرة والجميلة الفاتنة ، فحركت شعور البحري الذي اتخذ مكانه على المائدة بحنق .

امسكت الآنسة دو فرنوي يد فرانسين وقالت للسيدة دو غوا بلطف ومودة : هل تتكرم سيدتي بالسماح لمرافقتي ، التي أعتبرها صديقة لي، ان تتمشى معنا ؟ ففي الايام العاصفة ، يا سيدتي ، لا يمكن دفع ثمن الاخلاص إلا بالعاطفة ، وبعد ، أليست العاطفة هي كل ما بقي لنا ؟

على هذا الطلب الذي لفظ مقطعه الاخير بصوت خافت اجابت مدام دو غوا بجملة نصف ترحيبية كشفت عن امتعاضها من مقابلة فتاة على جانب عظيم من الجمال ، ثم مالت الى اذن ابنها وقالت له : « آه ! الايام العاصفة .. اخلاص وسيدة وخادمة ! قد لا تكون الآنسة دو فرنوي بل «بنتا» ارسلها فوشه اليك . » وكان الضيوف على اهبة الجلوس الى المائدة عندما لمحت الآنسة دو فرنوي

كورتان ، وكان لا يزال يحلل نفسية مدام دو غوا وابنها اللذين ظهر عليهما القلق من نظراته . فقالت له الآنسة فرنوي : « ايها المواطن . انك ، لا شك ، ارفع من ان تتبع خطواتي على هذا الشكل . فيوم ارسلت الجمهورية بوالدي الى المقصلة لم تكرم بتعيين وصي علي ، فان كنت قد رافقتني ، بالرغم من رغبتني ، مدفوعاً بدوافع الفروسية السامية ، فقد قررت الا اذهب في طلب الحماية الى حد ازعاجك ، انني في امان هنا وبامكانك ان تدعني وشأني » .

قالت له ذلك وهي تسدد اليه نظرة ملؤها الازدراء ، فهم كورتان معناها فاختصر ابتسامة الممت باطراف شفقيه الماكرتين . ثم حياها باحترام وقال لها :
- يسرني دائماً ان اطبعك ايها المواطنة . فالجمال هو السيد الوحيد الذي يمكن للجمهوري الحقيقي ان يخدمه ببلء اختياره .

بجروج كورتان لمعت عيننا الآنسة دو فرنوي ببريق الفرح ، ونظرت الى فرانسيس بابتسامة معنوية ممزوجة بمزيد من الجبور الى حد شعرت معه مدام دو غوا التي امست لشدة غيرتها ، شديدة الحذر ، بوجود التخلي عن الظنون التي ساورتها امام جمال الآنسة دو فرنوي الصاعق وامرّت في اذن ابنها قائلة :
- قد تكون هي الآنسة دو فرنوي بالذات .

فاجابها الشاب الذي جعله الغضب رصيناً :

- والحاشية ؟ .. أتكون الآنسة اسيرة ام تحت الحماية ؟ موالية للجمهورية ام

عدوة ؟

أغمضت مدام دو غوا عينيها كما لو كانت تحاول جلاء هذا السر .
هذا . ويبدو ان ذهاب كورتان قد لطف من تحفظ البحري الشاب ، فلان بعض الشيء وألقى على الآنسة دو فرنوي نظرة نمت عن حب جارف للنساء جميعاً ، وليس عن عاطفة بريئة لحب جديد ، وازاء هذه النظرة ازدادت الحسنة تحفظاً وحصرت كلماتها اللطيفة بالسيدة دو غوا . فامتعض الشاب امتعاضاً شديداً لكنه حاول ان يتظاهر باللامبالاة ، ولم يبد على الآنسة دو فرنوي انها لاحظت ذلك ، اذ انها بدت سليمة النية ومتحفظة بدون تزمّت .

لم يوقظ ذلك اللقاء اي ميل في احدهما نحو الآخر . بل بالعكس احدث ازعاجاً ومضايقة قضت على كل أمل راود الاثنين من قبل . غير ان في النساء حاسة تصل ما بينهن ، حاسة تخفي علاقات حميمة وרגائب حادة في تبادل التأثيرات التي يعرفن كيف يكتمنها في بعض الظروف .

وكان الحسناوين قد بيتتا فكرة واحدة فراحتا فجأة تداعبان ببراءة الفارس الوحيد الموجود معها ، وتتنافسان حياله في ضروب السخرية المتيقظة الحذرة ، وما في غمرة من الجبور والمرح . وارتفع التكلف بينها الى حد ان أي نظرة او أي كلمة تتطلق من أي منها بدون انتباه تفقد معناها في الحال وفي مدة نصف ساعة بدت السيدتان ، وما المتخاصمتان سرأ ، كأحسن صديقتين في العالم . اما طالب البحرية فقد فوجيء بميل عميق نحو الأنسة دو فرنوي في مرحها كما في تحفظها ، وكان من قبل قد بلغ من الاستياء حد الندم على قبوله اشراكها في عشائه . وتجاه موقفه ذلك ، سألت الأنسة دو فرنوي السيدة دو غوا :

— هل ابنك دائم الانقباض كما هو الآن يا سيدتي ؟

فأجابها الشاب بقوله :

— اني لأتساءل ، يا آنسة ، ما الفائدة من سعادة لا تلبث ان تزول ؟ ان سر

انقباضي يكن في حيوية لذتي . فقالت ضاحكة :

— هذا غزل فيه من رائحة البلاط أكثر مما فيه من مدرسة البوليتكنيك .

لأسباب خاصة رأيت مدام دو غوا ان تساير السيدة المهولة فقالت لها :

— لم يعبر عن أكثر مما جال في خاطره يا آنسة .

فأجابت الأنسة دو فرنوي مخاطبة الشاب :

— هيا ، اضحك ، كيف عساك تكون وأنت تبكي ما دام ما تسميه سعادة

يجزئك الى هذا الحد ؟

ارفعت كلمتها هذه بابتسامة ونظرة نافذتين أزالتا القناع عن النية الحسنة

وبعثت الامل في قلب الشاب . غير ان الأنسة دو فرنوي ، بوحى من الغريزة

التي تدفع المرأة دائماً الى الافراط في المنح او التفريط فيه ، بدت كأنها تجتذب الشاب

بنظرة حوت أخصب وعود الحب حيناً ، وحيناً تناقض تعابيرها المحببة ببرودة محتشمة . وهي عملية قاسية تخفي النساء ، عادة ، وراءها عواطفهن الحقيقية . وفي اللحظة التي شعر فيها كل منهما بأنه لاقى حظوة في نظر الآخر ، اخذ الاثنان يعربان عن أفكارهما الحقيقية ، لكن بعبارات وجيزة مختصرة غير كافية للأفصاح عن معاني النظرات التي اخترقت قلوبهما . ولكثرة ما قالاه في لحظة واحدة ، أدركها الحياء وباتا لا يجرؤان على تبادل النظر . وحرصت الآنسة دو فرنوي على عدم تغيير ظن الفتى البحري فيها فلزمت موقفها الجدي ، ولم تخرج عن نطاق التأدب البليد . حتى انها بدت تنتظر انتهاء الطعام بفارغ الصبر .

وقالت لها مدام دو غوا :

— لا بد انك تألمت كثيراً في السجن يا آنسة .

— آه ! يا سيدتي ، يلوح لي انني ما زلت احمل آثار حزني حتى اليوم .

— هل الذين برفقتك هم لحمايتك ام لمراقبتك ؟ أنت من انصار الجمهورية ام تحت الشبهة ؟

عرفت الآنسة دو فرنوي بالفريزة ان مدام دو غوا لا تعلق عليها الكثير من الأهمية فسارعت الى اعطاء الجواب التالي :

— لا اعرف بالضبط ما هي طبيعة علاقتي بالجمهورية .

وقال الشاب بسخرية :

— لعلك تخيفين الجمهورية ؟ ، فانتهرته مدام دو غوا بقولها :

— لم لا تحترم اسرار الآنسة ؟

— آه يا سيدتي ! ليست اسرار فتاة ، لم تعرف من الحياة سوى الآلام ، اسراراً

ذات بال .

شاءت مدام دو غوا ان تفهم ابنها ماذا تعني ضمناً فتابعت حديثها قائلة .

— لكن للقنصل الاول نيات حسنة ، فقد قيل انه سيقف مفعول القوانين

ضد المهاجرين .

— ربما كان ذلك صحيحاً . واذا صح الخبر فلماذا اذن نهيج فانداه وبريتانيا ؟

لماذا نحرق فرنسا؟

هذا الهتاف السمج الذي اوقع قائلته تحت الملامة ، سبب رجفة للشاب البحري فانعم النظر في الآنسة دو فرنوي ولكنه لم يلحظ في ملاحظها لا حقداً ولا حباً . لقد استعصى عليه اختراق بشرتها الناعمة التي توحى بالرقة وتدعو الى الملاطفة . وشدته اليها عاطفة عميقة ورغبات عنيفة .

وبعد فترة توقف استأنفت الفتاة المجهولة حديثها وسألت مدام دو غوا :

- هل انت ذاهبة الى مايان ؟

فأجاب الرجل على الفور :

- أجل يا آنستي .

استمرت الآنسة دو فونوي في توجيه الكلام الى مدام دو غوا فقالت :

- حسناً ، يا سيدتي ، طالما ان ابنك يخدم الجمهورية ... (تلفظت بهذه الكلمات بعدم اهتمام ، في الظاهر ، الا انها القت على كل من الشخصين المجهولين نظرة خفية هي من اختصاص النساء والدبلوماسيين) أفلا تخافان الناعقين ؟ ليس في المرافقة ما يشين . لقد اصبحنا رفاق سفر . تعالا معنا الى مايان .

ارتبك الابن والام وظهر على ملاحظها كأنها يتشاوران ، ثم اجاب الشاب : - لست ادري يا آنستي اذا كان من الحكمة ان اعترف لك بان ثمة مصالح

خطيرة تستدعي بقاءنا هذه الليلة في ضواحي فوجير ، وباننا لم نجد الى الآن وسيلة للنقل . ولكن النساء كريمات وسمحات بطبيعتهن الى حد انني اخجل الا اتق بك . انما نريد ، قبل ان نضع نفسينا بين يديك ، ان نعرف هل سنخرج سالمين من مايان . هل انت مليكة حاشيتك الجمهورية ام اسيرتها ؟ ارجو المعذرة لصراحة شاب بحري ، فانا لا ارى في وضعك اي شيء طبيعي .

- اننا ، يا سيدتي ، نعيش في زمن لا شيء مما يجري فيه طبيعي ، وعلى ذلك تستطيع ان تقبل العرض بلا خوف ، كن واثقاً من ذلك ، لا تخش اي خيانة في عرض قدمته ، بكل بساطة ، فتاة لا تتبنى الاحقاد السياسية .

- وهكذا لا تخلو رحلة من هذا النوع من المخاطر .

قال ذلك وهو يرمقها بنظرة فيها من الدعابة ما يعطي أهمية لهذا الجواب
السطحي ، فسألته بإبتسامة ساخرة :

- أي شيء تخشاه بعد هذا التطمين ، انني لا أرى خطراً على احد .

وخاطب الشاب نفسه قائلاً : أترى هذه المرأة التي تتكلم هكذا هي نفس
المرأة التي قاسمتني نظرتها رغائبي ؟ يا لها من لهجة ! انها تنصب لي كميناً .

في هذه اللحظة انطلق نعيب جلي نافذ لبومة بدت كأنها واقفة على رأس
داخون المدفأة كاعلان قاتم ، فقالت الآنسة دو فرنوي :

- ما هذا ؟ لن تبدأ رحلتنا بتفاؤل بالخير ، ولكن ، كيف يتم وجود يوم
تنعق هنا في النهار ؟ فأجابها الشاب ببرود :

- يحصل ذلك في بعض الاحيان . وأضاف : ولعلنا نذير شؤم لك ، أليس
هذا ما تفكرين فيه .. وعلى ذلك فلن نساfer معاً .

قال هذه الكلمات يهدوء وتحفظ أدهشا الآنسة دو فرنوي . فقالت له بلهجة
ارستوقراطية : انني أبعد من ان اقر كما على الرحيل معي ، لنحتفظ بالقليل من

الحرية التي تتركه لنا الجمهورية ، لو كانت السيدة وحدها لألححت عليها ...
دوت خطوات ثقيلة عسكرية في المر وظهر القائد هولوبوجه متجهم ،

فاستقبلته الآنسة دو فرنوي بإبتسامة ودعته الى الجلوس على كرسي بالقرب منها
وقالت له :

- لنهتم بشؤون الدولة طالما ان الحاجة تدعو الى ذلك ، ولكن ، ما بالك
متجهم الوجه ، هل يوجد ناعقون هنا ؟

ظل القائد صامتاً حيال الشاب المجهول وأخذ يتأمله بانتباه شديد . وقد
تشاغل البحري عنه بطرح الاسئلة على الضيوف :

- ألا تريدن مزيداً من لحم الارنب يا أمي ؟ وأنت يا آنسة فرانسين ، أراك
لا تأكلين .

غير انه كان في دهش هولوب وانتباه الآنسة دو فرنوي شيء رهيب ، من الخطر
تجاهله . فأضاف الشاب قائلاً :

- ما بالك يا سيدي القائد ! هل عرفتنى ؟ فأجابه الجمهوري :
- ربما ...
- الواقع ، يلوح لي أنني رأيتك في المدرسة .
- لم أذهب الى المدرسة قط ، من أي مدرسة تخرجت ؟
- من البوليتكنيك .
- أي ، نعم ، من السكنة التي تأمل ان تصنع جنوداً في صالات النوم .
- هكذا اجاب القائد الذي كان يصنع مقالب لا تقاوم للضباط الذين يتخرجون من هذا المشتل العالي ، واطاف : في أي سلاح تؤدي خدمتك ؟
- في البحرية .
- فقال هولوا ضاحكاً بنجث :
- هذه المدرسة لا تخرج سوى ضباط في المدفعية ، فهل يوجد فيها تلاميذ في البحرية ايضاً ؟
- لم يرتبك الشاب وهو يجيب :
- استثنيت من بين جميع الطلاب بسبب الاسم الذي احمله . جميع افراد اسرتنا كانوا بحريين .
- ما اسم اسرتك ايها المواطن ؟
- دو غوا سان سير .
- ألم تقتل في مورتان ؟
- اجابت مدام دو غوا على هذا السؤال بقولها :
- كاد ان يقتل ، فقد اصيب ابني هذا برصاصتين في قبعته .
- وتابع هولوا طرح الاسئلة على الشاب دون ان يصغي الى امه :
- اتحمل اوراقاً ؟
- اتريد ان تقرأها ؟ سأل البحري الشاب وهو يحدج بنظرة جانبية فاحصة
- وجه القائد القاتم ووجه الانسة دو فرنوي .
- هات اوراقك والافها ، سر أمامي .

- هه ، هه ، يا لك من رجل طيب ، انا لست نكرة .. وهل أنا بحاجة الى ان أجيبك !.. من أنت ؟
- انا قائد المنطقة .

- وعليه قد تكون حالي على جانب كبير من الخطورة ، تقبض علي والسلاح في يدي .

قال ذلك وناوله كأساً من نبيذ بوردو المعتقد .
فأجابه : لست ظمآن ، ما بالك !. هات اوراقك .

في هذه اللحظة سمعت قرقعة أسلحة وخطوات بعض الجنود تدوي في الشارع . فاقترب هولوا من النافذة فطفح وجهه برضى أروع الآنسة دو فرنوي وأخاف الشاب الذي بهت وجهه وشمخ برأسه . ثم أخرج من جيبه محفظة أنيقة وعرض على القائد الاوراق التي طلبها فقرأها هولوا بتأمل وهو يقارن بين الاوصاف الواردة في الجواز وبين اوصاف وجه المسافر المشبوه . وفي أثناء ذلك عاد النعيق من جديد ، لم يكن من الصعب هذه المرة تمييز تلاعب صوت بشري فيه ، وعندئذ أعاد القائد للشاب أوراقه وقال له وهو يرمقه بسخرية :

- الاوراق صحيحة . ولكن ينبغي ان تبغني الى المركز . انا لا احب النعيق .
واذ سأله الآنسة دو فرنوي عن سبب اقتياده الى المركز اجاب وهو يتصنع الدلع كعادته :

- هذا الامر لا يعنيك يا بني .

امتعضت الآنسة دو فرنوي من لهجة الجندي المعجوز ، وبخاصة من الاهانة التي لحقت بها في حضرة رجل أعجب بها ، فهضت فجأة متخلفة عن طيبة القلب والتواضع ، وهما الصفتان اللتان لازمتها حتى الآن وقالت له وقد أشرق وجهها والتمعت عيناها :

- قل لي ، هل حرص هذا الشاب على التقيد بكل ما يتطلبه القانون ؟
- نعم ، ظاهرياً .

- بناءً عليه اتوقع ان تدعه لسأنه (ظاهرياً) ، اتخاف ان يفلت منك ؟

سترافقه معي حتى مايان . فسيركب العربة مع السيدة امه . هذه هي ارادتي
ولا اريد ملاحظات .

واذ رأيت هولوا متردداً اضافت قائلة : ما بالك ؟ اما زلت تشبه به ؟
- بعض الشيء .

- ماذا تنوي عمله ؟

- لا شيء اكثر من انعاش رأسه بقليل من الرصاص ، انه طائش .

- اتمزح يا « كولونيل » ؟

لم يحفل القائد بهذا السؤال ، بل اومأ الى البحري يدعوه الى اللحاق به
في الحال .

ازاء هذا الاصرار هدأت الآنسة دو فرنوي اعصابها وقالت للشاب وهي
تبسم : لا تتقدم خطوة .

واسر البحري في اذن امه التي قطبت ما بين حاجبيها قائلاً :

- ما احبها الي وهي متصلبة عنيدة !

الواقع ان الغيظ والعواطف الممتعضة اضفت مفاتيح جديدة على وجه الباريسية
الحسنة . وكان ان نهض الجميع ، فرانسين ومدام دو غوا وابنها وبينهم وقف
القائد مبتسماً والآنسة دو فرنوي التي حلت رباط شريطتين من حقيبتها .
وكامرأة جرحت في كرامتها او كطفل يسارع الى تجربه لعبة جديدة ، أخذت
رسالة قدمتها الى القائد وطلبت منه بابتسامة ماكرة ان يقرأها . ثم استدارت
نحو الشاب وهي في غمرة النصر ، فحدجته بنظرة امتزج فيها الدهاء بتعابير الحب .
كلاهما بدا وضاح الجبين يغمر الفرح وجهه المضطرب ، وقد تسابقت الأفكار
المتناقضة الى ذاكرتها . اما السيدة دو غوا ، فقد رمقتها بنظرة عميقة ايقنت
بها ان حلم الآنسة دو فرنوي لم يكن من قبيل الرأفة بل بدافع الحب ، ولقد
كانت على حق ، فقد امتقع وجه المسافرة الحسنة وخفضت جفניה وهي تتبين
كل ما حوته تلك النظرة النسائية من معنى . ثم لم تلبث حيال هذا الاتهام
الخطير أن رفعت رأسها بتشامخ متحدية جميع الاعين . اما القائد هولوا ، فبحقنق

شديد اعاد للآنسة دون فرنوي الرسالة المهورية بتوقيع جميع الوزراء وهي تطلب من جميع السلطات ان تطيع اوامر هذه السيدة الغامضة، بيد انه استل سيفه من غمده وكسره على ركبتيه . وقال لها :

- لا شك يا آنسة في انك تعلمين ماذا تريدن عمله . إلا ان للجمهوري رأيه وكبرياهه . وأنا لا يمكنني ان اخدم حيث الحسنات يصدرن الأوامر ، سأبعث باستقالتى هذا المساء الى القنصل الاول ، ثمة أناس غير هولر يطيعونك . إنني أقف حيث أفقد الفهم ، ولا سيما حيث أمنع عن الاستفهام .

وساد الصمت فترة قطعته الباريسية الشابة إذ تقدمت من القائد قائلة وهي تمد له يدها : أياها القائد ، على الرغم من لحيتك الطويلة تستطيع ان تقبلني ، فأنت رجل حقاً .

- يسرني ذلك يا آنسة .

قال ذلك وهو يطبع على يدها قبلة بلهاء . وخاطب الشاب المجهول قائلاً وهو يهدده بإشارة من اصبعه : اما انت ايها الرفيق فانك في حماية حسناء . فأجابه الشاب ضاحكاً :

- كلا أياها القائد، لقد انتهى وقت المزاح ، انني أتبعك الى المركز اذا شئت .

- تتبعني مع ناعقك المتخفي مارش آتير .

- من ؟ مارش آتير ؟ سأل البحري باصدق ما يكون من تعابير

الدهشة فقال القائد هولر :

- الم تسمع الصغير قبل قليل ؟

- وما هي العلاقة بيني وبين الصغير ؟ بالعكس ، ظننت ان جنودك الذين

أمرتهم باعتقالي هم الذين صفروا لينبتوك بوصولهم .

- أحقاً ما تقول ؟

- اجل ، ولكن ، ما بالك ، اشرب كأسك من نبيذ بورردو اللذيذ .

لقد فوجيء القائد بدهشة البحري الطبيعية ، وبخفة حركاته الفائقة للتصور ،

وبنضارة وجهه ، وقد أضفى عليه شعره الأشقر المرجل مزيداً من نضارة الطفولة ،

فلعبت برأسه الظنون ، وتطلع الى السيدة دو غوا التي كانت تحاول ان تكشف
سر النظرات التي كان ابنها يلقيها على الآنسة دو فرنوي وسألها بفتة :
- كم عمرك أيتها المواطنة ؟

- اواه يا سيدي القائد ، أراني ضحية قوانين الجمهورية الجائرة ، فعمري لا
يزيد عن الثامنة والثلاثين .

- حتى ولو حكم علي بالموت لن أصدق شيئاً . ان مارش آتير هو هنا ، وقد
صفر ، وأنتم ناعقون متخفون ، يا للصاعقة ! سأطوق النزل وسأفتشه .

في هذه اللحظة ، دوى صفير مذبذب أشبه بالصفير الذي سمع قبلاً وكانه
صادر من ساحة النزل ، فانقطع القائد عن الكلام وأسرع الى الرواق قبل ان
يلحظ الاصفرار الذي أشاعته كلماته على وجه السيدة دو غوا . رأى هولوا ان
الضابط هو نفس الحوذني الذي كان يشد جياده الى العربية . فتخلى عن ظنونه على
قدر ما بدا له انه من المحال ان يتورط الناعقون في قلب مدينة ألسون فاعتذر
عما بدر منه .

وفيما كان القائد يدخل الغرفة ، أسرت الام في أذن ابنها قائلة :

- ساحتها الآن . ولكنه سيدفع غالباً ثمن الوقت الذي حجزنا فيه هنا .

كان الضابط النشيط يحمل على وجهه تعابير كفاح قاس فرضته واجباته على
قلبه الطيب بطبيعته . ولعله حافظ على مظهره الحشن لانه كان يعتقد بانه مخدوع .
الا انه تناول كأساً من نبيذ بوردو وقال للبحري : اعذرني ايها الرفيقي : ان
مدرستك تورد الى الجيش ضباطاً صغار السن .

- وهل للعصابات ضباط اصغر سناً ؟ سأل البحري المزعوم ضاحكاً . وهنا

سألت مدام دو غوا القائد :

- من كنت تحسب ابني ؟

- كنت احسبه « الغار » ، اي الرئيس الموفد الى الناعقين والى ألفانديين من

قبل وزارة لندن والذي يسمونه المركيز دو مونتوران .

قال القائد ذلك وحدهج بانتباه عميق وجه الشخصين المشبهين اللذين تبادلا

النظر وقد ارتسمت على وجهيها تعابير فريدة تم عن جهل مطبق لما يسماعه
وكان من الممكن تفسيرها بهذا الحوار :

- ألك علم بذلك ؟

- كلا ، وانت ؟

- لا علم لي البتة .

- ماذا يقول لنا اذن ؟

- انه يهذي . ثم يلي ذلك ضحكة ساخرة مهينة لمهزلة حسبت انها انتصرت .
ان تصرفات ماري دو فرنوي والارتعاشة الخفية التي ارتقت الى وجهها
وهي تسمع لفظة اسم الجنرال الملكي ، لم يحسها سوى فرانسيس ، الفتاة الوحيدة
التي تعرف كل ما يعلو وجه سيدتها من اختلاجات داخلية . واذ شعر القائد
بهزيمته ، التقط عن الارض قطعتي سيفه ونظر الى الآنسة دو فرنوي التي حركت
قلبه بانفعالاتها الحارة وقال لها . اما في ما يخصك ايها الآنسة ، فلن اراجع
عن قولي ، غداً تصل الى بونابرت قطعنا سيفي الا اذا ...

- وما مني من بونابرت ومن جمهوريتك ومن الناعقين والملك و « الغار » !
قالت ذلك وهي تختصر انفعالاتها فيه الكفاية من القرف . لقد كانت في حالة
نفسية صعدت الى وجهها الواناً براقية من العناد ، فبدت وكأن العالم بأسره لم يعد
في نظرها شيئاً يذكر ، ولكنها تظاهرت بالهدوء فجأة عندما رأت انظار جميع
الحاضرين منصبة عليها .

نهض القائد بغتة ، وبقلق واضطراب لحقت به الآنسة دو فرنوي . اوقفته في
الرواق بلهجة رسمية : هل لديك اسباب وجيهة لتظن بالشاب أنه هو « الغار » ؟
فأجابها :

- يا للعجب يا آنسة ، ان الحارس الذي برفقتك جاء يخبرني بان الناعقين قد
قتلوا ركاب العربية وساعي البريد ، الأمر الذي كنت اعرفه . ولكن الشيء
الذي اجهله هو اسماء القتلى وبينهم اثنان من غوا سان سير .
فقالت بشيء من الاشمزاز :

- اذا كان لكورتان علاقة في القضية فلا مجال للاستغراب .
ابتعد القائد وهو يتجنب النظر الى الآنسة دو فرنوي التي شغلت قلبه بجهاها
الخطر . وقال في نفسه :

لوقبت معها دقيقتين اخريين لبلغت بي المحاقمة حد استعادة سيفي
والسير في ركبها .

ورأت مدام دو غوا ان الشاب لم يحول بصره عن الباب الذي خرجت منه
الآنسة دو فرنوي ، فاقتربت من اذنه وقالت له :

- اذت دائماً هكذا ، لن تهلك إلا بسبب امرأة ، حتى الدمية تفقدك صوابك ،
لماذا رضية ان تتناول الطعام معنا؟ ما هي هذه المدعوة الآنسة دو فرنوي التي
تقبل ان تتعشى مع انايس تجملهم ، والتي يرافقها الزرق ، وتجردهم من أسلحتهم
برسالة تحتفظ بها كأثمن شيء في حقيبتها ؟ انها احدى المخلوقات العاطلات اللواتي
يستعين بهن « فوشه » على اعتقالك . وما أعطيت لها الرسالة التي أبرزتها إلا
لحشد الزرق ضدك .

اجابها بلهجة قاسية أصابتها كطعنة خنجر في الصميم :

- آه ايتها السيدة ، انها تكذب ظنك بكرم اخلاقها . اذكري جيداً ان
مصلحة الملك هي وحدها التي تجمعني بك ، فبعد ان سقط « شاريت » على
قدميك ألم يصبح العالم بأسره فارغاً في نظرك ؟ ألم تعودني تفكرين بالثأر له ؟
بعد سماعها هذه الكلمات ، جمدت مدام دو غوا في مكانها شاردة الفكر كمن
يتأمل في كنوزه وهي تفرق في البحر ، وقلبه يزداد تعلقاً بثروته الضائعة .

وخلت الآنسة دو فرنوي الى مخدعها بعد ان بادها الشاب نظرة وابتسامه
فيها سخرية ناعمة محببة . فعلى الرغم من غموض المستقبل ، وعلى الرغم من التشاؤم
بامكانية اتحادهما ، فان الامل ما برح يدغدغ قلبها . وعلى الرغم من قصر النظرة
التي تبادلها الاثنان ، فانها لم تخف عن عين مدام دو غوا البصيرة . فتقطب جبينها
بعض الشيء ، وظهرت دلائل الغيرة على وجهها . وكانت فرانسيس تراقبها :
فراأت عينها تلمعان وخديها يرتعشان . وخيل اليها ان روحاً شريرة تطفو على

هذا الوجه الذي عصفت فيه ريح ثورة رهيبية، لكن للحظة أقصر من لمح البرق .
اذ سرعان ما استعادت مظهرها المرح بقوة اذهلت فرانسين التي خالت نفسها في
حلم . واذ تبينت في هذه المرأة عنفاً يضاهي عنف الآنسة دو فرنوي ، خافت
وتوقعت اصطدامات مخيفة بين امرأتين متشابهتين في حدة الطباع ، وقد
ارتعشت وهي تشاهد الآنسة دو فرنوي تقترب من الضابط الشاب وترمقه
بنظرات محومة ، ثم تأخذ بيديه ، فتشده اليها وتديره نحو النور بحركة انيقة
ومليئة بالحبث وتقول له وهي تحديق الى عينيه :

- اعترف الآن ، ألسنت المواطن غوا سان سير ؟

- اجل يا آنسة .

- لكن هذا قتل مع امه اول امس .

أجاب ضاحكاً :

- متأسف . على كل حال . اني اكن لك واجب الاعتراف بالجميل وارجو ان

اتمكن من الاعراب عنه .

- كنت اظن اني انقذت مهاجراً . الا اني احبك جمهورياً .

كلمات انطلقت من بين شفثتها خطأً ، فارتبكت وتراءى الخجل في عينها .
لم يعد في مجمل كيانها سوى عذوبة العواطف الناشطة ، فتركت يدي الضابط لا
خجلاً ، بل بدافع فكرة ثقلت على قلبها وتركت الشاب يعلل نفسه بالأمني
العذاب . ولكنها عادت فجأة فحيت رفيفي الطريق ، ثم توارت مع فرانسين .
في الغرفة ، شبكت فرانسين اصابعها وراحت تتأمل سيدتها وقالت :

- آه يا ماري ، كم من الاشياء مرت في وقت قصير ؟ ليس لهذه

المشاكل سواك !

قفزت الآنسة دو فرنوي الى عنق فرانسين وقالت لها :

- انا سعيدة ، انا في السماء !

- بل لعلك في الجحيم .

- آه ! اذهبي انت الى الجحيم ، هات يدك ، ضعها على قلبي وتحسسي

اختلاجاته . اراني محومة . العالم بأسره لم يعد يتسع لي ، لطالما رأيت هذا الشاب في الحلم ، ما اجمل رأسه وما احدّ بصره !

وبصوت رقيق ثابت ووجه غمرته الكأبة سألتها فرانسين :
- هل يحبك ؟

- اتسألين ؟ ولكن ، قولي لي ، هل يستحيل ذلك ؟
- كلا ، لكن ، هل يحبك دائماً ؟

تبادلا النظر لحظة ، فرانسين تستطلع اختباراتهما ، وماري تستجلي لأول مرة مستقبلاً سعيداً وسط العذاب ، وكأنها منحنية على حافة هاوية تختبر عمقها بالقاء حجر ، وتجيب فرانسين على سؤالها بقولها :

- هذا شأني ، لن ألوم أي امرأة خدعت في حبها . وعلى كل امرأة ان تتحمل مسؤولية فشلها في الحب . سأعرف كيف أحافظ على الرجل الذي امتلك قلبه ، حياً او ميتاً .

وبعد صمت أردفت قائلة بدهش : ولكن ، من أين لك كل هذه الخبرة يا فرانسين ؟
- أسمع وقع خطوات في الرواق .

- آه ! ليس « هو » ولكن .. أهكذا تجيبين ..؟ لقد فهمتك : سأنتظر جوابك او سأكتشف ذلك بذاتي .

كانت فرانسين على حق ، فقد سمعت ثلاث دقات على الباب قطعت الحديث . وكان الطارق الضابط ميرل . فأذنت له الآنسة ، فدخل . وفيما هو يؤدي التحية العسكرية غامر بالقاء نظرة عليها ، فبهرته بجيالتها . ولم يجد ما يقوله لها سوى :
- انني رهن اوامرك يا آنسة ؟

- انت اذن حارسي بعد استقالة رئيسك القائد هولو !
- رئيسي الادجودان ماجور جيرار هو الذي أرسلني .
- هل اخيف قائدك كثيراً ؟

- اعتذري يا آنسة ، هولو لا يخاف احداً ، ولكنه لا يتعامل مع النساء ، ولا يهون عليه ان يجابه رؤساءه بسبب امرأة .

- بناء عليه فمن واجبه ان يطيع رؤساءه . انني احب النظام العسكري ،
واحذرک بأني لا أريد مقاومة .

- ليس من السهل مقاومتك يا آنسة .

- لنعقد جلسة .. لديكم هنا قوات مرتاحة ترافقني الى مايان فنبلغها هذا
المساء ، هل بالامكان العثور على جنود جدد ليرافقونا دون ان نتوقف ؟ ان
الناعقين يجهلون بمعثنا الصغيرة ، فاذا رحلنا في الليل ، نخشى ان نلقاهم فنعجز
عن مقاومتهم ان كان عددهم كبيراً . قل لي ، هل يمكن ذلك !
- اجل يا آنسة .

- كيف حال الطريق من مايان الى فوجير !

- وعرة ، فيها طلوع ونزول ، هذا بلد خليق بالسناجيب .

- هيا بنا ، تقدمنا طالما لا يوجد خطر . وسنلحق بك .

خرج ميرل وهو يقول في نفسه عن الآنسة دوفرنوي :

- كأنها تحمل عشر سنوات من الرتب ، هولو على خطأ ، فهذه الفتاة ليست
من طينة اللواتي يعملن ثروة في سرير ناعم ، وحق ألفرصاصه ، ان شاء الضابط
ميرل ان يصبح لواءً فخير له ألا يخلط ما بين القديس وابليس .

أثناء اجتماع الآنسة دوفرنوي بالضابط ميرل ، كانت فرانسين قد خرجت
الى نافذة الرواق لفحص نقطة معينة من الباحة ما برحت تجتذب فضولها منذ
وصولها الى النزول . تأملت قش الاسطبل بانتباه عميق كأنها تصلي امام العذراء ،
رأت مدام دو غوا تتجه نحو مارش آتير بجذر كأنها قطة تتجنب الدوس على
الماء ، واذ رأى الناعق هذه السيدة نهض ووقف امامها بكل احترام . فثار
فضول فرانسين واندفعت الى الباحة متسللة على امتداد الجدران ، خفية عن
نظر مدام دو غوا ، وحرصت ان تختبئ خلف باب الاسطبل . مشت على
أطراف قدميها وهي تمسك أنفاسها الى ان تمكنت من التمرکز بالقرب من مارش
آتير دون ان تثير انتباهه . وراحت تصغي الى ما يدور بين مدام دو غوا
ومارش آتير من حديث :

قالت مدام دو غوا : اذا ظهر ، بعد كل هذه المعلومات ، ان هذا الاسم ليس اسمها الصحيح ، اطلق عليها الرصاص بلا شفقة كأنها كلبة هائجة .
قال مارش آتير : سمعاً وطاعة .

ثم ابتعدت السيدة وبقي الناعق واقفاً يفرك أذنه كمن وقع في حيرة ، واذا بفرانسين تظهر له كما في الحلم فصرخ :

- يا قديسة حنة ! . وأسقط السوط على الارض وضم يديها الى بعضها كأنه أصيب بذهول . احمر وجهه قليلاً والتمعت عيناه وقال بصوت مخنوق :
- أهذه حقاً بنت كوتان ؟ يا لها من « غودين ! » .

غودين كلمة غريبة يستعملها العشاق من أبناء الارياف للتعبير عن الحسان ذوات الاناقة والجمال الفتان .

وأضاف مارش آتير قائلاً وهو يقرب يده الحشنة من فرانسين ليتحسس ثقل سلسلة ذهبية تطوق عنقها وتهبط الى صدرها : أنا لا اجرؤ على لمسك .

- تحسن صنماً يا بيار . اجابت فرانسين بوحى من فطرة في المرأة تجعلها جائرة اذا لم تكن في ضنك من العيش . وتراجعت بترفع بعد ان استمعت بفجأة الناعق . إلا انها عوضت عن قساوة كلماتها نظرة ملؤها اللطف والعدوية ، ثم اقتربت منه وقالت له :

- بيار ، لقد كانت هذه السيدة تكلمك عن الأنسة الشابة التي اخدمها ،
اليس كذلك ؟

لزم مارش آتير الصمت المطبق ، وانقبض وجهه . واصبح كالفجر بين الظلمة والنور . تطلع الى وجه فرانسين ، ثم الى السوط الذي اسقطه من يده على الأرض ، ثم الى السلسلة الذهبية التي اعجب بها اشد الاعجاب . وكأنه اراد ان يضع حداً لاضطرابه فالتقط سوطه ولكن لسانه ظل معقوداً .

قالت فرانسين وقد عرفت امانة الناعق العميقة لها وشاءت ان تبدد الاوهام .
- آه ! ليس من الصعب ان ادرك ان السيدة امرتك بقتل سيدتي .

خفض مارش آتير رأسه بطريقة معنوية اعتبرتها بنت كوئان جواباً
فقلت له :

- حسناً يا بيار. اذا نال سيدتي اي ضرر، اذا سقطت شعرة واحدة من رأسها
فسيكون لناؤنا هنا آخر لقاء ، والى الابد ، اذا كون انا في الجنة وانت
في جهنم .

ما كان اصدق المتعلقين باوامر الكنيسة اشد اضطراباً من مارش آتير وهو
يسمع هذه النبوءة ، تلفظ بايمان حار ترك في نفسه ما يشبه التأكيد . والقى على
الفتاة نظرة مزوجة بحنان وحشي ، ثم استسلم لعصية الأيمان وكانت فروضها
اكثر الزاماً له من الحب ، وبدا اكثر توحشاً عندما لحظ سياه التسلط على
حبيبته البريئة ، ففسرت مكوته على طريقته وقالت له معاتبه :

اذن ، فانت لا تريد ان تفعل شيئاً من اجلي ؟

- لدى سماعه هذه الكلمة ، القى الناعق على حبيبته نظرة قائمة اشد قتمواً ،

من الغراب . وسألها بصوت هامس :

- أأنت حرة ؟

فأجابته بامتعاض :

- اكنت اكون هنا... وانت ماذا تفعل هنا ؟ انك ما زلت تنعق ، تركض

في الطرقات كالحيوان الهائج ، آه ! يا بيار لو كنت عاقلاً لجئت معي . ان هذه
الآنسة الحسناء التي كانت في الماضي رضيعاً عندنا (ولك وحدك اقول ذلك)
قد اعتنت بي وضمنتي اليها . دخلي اليوم عندها لا يقل عن مثني ليرة ! واشترت
لي بيت عمي توماس بخمسة ليرة ذهبية ، ولدي في بنك التوفير الفان من الليرات .
غير ان ابتسامتها وتعداد كنوزها فشلا امام التعبير الحقي الذي تحلل

جملته التالية :

- لقد اعلن المرشدون الحرب ، ودم كل « ازرق » يساوي غفراناً من الله .

- ولكن . قد يقتلكم الزرق .

اجابها على ذلك بارخاء ذراعه كأنه يستخف بحياته التي نذرها لله وللملك ،

فقالت بحسرة :

— وماذا يحل بي ؟

حقدق مارش آتير الى وجه فرانسين ببلاهة ، عيناه تتسعان ، وانسكبت
منهما دمعتان تدرجتا على وجنتيه ثم الى جلد المعزى الذي يقطيه واطلق زفرة
من اعماق صدره . فصرخت فرانسين :

— يا قديسة حنة الاورية!.. اهذا كل ما تقوله لي بعد فراق دام سبع سنوات

يا بيار ؟ لشدّ ما تغيرت !

اجاب بصوت مخنوق :

— مازلت احبك .

— كلا انت لا تحبني ، انت تحب الملك اكثر مني .

— ان ظلت تنظرين الي هكذا فساذهب في سبيل .

قالت بأسى :

— الوداع اذن .

— الوداع .

قال مارش آتير ذلك وأمسك بيد فرانسين ، فضغط عليها وقبلها ، ثم رسم
على وجهه اشارة الصليب وهرب الى الاسطبل كالكلب الذي ظفر بعظمة .

وفي الاسطبل قال لبيبل ميش رفيقه : لقد أفلست من التبغ أتحمّل جمعبتك؟

— يا للوقعة الزرقاء!.. أجاب بيل ميش وهو يبحث في جيبه تحت جلد المعزى .

وتناول مارش آتير قبعاً صغيراً من قرن الثور يضع فيه البريتونيون التبغ

الناعم الذي يسحقونه بأنفسهم في سهرات الشتاء الطويلة . ورفع الناعق ايهام

يده بطريقة تشكل في رسغ يده اليسرى نقرة يقيس بها المعجزة حاجتهم من

التبغ . خض بقوة القراب فتساقط من الثقب الذي في طرف القبع مسحوق

استنشقه مارش آتير وكرر هذه العملية أكثر من سبع مرات كأن هذا المسحوق

قد تسلط عليه وغير طبيعة أفكاره . وفجأة أطلق حركة يائسة . أعاد القراب

لبيبل ميش وأخذ بندقيته التي كانت مخبأة بين القش وقال لرفاقه بصوت أجش :

— هيا بنا ، لدينا مهمة .

وفي الحال رفع ثلاثون ناعقاً، كانوا نائمين تحت المعالف وبين القش، رؤوسهم،
قرأوا مارش آتير منتصباً على قدميه . فتواروا من باب يؤدي الى البساتين
ومنها الى الحقول .

عندما خرجت فرانسين من الاسطبل وجدت العربية على أهبة الرحيل وقد
جلست فيها الآنسة دوفرنوي ورفيقا السفر . ارتجفت البريتونية عندما رأت
سيدتها جالسة داخل العربية الى جانب المرأة التي أمرت بقتلها، والشاب «المشبه»
أمامها . وما ان اتخذت فرانسين مقعدها حتى أقلمت العربية الثقيلة بسرعة فائقة .

الشمس تبدد غيوم الحريف الرمادية في السماء ، وشعاعها يمسح كآبة الحقول
لتدب فيها البهجة والشباب ، وهي ظاهرة طبيعية يتفاهل بها الكثيرون من
العشاق ، ومع ذلك دهشت فرانسين للصمت الذي ساد، في بادئ الأمر ، ركاب
العربية . فقد كانت الآنسة دوفرنوي قد استعادت مزاجها الرائق وبدأت منخفضة
العينين ، ملوية الرأس ، يداها مندستان تحت جبة ، تشبه المعطف ، تلفها ، فان
رفعت عينها ، فلتشاهد مناظر الطبيعة المتوارية دون ان تبالي بشيء منها على
الرغم من ان بعضاً منها يثير الاعجاب . كانت في موقفها اللامبالي هذا أميل الى
التخنت منها الى البراءة التي أبت ان تضي عليها جماها لأنها حصرت كل تعابرها
في عواطف الحب . والشاب ، الذي كان تحت سلطان تلك الفرحة التي تواكب
المغامرات العاطفية عند بزوغها ، لم يكن يشغل فكره بتفسير التنافر البادي بين
دلح هذه الفتاة الفريدة وبين حميتها واندفاعها . كان يتأمل بلذة محياها ، الرائع
في سكينته كما كان رائعاً في هياجه . وما كان الفتى المعجب ليتساءل عن مدى
الصدق في تلك البراءة المصطنعة . فنحن نسيء الظن بالينبوع الذي نفترق منه
لذاتنا .

يصعب على المسافرة ان تتقي نظرات رفاق السفر . تلتصق بها أبصارهم كأنها
تبحث عن ملهاة تقاوم بها رتابة الطريق . لذا اغتنمها ، الضابط الشاب ، فرصة
لارضاء نهم حبه الوليد وراح ينعم النظر في الخطوط البريئة المتجلية في قسما
وجه الآنسة دوفرنوي التي بدت له كلوحة فنية . فتارة كان النور يبرز اللون

الوردي الشفاف على المنخرين وعلى القوس المزدوج الذي يصل الانف بالشفة العليا . وطوراً تعرض أشعة الشمس الحائلة تموجات اللون للنور فتظهرها لأولوية تحت العينين وحول الفم ، وردية على الخدين ، وكامدة قرب الصدغين وحول العنق . تأمل في تماكسات النور والظل التي يحدتها شعرها ذو الحلقات السوداء المتماوجة حول وجهها فتضفي عليه جمالاً سرعان ما يزول . فكل شيء في المرأة موقت سريع الزوال ، ان جمالها اليوم هو غير جمالها بالأمس ، ولربما كان ذلك من حسن حظها ! وكان في سن تدعو الرجل للاستمتاع حتى بتفاهات الحب ، فتوسم السعادة في رفة جفونها المتكررة ، وفي حراك صدرها الشهي اذ يموج بفعل تنفسها .

ويرمق ببصره الحاد من وقت لآخر التجاوب القائم بين تعبير العينين وبين اهتزازات الشفتين الخفية ، كان يرى في كل حركة من حركاتها روحاً ، وفي كل اشارة وجهاً جديداً لهذه الفتاة الخارقة ، اذا اختلجت قسماها تحت تأثير بعض الأفكار ، او اذا غشيت وجهها حمرة عابرة ، او اذا اشاعت الابتسامة فيه الحياة ، تراه يلتهب لذةً وهو يحاول خرق اسرار هذه المرأة الغامضة وكل شيء فيها كمين للروح وأحبولة للحواس . والصمت الذي لم يقم أي عقبة في سبيل تقامم القلبين ، أصبح الرابط المشترك بين الافكار ، فقد أدركت ماري دو فرنوي من تلاقي نظراتها بنظرات الشاب الغريب ان هذا الصمت سيعرضها للخطر . فراحت تطرح على السيدة دو غوا بعض الأسئلة التافهة التي تمهد للاحاديث الطويلة ، غير انها لم تستطع ألا ان تشرك ابنها ، قالت لها :

- كيف استطعت ، يا سيدتي ، ان تدخلني ابنك في البحرية ؟ ألا يسبب لك ذلك هموماً لا نهاية لها ؟

- لقد كتب على النساء ، اردت ان اقول على الامهات ، ان يعشن في قلق دائم على أعز كنوزهن ، يا آنسة .

- السيد يشبهك كثيراً .

- فعلاً يا آنسة . هذا الاقرار البريء الذي أيدت به مدام دو غوا سنها

المزعوم ، دفع الشاب الى الابتسام وأثار في صدر الام المرتجلة قهراً جديداً . فكان حقدها ينمو ويتعاضم لكل نظرة حب يلقيها ابنها على ماري . فكان الصمت والكلام يثيران فيها عاصفة مقنّعة بأعذب مظاهر اللطف .

قال الشاب مخاطباً الآنسة دو فرنوي :

- انت على خطأ يا آنسة ، ان البحارة ليسوا اكثر تعرضاً للخطر من سائر العسكريين . يجب على النساء ألا يكرهن رجال البحرية :

اننا نمتاز عن سائر قوات البر بالامانة لحبيباتنا ؟

- آه ! قالت الآنسة وهي تضحك : آه ! امانة اضطرارية .

فأجابتها مدام دو غوا بلهجة شبه قائمة :

- أمانة على كل حال .

وتطور الحديث وشمل مواضيع لا تهم سوى المسافرين الثلاثة ، ففي مثل هذه الظروف يعطي الاذكيا معانٍ جديدة للتقاهات . الا ان الموضوع الذي طاب للثلاثة ان يناقشوه حبياً اخفى رغائب وعواطف وآمالاً تقض المضاجع ، فقد فهمت مدام دو غوا من لباقة وخبث ماري التي ما فتئت واقفة لها بالمرصاد ، ان لا شيء سيمكنها من التغلب على عدوة مقتدرة يجماها وذكائها الا الوقية والغدر والخيانة .

لحقت عربية المسافرين الحاشية فخففت من سرعتها . ورأى البحري طريقاً منحدره فاقترح على الآنسة دو فرنوي بذوق وأدب القيام بنزهة . فرضيت الباريسية بالعرض الا انها سألت مدام دو غوا اذا كانت توافق على ذلك واذا كانت ترغب في النزهة . فقالت وهي تنزل من العربة :

- يا للفتاة اللعوب !

سارت ماري والشاب معاً ، انما منفصلين ، وكان البحري بشوق الى اسقاط قناع التحفظ الذي يحاط به ، وهو الذي لا يفغل عن شيء . وخيل اليه ان باستطاعته ذلك عن طريق مباسطة الفتاة في ظل الكياسة الفرنسية ، تلك الروح الحقيفة حيناً ، الجدية حيناً آخر ، روح الفروسية السائدة ، الساخرة احياناً التي امتاز

بها رجال مرموقون من الارستوقراطية المبعدة . غير ان الباريسية الضاحكة
مازحته بنجبت وقد اخذت عليه امانيه الطائشة واحلامه الخفيفة مؤثرةً عليها
ما كان يبرز في حديثه ، بالرغم من ارادته ، من افكار قوية وروح وثابة ، حتى
انتهى الى معرفة حقيقة ما يرضيها .

وتغير الحديث ، وقد حقق الغريب الآمال التي ابرزتها تعابير وجهه ، وكان
يعاني من وقت الى آخر صعوبات جديدة في استجلاء حقيقة تلك الحورية التي
ازداد تعلقه بها .

وبعد ان تأمل طويلاً جمالها وافتتن به ، انقاد الى روحها مدفوعاً بفضول
طاب لماري ان تثيره فيه . وبصورة لاشعورية اتخذ الحديث طابع الصداقة
الحميمة على الرغم من اللامبالاة التي اجتهدت الآنسة دو فرنوي ان تطبعه بها
دوت جدوى .

امامدام دو غوا ، فقد لحقت بها الا انها تقدها بما بسافة طويلة . كان هذان
المخلوقان الجميلان يعبثان بأديم الطريق ، يحدوهما شغف طفولي الى توحيد وقع
خطواتهما ، حبيبان تلفهما اشعاع واحدة ، يبدو انها من اشعاعات شمس الربيع
الدافئة ، ويتنشقان معاً روائح الخريف المثقلة برواسب نباتية كأنها غذاء ينقله
الهواء لكآبة الحب الوليد . وعلى الرغم من ان كليهما لم ير في اجتماعها المؤقت
سوى مغامرة عادية فالسواء والموقع والفصل وكل ما حولها نبه عواطفها الى
وجه الخطورة في مظهر حبها . فقد بدأ يمتدحان النهار ومحاسنه . ثم تحدثا عن
لقائهما الغريب وعن قرب قطع علاقة محببة ، وعن سهولة التعارف في السفر بين
اشخاص لا يكادون يتقابلون حتى يفترقوا . وعلى ذكر الملاحظة الاخيرة اغتنمها
الشاب فرصة سانحة لابتداء شيء من مكنونات صدره وحاول المجازفة ببعض
الاعترافات كرجل اعتاد مثل هذه الحالات فقال لها :

- هل لاحظت يا آنسة كيف تسير العواطف في الازمنة المضطربة . انها
قلما تتبع الطريق المشتركة في زمن الارهاب الذي نعيش فيه . أليس كل شيء
تحت رحمة المصادفات ؟ اننا اليوم نحب ونبغض لنظرة عابرة ، نجتمع لمدى

الحياة ، او نفترق ، بنفس السرعة التي يقبض بها ملاك الموت ارواح البشر ،
السرعة ، السرعة في كل شيء . وذلك شأن الامة ايضاً في حياتها الجديدة الصاخبة .
ففي باريس كما في ميدان القتال بات كل فرد ما تعنيه في الحقيقة مصافحة هذا
لذاك ، او ذاك لهذا .

فأجابته :

- انه الشعور بضرورة اغتراف الحياة على نطاق واسع ، لأن الحياة قصيرة .
وبعد ان رمت رفيقها الشاب بنظرة عبرت عن فحوى رحلتها القصيرة ،

قالت بنجبت :

- انك ولا شك خبير بشؤون الحياة بصفتك شاباً خريج معهد .

بعد فترة صمت قال الشاب :

- وما هو رأيك في ؟ قوله دون رياء . فأجابت ضاحكة :

- لا شك انك تريد بذلك ان تحصل على حق ابداء رأيك في ..؟ وبعد لحظة

سكوت اردفت قائلة :

- انك لا تجيب ، انتبه جيداً ، فالسكوت غالباً ما يكون جواباً . وقالت :

- أتراني لم ادرك كل ما تريد ان تقوله لي ؟ لقد تكلمت كثيراً .

- آه ! لو اننا نتفاهم لكنت احصل على اكثر مما اجرؤ ان اتوقعه .

واسترسلت في الابتسام بلطف وايناس الى حد بدت كأنها قبلت المنازلة
الحبية التي يطيب لكل شاب ان يهدد بها المرأة . وقد عرفنا بالجد والمزاح انه من
المستحيل ان يكون احدهما للآخر غير ما هما عليه الآن . فبامكان الشاب ان
يسترسل في حب بلا مستقبل ، وبامكان ماري ان تضحك على نفسها . واذ رفعا
الحاجز الوهمي بينهما ظهرا كأنهما مستعجلان للاستفادة من الحرية الخطرة التي
اشرطاهما ، فقد عثرت ماري فجأة بحجر ، فقال لها الشاب :

- خذي بذراعي .

- هذا ما يلزم ، يا لي من مغفلة ! ما أشد ما يكون افتخارك لو رفضت ، ألا

ابدو ، اذ ذاك ، انني اخافك ؟

فاجابها وهو يضغط على ذراعها ليشعرها بدقات قلبه :

- آه ! يا آنسة سأكون جد فخور بهذا الانعام .

- حسناً ، ان تساهلي ينتشلك من اوهامك .

- وتريدن ان تدافعي عني ضد خطر التأثيرات التي تسببها لي ؟

- ارجوك ان تكفف عن تطويقي بأراء رخيصة تشف عن الحرد ، وبألغاز

صبيانية من نسج الشارع ، انا لا احب ان اجد في رجل من مستواك عقلية البلهاء .

ارأيت ؟ اننا تحت سماء جميلة ، وفي قلب البرية ، وكل شيء امامنا عظيم . تريد

ان تقول لي انني جميلة اليس كذلك ؟ نظراتك تنبىء بذلك . وانا اعرف انني

جميلة ، الا انني لست المرأة التي تؤخذ بالمدائح ، ام انك تريد ان تحدثني عن عواطفك ؟

أو تظنني من البساطة بحيث اصدق لياقات طارئة من شأنها ان تسيطر على

حياة بكاملها بمجرد ذكرى صبحية عابرة ؟

- كلا ، ليست ذكرى صبحية . بل ذكرى امرأة جميلة بدت كريمة .

- انك نسيت اموراً خطيرة اخرى : قل امرأة مجهولة كل شيء فيها يبدو

غريباً ، الاسم والصفة والوضع ، حرة التفكير . حرة التصرف .

- انت لست غريبة في نظري . لقد عرفتك ولا اريد مزيداً على مزاياك الا

القليل من الثقة في الحب الذي اوحيته منذ البداية .

- آه ايها الولد في السابعة عشرة من عمرك ! اتكلم عن الحب ! حسناً . ليكون

هنا سر حديث بين شخصين . انك لن تجد في ، لا التواضع المصطنع ولا الخسة

والصغار . مثل هذه الكلمة استطيع ان اسمعها بلا خجل ولقد سمعتها عدة

مرات من اللسان وليس من القلب ! فلم تعد تعني شيئاً بالنسبة الي ، سمعتها

تكراراً في المسرح ، وفي الكتب ، وبين الناس ، وفي كل مكان ، الا انني لم

اصادف شيئاً من مثل هذه العاطفة الرائعة .

- وهل طلبتها ؟

- اجل .

لفظت كلمة اجل بمزيد من اللامبالاة دهش له الشاب ، فهدق الى ماري

طويلاً كأنه غير رأيه فجأة بخلقها وبوضعها الحقيقي .

فقال بانفعال لم يحسن اخفاه :

- يا آنسة ، أنت فتاة ام امرأة ! ملاك ام شيطان !

- هذا وذاك ، ألا يوجد شيء من الشيطان وشيء من الملاك في بنت لم 'تحب' ،

ولم تحب ، وقد لا تعرف الحب ابداً ؟

- افأنت سعيدة هكذا !

قال ذلك بلهجة من يحس انه استعاد حرية فكره وحركاته ، فبات اقل

اهتماماً بحررتة . فأجابته على سؤاله قائلة :

- سعيدة ؟ كلا ، لو فكرت بأنني وحيدة مقيدة بشروط اجتماعية تجعلني

اصطناعية بضرورة الحال فقد احسد الرجل على امتيازاته ، ولكن ، اذا فكرت

في جميع الوسائل التي اسبغتها علينا الطبيعة لتطويقكم انتم الرجال ، لاصطيادكم

في شباك غير مرئية بقوة لا يمكن لأي منكم ان يقاومها فاني عندئذ اضحك من

الدور الذي امثله في الحياة الدنيا ، وبغثة يبدو لي الرجل صغيراً وأشعر بأنني

احترقه اذا بدا فريسة مفاتن عادية . الحظ نارة طغياننا فيعجبني ثم يبدو لي

مروعاً فأرفضه ، حيناً احس في نفسي الرغبة في الاخلاص الذي يضي على المرأة

جمالاً اصيلاً ، ثم لا ألبث ان اعاني رغبة ملحة في السيطرة التي تبتلعني ، لعلها

المركة الطبيعية بين الخير والشر التي يعيشها كل مخلوق على وجه الارض ، ملاك

وشيطان ، انت قلت ، ولكنني ما بقيت الى اليوم حتى عرفت طبعي المزدوجة ،

إلا اننا ، نحن النساء ، ندرك احتياجاتنا اكثر منكم معشر الرجال . أليس فينا

غريزة تجعلنا نحسن في كل شيء ما من المحال ادراكه ؟

واضافت قائلة وهي تنظر الى السماء وتصعد زفرة :

- ولكن الذي يكبرنا في نظركم ...

- أننا ...

فأجابت : اننا جميعاً نكافح مصيراً لم يكتمل .

- لماذا اذن نفترق هذا المساء يا آنسة ؟

قالت وهي تبسم للنظرة الأليمة التي رماها بها الشاب :

- آه ! لنعد الى العربية فالهواء الطلق لا يواتيك .
واستدارت ماري فجأة فلحق بها الشاب وضغط ذراعها بطريقة خالية من
الاحترام الا انها عبرت عن رغائب كمينه وعن اعجاب في نفس الوقت . وحشت
خطاها ، فأدرك الشاب انها تريد ان تهرب من مصارحة قد تكون مزعجة . فما
زاده ذلك الا اضطراراً . جازف بكل شيء لينتزع منها المنحة الاولى وقال لها
وهو يرمقها بنعومة : اتريدن ان اطعمك على سر .

- اوه ! قلبه بسرعة اذا كان يتعلق بك .
- انا لست في خدمة الجمهورية ، فحينما تذهبين اذهب .
لدى سماعها هذه الكلمة ارتجفت ماري بعنف . سحبت ذراعها منه .
وغطت وجهها بيديها لتخفي ما انتابه من الحمرة أو الأصفرار . الا انها عادت
فكشفت عن وجهها وقالت بصوت متأثر :

- على ذلك فقد ابتدأت من حيث كان يمكن ان تنتهي .. لقد خدعتني ؟
قال : أجل .
على هذا الجواب ادارت ظهرها للعربية التي كانا قد اتجها نحوها ، واخذت
تركض او تكاد . فقال لها :
- الهواء الطلق لم يواتك ؟
- آه ! لقد انقلب اتجاهه .

قالت ذلك بصوت عميق وهي تتابع سيرها فريسة افكار عاصفة .
- اتسكتين ؟ سألهما الغريب وقد امتلأ قلبه بشعور ناعم كذلك الشعور الذي
يبعثه ترقب المسرات :

قالت باقتضاب :
- آه ! لقد بدأت المأساة بسرعة .
- اي مأساة تعنين ؟

توقفت عن السير ، ورمقت الشاب بمزيج من الخوف والفضول ، ثم اخفت

تحت ستار كتم من الهدوء والمشاعر التي كانت تهزها . وبرهنت على انها فتاة
سبرت غور الحياة بقولها :

– من انت ؟ .. ولكنني عرفتك ، لقد ارتبت بك من النظرة الاولى ، انت
الزعيم الملكي الملقب بـ « الفار » . لقد كان اسقف اوتان السابق على حق عندما
قال بوجوب الايمان بهواجس القلب التي تنبىء بما سيقع من المصائب .

– أي مصلحة لك بالتعرف الى هذا الشاب ؟ أي مصلحة له في التخفي عني
ما دمت انقذت حياته ؟ كذلك كنت أتساءل في قلبي .

واخذت تفتعل الضحك . ثم قالت : لقد أحسنت صنماً بمنعك من مصارحتي
بجبك . والآن فاعلم يا سيدي أنني اكرهك ، انا جمهورية وانت ملكي . كان علي
ان اسلمك لو لم اقطع لك عهداً ولو لم انقذك مرة ، ولو ... وامسكت عن
الكلام .. فأثار قلبها العنيف والحصومة التي لم تهتم باخفائها قلق الرجل . فحاول
ان يرافقها لكن دون جدوى .

قالت : فلنفترق في الحال ، تلك ارادتي ، الوداع .

قالت ذلك وارتدت الى الورا بسرعة . خطت بضع خطوات ثم عادت
لتقول له : كلا ، لي مصلحة كبرى في ان اعرف من انت . لا تخف عني شيئاً .
قل الحقيقة بعينها ، من انت ؟ انك لست أكثر من تلميذ مدرسة ولم تتجاوز
السابعة عشرة من عمرك ...

– انا بحري على استعداد للتخلي عن البحر لأتبعك حيث يحلو لحبالك ان
يذهب بي .

ليت شعري لم تخلطين شؤون القلب ، حيث بدأنا بالتفاهم والتقارب ، بشؤون
الحياة العويصة . وان كان في وجودي سر غامض يثير اهتمامك فما اسعدني بذلك ،
وما اشد رغبتني في الاحتفاظ بما يهيج فضولك .. قالت بصوت عميق :

– قد كان بإمكان روحينا ان تتفاهما يا سيدي . لكن لا يحق لي ان اطلب
ثقتك . انك لن تعرف قط مدى واجباتك نحوي ولذلك فاني الزم الصمت .

وتقدما بضع خطوات مطرقين الى ان قال الشاب :

- لكم تهمة حياتي !

- سيدي ارجوك ، قل اسمك والافاصمت .

واضافت وهي ترفع كتفها : انك ما زلت ولدأ ، وانك لتثير اشفاقي .
لقد جعله اصرار المسافرة على معرفة سره يتردد ما بين رغباته والاستمرار
في التكم. فللمرأة المشتهاة ، حين يدب فيها ديب الكيد والأسى ، جاذبية ساحرة :
انها جبارة في خضوعها كما هي في تمردها. تصيب الرجل في الف وتر في صميمه فتنفذ
اليه وتخضعه ، فهل كان ذلك بالنسبة للآنسة دو فرنوي لوناً جديداً من الوان
دلها الفاتن ! لقد وجد الرجل الغريب ، على الرغم من غرامه المتأجج ،
القدرة على تحدي امرأة شاءت ان تنتزع منه ، بغف ، سرأ يتوقف عليه امر
حياته ومماته . وقال وهي تترك له يدها بصورة لاشعورية :

- لماذا هدم تهوري حلاوة هذا النهار الذي بنيت عليه مستقبلي ؟

واذ بدت الآنسة دو فرنوي متألمة قال لها :

- باي شيء احزنتك وكيف يمكنني ان اخفف عنك ؟

- قل لي ما اسمك ؟

لزم الصمت بدوره . وفجأة وقفت الآنسة دو فرنوي كأنها اتخذت قراراً
خطيراً وقالت :

- سيدي المريكز دو مونتوران ، مها يكلفني الأمر ، فاني سعيدة بالخدمة
التي أديتها لك ، هنا سنفتق ، ان العربية والحرس ضروريان لسلامتك بحيث لا
يمكنك ان ترفض أياً منها ، فلا تخش شيئاً من الجمهوريين ، جميع هؤلاء الجنود
ذوو نخوة وشرف . وسأعطي الضابط او امر لينفذها في الحال بكل امانة ، اما
انا فاني استطيع ان اصل الى ألسون مشياً على القدمين مع وصيقي بحراسة
بعض الجنود . اصغ الي جيداً فالمسألة تتعلق بحياتك ، ان قابلت الشاب المخنث
الكريه الذي رأيته في النزول قبل ان تبلغ شاطئ الامان فاسرع بالهرب وإلا
فسيملك في الحال . اما من جهتي انا ... وتوقفت عن الكلام لحظة ثم تابعت
كلامها : اما من جهتي ، فاني ، سأعود بكبرياء لألقي بنفسي في تعاسات الحياة .

قالت ذلك بصوت خافت وهي تغالب دموعها .

– الوداع يا سيدي ، ارجوك السعادة في حياتك ، الوداع ...

وأشارت الى ميرل وكان يقترب من قمة الهضبة . ولم يكن الشاب يتوقع خاتمة كهذه الخاطفة فاستوقفها بلهجة تصنع فيها اليأس العميق . وتلك النزوة العجيبة التي بدرت من فتاة كان يستعذب الموت في سبيلها حملته على ابتكار حيلة خرقاء يخفي بها اسمه ويرضيها بفضول الأنسة دوفرنوي في الوقت ذاته فقال:

– كدت تعرفين حقيقتي ، فأنا مهاجر محكوم بالموت ، اسمي الفيكونت دو بوفان ، قادي حب وطني الى فرنسا لأكون الى جانب شقيقي على امل ان يُشطب اسمي من اللائحة بواسطة نفوذ مدام دو بوهارني زوجة القنصل الاول ، فان خاب رجائي ، فأموت على تربة بلادي مناضلاً الى جانب صديقي مونتوران، الذي بعث لي يجواز سفر وانا ذاهب سراً الى بريتانيا لأرى هل بقي لي فيها شيء من أملاكي .

فما كان النبيل يتكلم ، كانت الأنسة دوفرنوي تتفحصه بنظرة ثاقبة . حاولت ان تشكك بصحة اقواله ، إلا انها وهي السريعة التصديق ، استعادت هدوءها وهتفت : احقاً ما قلته يا سيدي ؟

– بكل تأكيد .

تفست الفتاة الصعداء . وكبت عادت اليه الحياة هتفت :

– آه ! اني الآن سعيدة .

– ألهذا الحد تكرهين صديقي البائس مونتوران ؟

– كلا ، انك لا تفهمي . لم أشأ ان تكون انت عرضة للأخطار التي تهدده والتي سأحاول ان ادفعها عنه طالما انه صديقك .

– ومن قال لك ان مونتوران في خطر !

– ما كنت لأعرف ذلك لو لم أكن قادمة من باريس حيث لا قضية سوى قضيته . اعتقد ان قائد النسون أخبرنا ما فيه الكفاية عنه .

– على ذلك أسألك كيف يمكنك ان تنقذه من الخطر ؟

- وان رفضت الاجابة على هذا السؤال ؟ .. ثم بأي حق تريد ان تقف على
أسراري ؟

- بالحق الذي يملكه رجل يحبك .

- منذ متى؟ .. كلا يا سيدي انك لا تحبني. انك تجذبني في ملهارة عابرة، وذلك
حسبك .. ألم اكشفك منذ رأيتك ؟ من ذا الذي خبر حياة المجتمع ثم ينخدع
وهو يصفي الى تلميذ يستعمل تعابير مختارة ويخفي، على اسوأ ما يكون التكلف،
كما فعلت انت ، تصرفات السادة العظام تحت قشور الجمهوريين ، لكن ذرور
التأنق لا يزال عالقاً في شعرك ، ولا يزال يفوح منك عطر النبلاء وهو اول ما
تشمه سيدة المجتمع ! إن ضابطاً جمهورياً حقيقياً تخرج حديثاً من المدرسة لا يعتبر
نفسه في امان وهو بقربي ولا يمكن ان يعتبرني محتالة حسناء . اسمح لي يا سيد
بوفان ان اقدم لك بهذه المناسبة درساً في المرأة، أنت صغير السن الى حد ان تجهل
ان اصعب مخلوقة، من بنات جنسنا، للاخضاع هي ذات السعر المحدد بالارقام
والتي باقت تضجرها الملذات !..

مثل هذه المرأة لا تستجيب ، على ما قيل لي ، الا للاغراءات الجسيمة ، ولا
تتبع الا نزواتها . فاذا زعم احدهم انها تهواه لذاته فذلك من حمق الغرور لدى
الرجال . ولندع جانباً هذه الطبقة من النساء التي تكرمت فتخيلتني منها ..
عليك ان تفهم جيداً أن شابة نبيلة، جميلة وذكية (انك تطرني باكثر من ذلك)
لا تباع ولا يمكن الحصول عليها الا بطريقة واحدة ، هي ان تكون محبوبة ،
اتسمعي ؟ ومتى كانت محبوبة وطاب لها ان ترتكب حماقة فيجب نبرها بشيء
من التعظيم اعذرني لهذه « الفخفة » المنطقية النادرة عند بنات جنسنا ، والتي
هي من مستواك ومستواي . انا لا اريد ان ننخدع بميزاتنا . ولا اريد ان يدخل
في روعك ان في وسع الأنسة دو فرنوي ، سواءاً كانت ملاكاً ام شيطاناً بنتاً
أم امرأة ، ان تستسلم بالفضل المبتذل النافه .

قال المركيز وقد اشتدت دهشته وان خفيت ، وتحول فجأة الى رجل مجتمع

من الطبقة العالية :

- ارجوك يا آنسة ان تصدقي انني اقبلك كشخصية نبيلة ذات قلب كبير مليء
بالعواطف السامية ، او .. كنبت طيبة ، كما تشائين .

- لا اطلب منك كل ذلك يا سيدي . دعني احتفظ بصفتي المتكررة فان
قناعي اكثر احكاماً من قناعك . وهكذا اريده لا لشيء الا لمعرفة الناس
الذين يحدوثوني عن الحب أهم مخلصون ام لا .. وبناءً عليه فلا تخاطر بنفسك
بحفة وانت بقربي .

ثم قالت له وهي تضغط على ذراعه بقوة :

- لو انك تستطيع ان تثبت لي حباً حقيقياً لما وجدت قوة بشرية تفصلني
عنك . أجل ، بودي ان ارتبط برجل ذي كيان عظيم ، بودي ان اتزوج الطموح
والأفكار الجميلة . ان القلوب النبيلة ليست خائنة والصبر من شيمها . بذلك ادرك
الحب والسعادة بل سأكون دائماً على استعداد لأن اجعل من جسدي درجة يرتفع
عليها الرجل الذي احبه ، لأن اضحي بنفسي من أجله واتحمل كل شيء فيه ،
حتى ولو فتر حبه لي . لم اجرؤ قط في حياتي ان أؤمن قلباً آخر لا على تمنياتي
ولا على وثبات الشوق الى العظمة التي تقض مضجعي . ولكن ، بإمكانني ان
اقول لك شيئاً ما دمنا سنفترق حالما تصبح في أمان .

- نفترق ؟ كلا ، ابدأ ، قالها وهو مبهور النفس باصداء هذه الروح الجبارة
التي بدت كأنها تغالب عاملاً رهيباً في داخلها .

واردفت الآنسة دو فرنوي قائلة بلمهجة مزدرية : أنت حر ؟

- آه ! اجل الا من الحكم بالاعدام .

عندئذ قالت له بصوت مليء بالعواطف المريرة :

- لو لم يكن كل هذا حملاً من الاحلام فاي حياة رائعة انت تحيا . ان
كنت قد تفوهت ببعض المحامات المجنونة فعلينا ان نتجنب ارتكاب مثلاتها .
عندما افكر بما ينبغي ان تكون لتقدرني حق قدرتي ، فاني ارتاب
بكل شيء .

- اما انا فلن ارتاب بشيء ان شئت ان تكووني لي ...

- صه ! هتفت وهي تسمع هذه الجملة التي تفوه بها باصدق ما في هواه من حمية وازافت :

- الهواء الطلق لا يواتينا . فلنلحق بمراقفينا .

لم تلبث العربية ان لحقت بها فعادا الى مقعديها واستفرقا لبعض الوقت في صمت مطبق ، ولو ان احدهما وجيد موضوعاً للحديث فان أعينها لم تعد تخشى الالتقاء . كل منها وجد له مصلحة في التحفظ واخفاء السر الخطير . إلا انها شعرا بشيء يشدهما الى بعضها برغبة واحدة ما فتئت منذ لقاؤها تحرك مكان الحب فيها . اذ ان كلا منها اعترف للآخر بصفات ترفع من شأن الرغبات التي تعللها بها سواء في الخصومة او الزواج . لعلها ، وكل منها يعيش حياة المغامرة ، قد توصلنا الى هذا الوضع العقلاني الفريد ، اما تضجراً او تحدياً للمصير ، فامتنعنا عن التجاذبات الجدية واستسلمنا الى مصادفات الحظ باتباعها خطة بلا عاقبة لأنها يتوقعان انفصاماً لا بد منه . او ليس للطبيعة العقلانية كما للطبيعة الجسدية مهاويها وأغوارها حيث يطيب للطبائع الحادة ان تغوص بمجازفة بالحياة كالمغامر الذي يجب ان يلعب على ثروته ! وبشكل ما ، اكتشف النبيل والآنسة دوفرنوي هذه الامور التي أصبحت مشتركة والتي نتجت عن اجتماعها ، وعلى ذلك تقداً خطوة واسعة في علاقتها اذ ان الميل الروحي يتبع ميل الحواس . ويقدر ما يشعران به من الجاذبية المشؤومة التي تشد احدهما نحو الآخر ، كانا يشعران بالحاجة الى درس بعضها ، لا لشيء إلا لرفع مبلغ متعاتها ومسررتها في المستقبل . وقد تساءل الشاب ، وهو مندهش بعمق أفكار هذه الفتاة الغربية ، كيف يمكنها ان توفق بين ذلك المقدار من المعارف وبين نضارة شبابها الريان . ولقد خيل اليه انه اكتشف في ذاته رغبة قصوى بالتحلي بمظاهر العفاف ، بل بأقصى ما يكون من العفاف الذي تحاول ماري ان تضيفه على تصرفاتها . اهتمها بالمداخلة وثار على حبه ولم يعد يرى في هذه المرأة المجهولة سوى ممثلة ماهرة ، وكان على حق . فالآنسة دوفرنوي ، كجميع بنات المجتمع ، تظاهرت بالمزيد من التواضع الى حد الشعور بحرارة الايمان ، لقد حرصت ان تجعل احتشامها طبيعياً الى حد

بعيد . فتحت هذا المظهر تخفي النساء عموماً رغباتهن الحارة . كل امرأة تريد ان تتقدم من الحب وهي عذراء طاهرة ، فان لم تكن كذلك ففي تخفيها بالتظاهر بها تكريم للحب ، بل تقديس له . تلك انعكاسات مرت سريعاً في خاطر النبيل فسر بها ، ومثل هذا الامتحان لا بد ان يكون خطوة كبيرة نحو الهدف لكليهما . وقد بلغ الحب المرحلة التي يجد فيها الرجال في اخطاء الحبيبات اسباباً لاغراقهن بالمزيد من الهيام . ولقد طال تفكير الآنسة دوفرونوي . ربما قفز بها خيالها الى ابعد مراحل المستقبل . وفيما كان الشاب مستمسكاً لواحد من الوف العوامل النفسية التي يجب ان يعانها في حياته كرجل متزوج ، كانت الفتاة ترى الحياة كلها في ارضاء الغريب الذي سيملاً حياتها بالسعادة والعواطف النبيلة .

لقد حاولت ، وهي سعيدة في تصوراتها ، مأخوذة بالأوهام أكثر منها بالحقيقة ، وبالمستقبل أكثر منها بالحاضر . حاولت ان ترد الى الشاب لتبسط سيطرتها على قلبه الفتي متصرفه ، بالفطرة ، تصرف جميع النساء ، وبعد ان قررت ان تمنحه نفسها كلياً ، رغبت في ان تقاضي نفسها بالتفصيل ، تمت لو تستطيع ان تستعيد من الماضي جميع اعمالها واقوالها ونظراتها لتضعها جميعاً في كفة تتساوى مع كرامتها كامرأة محبوبة ، هذا ، بينا عيناها ما برحتا تعبران ، من وقت الى آخر ، عن الرعب الشديد حين يخطر في بالها ما أبدته من القساوة حيال الشاب أثناء الحديث معه . ولكنها لم تشك وهي تتأمل وجهه المعبر عن القوة ، في ان مخلوقاً مقتدرأ مثله لا بد ان يكون كريم النفس ، وهنأت نفسها بهذا « النصيب » الذي وجدته افضل من نصيب الكثيرات من الفتيات ، فقد وجدت فيه الرجل النبيل السامي ، رجلاً محكوماً بالاعدام جاء يجازف برأسه ليحارب الجمهورية .

بمجرد تفكيرها بانها احتلت قلب الشاب بدون منازع جعلها ترى كل شيء قد تبدل ففي خلال خمس ساعات رأت عالم الموت حين اجتهدت في مضايقة النبيل ، وعالم الحياة حين خيل اليها انها ، بنظرة واحدة ، تستطيع ان تؤثر فيه فتنال ما تريده : ضحكات قلبية ، وحركات ممرحة ، تخفي وراءها هوى

عظيماً ، اشبه شيء بالحنة التي تدم المرء وعلى وجهها قناع باسم .
وفي استكانة الروح وطمأنينتها تحول كل شيء خارجي الى عدم في نظر
الآنسة دوفرنوي ، فقد مرت العربية في قرى وأودية وجبال دون ان ينطبع
اي منظر منها في ذاكرتها . ووصلت الى مايان . وتغير رجال الحرس ، وكلها
ميرل فجاوبته ، ثم اجتازوا مدينة بكاملها ونخطوها الى الطريق ، غير ان
الوجوه والمنازل والشوارع والمناظر والرجال وكل شيء آخر مرت امامها
مهزوزة كما في الحلم .

هبط الليل وماري سائحة تحت سماء من الماس تغمرها اشعاع لطيفة من
النور ، وتسمر في طريقها غير منتبهة الى تغير حالة السماء . وما علمت ما هي
مايان ، ولا ما هي فوجير ، ولا الى اين هي ذاهبة . اما مسألة امكانية افتراقها
بعد ساعات قليلة عن الرجل الذي اختارته ، والذي اعتقدت انه اختارها فلم
تكن واردة في ذهنها ، فالحب هو العاطفة الوحيدة التي لا تحتل ماضياً ولا
مستقبلاً . وان خانها منطق النطق ، احياناً ، فانها تنطق بمبارات مجردة من كل
معنى على انها تقع على قلب حبيبها كوعود وعهود . لقد كان هذا الحب الصاعد
يخطو خطوات مروعة في نظر بطليه . وكانت فرانسين تعرف ماري اكثر مما
تعرف هذه الأخيرة الشاب المجهول . وكانت الاثنتان تتوقعان بصمت بعض
التفكك في عرى تلك العلاقة بدافع من خبرة الماضي .

وفي الواقع ، فانه ما كاد الوقت يمتد قليلاً حتى شهدتا نهاية هذه المأساة التي
كانت الآنسة دوفرنوي قد أسمتها وهي آسفة ، دون ان تدري ، الفاجعة .

ما كاد المسافرون الاربعة يقطعون احدي ضواحي مايان ، حتى سمعوا وقع
حوافر حصان عليه رجل يتجه نحوهم بأقصى السرعة ، واذ حاذي العربية المنحني
ليطلع الى الآنسة دوفرنوي التي عرفت أنه كورنتان . ذلك الشخص المشؤوم
الذي رماها بنظرة جافة أرقفها باشارة خفية فيها من رفع الكلفة ما يعد اذلالاً
لها وتحقيراً . ومضى في سبيله ، فامتعض رفيفها لهذا التطرف الذي لم يخف على
امه المزعومة ، اما ماري فقد جذبته اليها بلطف وبدت كأنها تريد اللجوء الى
قلبه ، كأخر ملجأ لها على الارض . عندئذ التمع جبين الشاب وهو يلتمس تلك

العاطفة التي أشعرته بها حركة حبيبته بمدى تعلقها به . وسادت موجة من الرعب قضت على المغازلة . وظهر الحب ، لبعض الوقت ، مجرداً من كل قناع . فلزما الصمت ليستمتعا بملاوة هذه الفترة ، لكن ، مدام دو غوا كانت بينها ويا للأسف ، وكانت ، تحصي أنفاسها وتقيس حياتها ، كالبخيل الذي يقيم وليمة .
وفي غمرة من السعادة وصل الحبيبان ، دون ان يحسا بالطريق التي قطعها ، الى نقطة من الدرب بأسفل وادي عرنه الذي يشكل احد الاحواض الثلاثة التي جرت فيها حوادث هذه القصة .

في هذا المكان أشارت فرانسين الى وجوه غريبة تتحرك كالظلال خلال الاشجار وفي الغياض التي تحيط بالحقول . وحين وصلت العربة الى اتجاه هذه الظلال دوت الطلقات دفعة واحدة وأزّ الرصاص فوق الرؤوس معلناً للمسافرين ان ما رأوه من ظلال تتحرك هو شيء واقعي ، وان الحرس قد وقعوا في كمين .
حيال اطلاق النار ندم الضابط ميرل اشد الندم لاشتراكه في الخطأ الذي وقعت فيه الآنسة دوفرنونوي اذ لم تدعه يأخذ معه أكثر من ستين رجلاً ثقةً منها بسلامة الرحلة القصيرة تحت جناح الليل ، فما كان منه إلا ان قسم الفرقة الى فصيلتين لحراسة جانبي الطريق . واتجه كل من الضابطين ، ميرل وجيرار ، بسرعة الى الحقول والغياض محاولين صد المهاجمين قبل احصائهم ، واخذ الزرق يقاتلون عن اليمين واليسار تلك السياجات الكثيفة ببسالة خالية من الحذر وهم يصبون على الناعقين نيران بنادقهم المصوّبة على الاسيجة التي انطلقت نيران الاعداء من خلالها . وكان اول ما فعلته الآنسة ان قفزت خارج العربة وركضت الى الورا بعيداً عن ميدان المعركة ، إلا انها خجلت من خوفها وتحملت بالروح التي ترفعها في عيني المخلوق الذي أحبته ، فوقفت مكانها محاولة ان تراقب سير المعركة بهدوء .
لحق بها المهاجر ، فأخذ بيدها ، ووضعها على قلبه فقالت له باسمته : لشد ما خفت ، اما الآن ..

وقبل ان تنهي كلمتها صرخت الوصيفة فرانسين :

– انتبهي يا ماري !

وقبل ان تتمكن الوصيفة من النزول من العربة ، شعرت بيد قوية توقفها .
وما أحست بضخامة هذه اليد حتى أطلقت صرخة عنيفة . ولكنها سرعان ما
لزمت الصمت حين تعرفت الى وجه مارش آتير . وفي هذه اللحظة كان الشاب
الغريب يقول للآنسة دو فرنوي : - بفضل ذعرك اكتشفت اعذب اسرار القلب ،
وبفضل فرانسين عرفت انك تحملين اسم ماري اللطيف ، الاسم الذي لفظته في
جميع أشجاني واضطراباتي ، ماري ، الاسم الذي سألفظه من الآن وصاعداً في
افراحي ومسراتي ، الاسم الذي ان لفظته الآن فاني ارتكبت خطيئة لأنني أخط
بين الدين والحب ، ولكن ، ترى هل من الجريمة في شيء ان يصلي المرء ويحب
في الوقت نفسه ؟

وفيا كانا يتبادلان النظر بصمت وقد عقل الحب لسانيهما ، كان مارش آتير
يقول لفرانسين بشراسة وفي صوته الاجش تعبير قتال من اللوم ، متوخياً ايقاع
الفتاة القروية في حيرة وذهول : لا خطر عليكم انتم الاربعة .

لأول مرة لحظت الفتاة المسكينة وحشية في نظرات مارش آتير . كان هذا
البريتوني المتوحش يحمل قلنسوته بيد وبندقيته الثقيلة باليد الاخرى . وكان
ملفوفاً كالمغريت وضوء القمر يضي عليه أشكالا هي اقرب الى الجان منها الى
مخلوق بشري . وكان في ظهوره الفجائي وفي لهجته الوحشية شيء من سرعة
الاشباح . وبغثة ، التفت نحو مدام دو غوا ، فتبادل معها بعض كلمات خاطفة ، لم
تفهمها فرانسين لأنها كانت قد نسيت اللهجة البريتونية انما لاحظت انها تعطي مارش
آتير اوامر متعددة ختمتها بايماة نحو الحبيبين . وقبل ان يعلن خضوعه للاوامر ،
ألقى نظرة اخيرة على فرانسين ، نظرة أسمى عميق كأنه يريد ان يقول لها شيئاً
ولا يستطيع ، وامام تقطيب جبينه الحشن وتقارب حاجبيه تساءلت فرانسين :
- أترأه يقاوم الامر المتكرر بقتل الآنسة دو فرنوي؟ . وبدأ في تقطيعه اشد قبلاً
في نظر مدام دو غوا ، بينما استلطفت فرانسين بريق عينيه وأدركت من نظرتها ان
بامكانها ان تضع صلابة هذا الرجل المتوحش تحت ارادتها وان تبقى ، بعد الله ،
هي المتحكمة بقلبه القاسي .

وعادت مدام دو غوا الى الحبيبين لتقطع حديثها اللطيف بمناداتها لماري واجتذابها بهلع كأن خطراً ما يتهددها ، ولكنها في الحقيقة لم تقصد من ذلك سوى افساح المجال لاحد اعضاء اللجنة الملكية في ألسنون ليتكلم مع المهاجر على حدة وهذا ما قاله :

« اعتق نفسك من الفتاة التي قابلتها في فندق « المغاربة الثلاثة » .

اسرّ الشفاليه في أذن الشاب هذه الجملة واختفى مع جواده البريتوني في الآجام من حيث أتى . وفي هذه اللحظة جرى تبادل اطلاق النار بكثير من الشدة ولكن دون ان ينال احد الطرفين من الآخر فقال « مفتاح القلوب » للضابط جيرار :

— سيدي الضابط الا ترى انه هجوم مزور يقصد من ورائه خطف المسافرين في العربة وفرض فدية ماليه لاعادتهم ؟
— اتبعني .

قال جيرار ذلك وانطلق في الشارع لمواصلة المعركة ، الا ان رصاص الناعقين اخذ يخف شيئاً فشيئاً . اذ انهم لم يكونوا يقصدون من المناوشة سوى تأمين الاتصال برئيسهم بواسطة ذلك الفارس ، واذا رأهم ميرل يفرون ، فرادى ، عبر السياجات ، لم يرفائدة من مطاردتهم ومنازلتهم في معركة خطيرة لا طائل تحتها . وعلى ذلك اصدر جيرار امره للحرس باستعادة مركزه على الطريق ومتابعة السير . ولما كان الشاب النبيل ما برح مصعوقاً مما سمعه وشاهده فقد عرض الملازم ميرل يده للآنسة دو فرنوي ليساعدها في الصعود الى العربة . الا انها رفضت تأدب الضابط الجمهوري وصعدت دون مساعدته . التفتت نحو حبيبها فرأته جامداً كالاموات وقد هالها التغير الذي طرأ عليه اثر الكلمة السرية التي سمعها من الفارس . فقد عاد الى العربة ببطء وهياته تكشف عن اعرق شعور الاشمزاز ، وما كاد يقترب حتى اقبلت عليه مدام دو غوا واسرت في اذنه قائلة وهي تقوده الى العربة :

— كنتُ على حق حين ايقنت اننا بين يدي مخلوقة استخدمها الاعداء للمتاجرة برأسك . اليس كذلك ؟ لكن ، بما انها حمقاء الى حد التعلق بك بدلاً من ان

تقوم بمهبتها ، فلا تتصرف انت تصرف الأولاد ، بل تظاهر بانك تجبها الى ان تصل الى فيفتيير وهناك !.. واذا رأت الشاب ساهيا في مكانه ، لا يحير جوابا ، لزمتم الصمت وفي خاطرها يحول هذا السؤال :

– اتراه افقتن بها ؟

في العربة التي انطلقت على الطريق بسرعة تلفتت ماري حولها فرأت كل شيء قد تغير . احست بدبيب الموت يسري في حبها . اما فرانسين فقد فهمت من نظرة مارش آتير اليها ان مصير الآنسة دو فرنوي هو بين يدي رجل آخر غيره ، ولذلك امتقع وجهها ولم تستطع امسك دموعها حين تطلعت سيدتها اليها . كما ان السيدة المجهولة لم تحسن اخفاء حقدتها تحت ابتسامات مفتعلة . وطراً تغير مفاجيء على عطفها على الآنسة دو فرنوي التي رأت في هياتها ، ولحظت في صوتها ، ما يثير المخاوف فارتجفت تلقائياً وهي تتساءل :

– ترى لماذا ارتجفت ؟ انها امه .

ولكنها ارتجفت بكل جوارحها بغتة حين خطر في بالها ان تتساءل :

– اتراما امه ؟ ولقد اتضح لها الهوة المطلة في النظرة الأخيرة التي القتها على الشاب فقالت في نفسها بحسرة : هذه المرأة تحبه . ولكن ، لماذا تغمرني بالاحسان والاكرام بعد ان كانت تنظر الي ببرود واستخفاف ؟ اتراني هالكة ؟ ام انها تخافني ؟ . اما من جهة النبيل فقد كان وجهه يمتقع ويحمر ، وهو هادىء ، منخفض الرأس ليخفي الانفعالات التي تهزه . لقد انتابته افكار صاحبة هائجة شحب من جرائها وجهه واحمى ذلك الحنان الناعم عن شفثيه حتى ان الآنسة دو فرنوي لم تستطع ان تحزر اذا كان لا يزال يحتفظ ببقية من حب في اضطرابه .

اظلمت الطريق المحاطة بالغابات فتعذر على الحبيبين الصامتين تبادل الاسئلة بالنظر . كما ان صوت الهواء وحفيف اوراق الاشجار ووقع اقدام الحرس المتزن زادت في تجهيم المشهد وفي خفقان قلبيهما ، وعجزت الآنسة دو فرنوي عن البحث عن سبب هذا التحول ، لقد مر كورنتان في خاطرها كالوميض ونقل اليها الصورة الحقيقية لمصيرها الأسود .

لأول مرة منذ صباح ذلك اليوم انصرفت الى التفكير جدياً بموقفها المتأزم وقد كانت حتى هذا الحين مستسلمة لسعادة الحب غير مكترثة بنفسها ولا بالمستقبل. واذ عجزت عن تحمل آلام نفسها ، اخذت تبحث وتتوقع بصبر الحب ، بل وتتوسل بجمرة نظرة واحدة من عيني الشاب ، وكان في اصرارها وارتجافها بلاغة نافذة . فترنج ، ولكنه تمالك نفسه ولجم عواطفه حين سأها :

– اتألمين يا آنسة ؟

هذا الصوت المجرد من كل عذوبة ، وهذا السؤال بالذات ، وطريقة القائه وتلك النظرة الجافة ، كلها اقنعت الفتاة المسكينة ان احداث النهار كانت من نوع السراب الروحي ، وقد تبددت كما تبدد الغيوم امام الرياح . فقالت له بابتسامة مفتعلة :

– ان كنت أتألم ؟ كدت اطرح عليك نفس السؤال .

وقالت مدام دو غوا مازحة :

– كنت أظن انكما متفاهمان .

لم تلق جواباً لا من الشاب ولا من الآنسة دوفرنوي ، فقد تضاعف غضب الفتاة وغاظها ان ترى جمالها المقتدر قليلاً . كان بإمكانها ان تعرف ساعة تشاء سبب هذا الوضع ، ولكنها ، وربما لأول مرة ، تتراجع امرأة امام الألفاظ ، لم تكن لتحفل كثيراً باستجلائه . فحياة الانسان حافلة بالأوضاع المؤلمة التي لا يعود للفكر حيالها أي مستند ، ولا أي جوهر ولا أي نقطة انطلاق ، حيث لا يجد الحاضر أي علاقة له بالماضي ، وذلك يحدث إثر استغراق في التأملات او إثر كارثة طارئة .

تلك كانت حالة الآنسة دوفرنوي ، وهي جالسة في داخل العربة جامدة كالشجرة المقلوعة ، مطرقة ، متأللة لا تلوي على شيء ، ملتفعةً بجزئها ، غارقة في عالم مجهول ، حاصرة ذهنها في عالم يائس بائس لم تعد معه تدرك أي شيء آخر. مر سرب من الغربان فوق العربة ولكنها لم تأبه لها على الرغم من وجود زاوية في قلبها للتأثر بالخرافات والاهام .

قطعت العربية بعض الاميال وركبها صامتون . وكانت الآنسة دوفرنوي تحدث نفسها قائلة : ها نحن مفترقان . لم اسمع احداً ينطق بكلمة من حاشيتي ، أتري كورنتان هو الواشي ؟ ولكن ذلك ليس في صالحه . فمن ياترى استطاع ان يتهمني بشيء ؟ ما كدت اجد حبيباً حتى فوجئت بلوعة الانفصال ، انني ازرع الحب واحصد الهوان ، لقد قنض لي ان أرى السعادة وأضيعها .

اضطرب قلبها ، فهي ، فعلاً ، تحب لأول مرة ، إلا انها لم تستسلم للحب الى درجة المعجز عن إيجاد مصادر ضد تسرب الالم الى كبرياتها الاصيل كشابة جميلة ، سر حبها ، هذا السر الذي احتفظت به في اصعب الظروف ، لم يفلت منها . خجلت من ان تقيس حبها بمقياس عذابيها الصامت ، فنهضت ونفضت رأسها بطريقة مرحة ، كشفت عن وجهه ، او بالاحرى عن قناع ضاحك ، ثم غالبت صوتها لتخفي لهجة عدائية وقالت لميرل وكان بجانب العربية :

- أين نحن الآن ؟

- على بعد ثلاث مراحل ونصف المرحلة من فوجير يا آنسة .

- قربنا اذن .

قالت ذلك وهي ترمي الى تشجيعه على مبادلتها الحديث لتبدي له بعض

التقدير .

وتابع ميرل كلامه قائلاً :

- هذه المراحل ليست طويلة انما يحتمل ألا يكون لها نهاية في هذا البلد ، فعندما تصبحين في منبسط الناحية التي تجتازينها الآن ، تشاهدين وادياً أشبه بالوادي الذي سغادره قريباً ، وفي آخر حدوده تشاهدين قمة البليرن . عسى الله ان يمنح الناعقين من القيام بأخذ الثأر .. ومن بليرن تشاهدين ايضاً ...

ما ان سمع المهاجر هذه الكلمة حتى اختلج للمرة الثانية ، انما اختلاجه كانت خفيفة الى حد لم يلحظها احد سوى الآنسة دوفرنوي التي سارعت الى سؤال الضابط عن بليرن فأجابها :

- انها قمة جبل اطلق اسمه على وادي ماين الذي سندخله قريباً والذي يفصل

هذا القطاع عن وادي كويسنون وفي أقصى هذه الوادي تقع فوجير أولى مدن
بريتانيا حيث انهزمنا في معركة مع « الغار » وأتباعه ، وما كنا لنهزم لو
لم نأت بالمهندسين المصادرين الذين حاولوا ان يقتلونا على الحدود حتى لا يغادروا
بلادهم . إلا ان هولوا مسيحي صلب ، فلم يلبث ان اعطاهم ...

– اذن لا بد انك رأيت « الغار » فكيف هو ؟

فاجابها ميرل وهو يحدق الى وجه الفيكونت دو بوفان المزعوم :

– انه شديد الشبه بالمواطن دو غوا ولو لم يكن ببنوة مدرسة البوليتكنيك

لراحت على انه هو بذاته .

انعمت الآنسة دو فرنوي النظر الى وجه الشاب المتعالي الساكن الذي كان
يزدها فلم تلحظ عليه أي بادرة من بوادر الخوف ، فرشقته بإبتسامة مرة ، عبرت
فيها عن اكتشافها للسر الذي اخفاه عنها بمكر لئيم . ثم مالت برأسها بطريقة
تمكنها من رؤية الشاب والضابط ميرل في الوقت ذاته وقالت بصوت هادر
وانف منتفخ بالغبطة مخاطبة الضابط الجمهوري :

– ايها الكابتن . ان هذا الرئيس الملقب بالـ « غار » يثير نخاوف الفئصل

الأول . انه جريء على ما قيل ، الا انه يروغ في بعض المهمات كالزرزور ولا
سيما حبال النساء .

– هذا ما نعتد عليه لتصفية حسابنا معه . لو اننا نمسكه لمدة ساعتين فقط

فسنفرغ في رأسه قليلاً من الرصاص . ولو قابلنا لفعل بنا مثل ذلك ولقضى
علينا بالهلاك .

قال الشاب :

– لا موجب للخوف ، فجنودك متعبون ولا حاجة الى بلوغ البلين هذه

الليلة ، وبامكانهم ، لو شئت ، ان يستريحوا على بعد خطوتين من هنا . ستزل
امي في « فيفتير » وهاك هي الطريق ، على مرمى رصاصة من هنا . وهاتان
السيداتان بحاجة الى الراحة . لا بد ان تكونا قد سئمتا طول الطريق ، من ألتسون
الى هنا ، وبما ان الآنسة (قالها بأدب مفتعل وهو يلتفت نحو حبيبته) قد

تكرمت باضفاء المزيد من البهجة والامنان على هذه المرحلة ، فقد تتكرم بقبول
الدعوة للعشاء عند امي....

وأضاف قائلاً وهو يلتفت نحو الضابط :

— ثم ان الزمن لم يسؤ بعد الى حد انقطاع الحرة المعتقة الغار لم يستول عليها
كلها ، وسيجد رجالك في فيفتير ما يروي عطشهم من شراب التفاح . هذا
ما تراه امي على الاقل ، فيها بنا...
— امك ؟ ...

قالتها الآنسة دوفرنوي مقاطعة كلامه بسخرية لاذعة ، دون ان تجيب على
دعوتها الفريدة من نوعها بكلمة .
فأجابتها مدام دو غوا بقولها :

— لست على يقين من عمري على ما يبدو ، يا آنستي ، لقد تعست بزواج
باك . وكنت في الخامسة عشرة من عمري حين ولدت ابني ...
— لا تغلطي يا سيدتي ، لعلك كنت في الثلاثين من عمرك يومذاك ؟ ...

اصفر وجه مدام دو غوا وهي تلتهم هذه السخرية . وشاقها ان تنتقم ،
فوجدت نفسها مرغمة على الابتسام ، كانت بحاجة ملحة ، وبكل الظروف
والتضحيات ، الى معرفة الشعور الذي يحرك الفتاة ، لذلك تظاهرت بعدم الفهم
وقالت موجبة الكلام الى فرانسين والى سيدتها :

— لم يشهد الناعقون رئيساً أقسى من الرئيس الحالي . صحيحة هي الشائعات
التي تروج عنه .

فأجابتها الآنسة دوفرنوي :

— اما كونه فظاً غليظ القلب ، فذلك ما لا اصدقه ، الا انه كذاب مراوغ ،
ويبدو لي ساذجاً جداً . ولا يجوز لرئيس ان يكون ألعوبة بيد أحد من الناس .
— هل تعرفينه ؟ سألها المهاجر بيروود .

فأجابت وهي تسدد اليه نظرة احتقار :

— كلا . كنت اظن اني اعرفه ...

واردف الضابط ميرل قائلاً وهو يهز برأسه :

- آه ! يا انسة . انه « ماكر » فعلاً .

وارفق هذه الكلمة بجرمة معبرة من وجهه ، تتناسب وذلك المعنى الخاص الذي كانت هذه الكلمة تعنيه اذ ذاك ، والذي فقدته مع الزمن . واسترسل في كلامه قائلاً :

- ان تلك الأسر العريقة تنجب ، في بعض الأحيان ، ذرية ذات بأس وقوة . ويقال إن هذا الفتى قد عاد من بلاد لم يجد فيها النبلاء ما يصبون اليه من خفض العيش ومتع الحياة . والرجال ، كما تعلمون ، كئثار الزعرور الجؤوي ، احسن ما تتضح على القش . فان حذق هذا « الفار » دوره وكان ماهراً فسيقتعبنازمناً طويلاً . . لقد عرف كيف يقابل فرقنا الحرة بفرق خفيفة . وشل جهود الحكومة . فان احرقنا قرية ملكية ، أحرق قربتين جمهوريتين . انه ينشر رجاله في مدى واسع ، فنضطر الى استخدام عدد كبير من الجنود ، وجندنا قليل .

- آه ! انه خبير بتصريف الأمور .

هنا قاطع جيرار ميرل قائلاً بصوت قوي :

- انه يطعن وطنه .

فقال النبيل :

- اذا كان في موته خلاص للوطن فاسرعوا في قتله . قال ذلك ورمق الآنسة دو فرنوي بنظرة عميقة مستظلماً خفايا نفسها . وجرت بين الاثنتين معركة صامتة ، قصر البيان عن التعبير عن تفاصيلها وماجرياتهما . فازاء خطر الموت ، تتحرك الشفقة حتى على احط المجرمين . والآنسة دو فرنوي وان كانت تعلم علم اليقين ان الحبيب الذي يحقرها انما هو ذاك الزعيم الخطر ، فانها لم تشأ ان تضمن السلامة بهلاكه . كلا ، بل كان لها أرب آخر يستهويها ، ولذلك فضلت ان ترتاب وتشكك حسب مزاجها وراحت تلعب بالخطر ، بنظرات غادرة ساخرة . كانت تنبه الزعيم الشاب الى وجود الجنود وعلى محياها سياء الظفر ، عارضةً عليه صورة الخطر الذي يحيط به ، متوخية اشعاره بقساوة ان حياته متوقفة على

كلمة واحدة تتحرك بها شفتاها . وبقسوة الأميركي البدائي المتوحش راحت تتصور وجه عدوها المشدود الى الخشبة اذ تنزل على عنقه المقصلة يهدوء مستمتعة بانتقام بريء . وانها لتعاقبه كحبيبة لا تزال تحب .

قالت للسيدة الغريبة التي الم بها الضيق وظهرت عليها امارات الخوف الشديد:
- لو كان لي ولد كولدك للبت عليه ثوب الحداد في نفس اليوم الذي اعرضه فيه للاخطار . وبعد ان كررت الالتفات نحو الضباط اكثر من عشرين مرة ، استدارت فجأة نحو مدام دو غوا فلم تكتشف اي اشارة سرية تؤكد علاقتها الحميمة بالغار ، تلك العلاقة التي كانت الآنسة ترتاب بها . فالمرأة تستعذب التردد في معركة الموت او الحياة عندما يكون الأمر بيدها . اما الزعيم الشاب : فقد كان يبتسم يهدوء كلي ويتقبل دون خوف العذاب الذي تسومه به الآنسة دو فورنوي . وكان في موقفه وتعبير قسما وجهه ما يشير الى انه رجل يهزأ بالمخاطر وكأنه ، في موقفه هذا ، يقول لها :

« امامك فرصة للانتقام لغرورك الجريح فاغتنمها ، فانا لن ارجع عن احتقاري لك » .

وراحت الآنسة دو فورنوي تتفحص الزعيم الشاب ، من شامخ عليائها بوقاحة وتعاطف في الظاهر . وهي في الواقع ، معجبة بجراته وثبات جنانه .
سرهما ان يحمل حبيبها لقباً ذا امتيازات رفيعة تستهوي النساء جميعاً ، وشاقها ان تلقاه في وضع حرج ، بطلا لقضية زادتها الآلام نبلا وقدرأ ، يناضل ، بكل ما أوتي من عزيمة وقلب كبير ، ضد جمهورية انتصرت في ميادين عديدة . كما شاقها ان تراه ، يجابه الخطر الاكبر بشجاعة رائعة تثير نوازح الاعجاب في قلب كل امرأة . لقد وضعته أكثر من مرة تحت التجربة مدفوعة بغريزة المرأة التي يحلو لها اللعب بالفريسة كما تلعب القطعة بالفأر قبل افتراسه .
وسألت ميرل :

- بموجب أي قانون تحكمون على الناعقين بالموت ؟ فأجاب :

- بموجب قانون ١٤ شباط ، القاضي بتشكيل المجالس العرفية في المقاطعات
الثائرة .

التفتت الآنسة دو فرنوي نحو الزعيم الشاب الذي كان ينعم النظر فيها وقالت له :
- والآن . اي شيء في يلفت انتباهك حتى توليني شرف هذه النظرات
التي تسدها الي ؟

- عاطفة يُمسِك اي رجل مهذب نفسه عن التعبير عنها لأي امرأة مهما كان
شأنها . بذلك اجاب المريكز دو مونتوران بصوت خافت وهو يميل اليها ، و اردف
قائلاً بصوت عال :

- كان ينبغي ان نعيش في هذه الايام حتى نرى فتيات يقمن بدور الجلاد
ويتفوقن عليه بطريقتهن الخاصة باللعب بالفؤوس .

رتمته بنظرة سديدة . ثم همست في اذنه ، ضاحكة بمكر لذيد . وقد سرها
ان يشتمها ، وفي يديها حياته ومماته :

- رأسك يابس يرفضه اي جلاد لذا أحتفظ به لنفسي ..

وقف المريكز مذهولاً يتأمل هذه الفتاة الغامضة التي يقهر الحب فيها كل شيء
حتى الاهانات اللاذعة ، والتي تتأثر لنفسها بغفران اهانة لا تغفرها اي امرأة
اخرى ، وقد اصبحت نظراته اقل قساوة وبرودة . وغشت وجهه كآبة ، وادرك
ان هواه اقوى بكثير مما كان يظن . اما الآنسة دو فرنوي ، وقد اكتفت بهذا
العطاء اليسير لتوطيد المصالحة المرجوة ، فقد رمقت الشاب بحنان وافترت له
عن بسمة كاللثمة . ثم جلست مطمئنة في داخل العربة ، آملة الا تهدد مرة
اخرى مأساة سعادة ظنت انها احكمت عقدها بذلك الابتسام .

لشد ما كانت جميلة ! لشد ما حدقت تذليل الصعاب وازالة العقبات ، في
سبيل الحب . وتعودت الاستهانة بكل شيء والسير مع الأقدار .

وبأمر المريكز تحولت العربة عن الشارع الكبير ، واتجهت نحو فيفتير ، عبر
طريق عميقة محاطة بمنحدرات عالية مغروسة بشجر التفاح ، وهي اشبه بخندق
منها بالطريق . قال بوبيه :

- ما اشبه هذا الدرب بطريق الجنة !

بفضل خبرة الحوذي ، لم تلبث الآنسة دو فرنوي ان شاهدت قصر فيفتير وهو عبارة عن منزل قائم على لسان من الأرض يحيط به غديران عميقان يحولان دون الوصول اليه ، الا من ممر ضيق ، وكان القسم الذي يحضن السكان والحدائق في شبه الجزيرة هذه ، يقوم على بعد قليل خلف القصر محفوفاً بمخندق تصب فيه المياه المتدفقة من الغديرين المتصلين بها وتجعل من تلك الأرض جزيرة آمنة يتحصن فيها الرئيس دون ان يخشى مفاجأة ، الا اذا كان في الأمر خيانة .

لدى سماعها صرير البوابة الحديدية، وبمرورها تحت الرجاج المتهديم بفعل الحرب السابقة ، اطلت الآنسة دو فرنوي برأسها من العربة . وما كادت ترى اللوحة القائمة التي بدت لناظرها ، حتى تلاشت من ذهنها صور الحب ومشوقاته ، فقد دخلت العربة في ساحة شبه مربعة ، مقفلة بصفتي الغديرين . والضفتان الموحشتان كانتا ترفلان في مياه تبرقعها بقع خضراء واسعة ، لا يزينها سوى اشجار مائية عارية من الورق ، قصيرة الجذوع بفضون طويلة تفرع القصب طولاً . . . وذلك السياج البشع ضج بالحياة فجأة اذ غادرت الضفادع وهي تنق وشردت من بينه الطيور المائية التي استيقظت على ضجيج العربة . وكانت الساحة ، مطوقة بالاعشاب العالية ، ليس عليها مسحة من الجمال ، اما القصر فقد بدا مهجوراً منذ زمن بعيد . فالسطوح تكاد تلتوي من ثقل العشب النابت عليها . والجدران المبنية بالحجر الصفيحي الصلب ، غشيها اللبلاب وارسل في شقوقها نخاله . بناء ان يتصلان ، على شكل مثلث ، ببرج عال باتجاه الغدير ، كانا يشكلا القصر بكامله . الابواب ودرج النوافذ متساقطة مهترئة ، ودرابزون السلام التوى . كل شيء في هذا القصر بدا متداعياً تعصف فيه رياح الشمال عبر الخرائب . والقمر ، بنوره الحائل ، يضيئ عليه صورة مهيبه لشبح رهيب .

قصر خرب فارغ مظلم ، حجارتة متباعدة ، شبابه بلا زجاج ، وبرج مشقوق ، لا سقف له ، أشبه شيء بالهيكل العظمي . وخلف البيت بضع أشجار من الشربين ، ترمي فوق السطوح اوراقها الميتة القائمة .

والأبواب بزخرفها الغريب ، وبمجموع البناء الذي لا انسجام فيه ، كلها كانت

ترمز الى ذلك الطابع الاقطاعي الذي تتباهى به بريطانيا . وقد تكون على حق ، إذ انه يشكل على هذه الأرض الغالية نوعاً من التاريخ الأثري للأزمة السحيقة التي سبقت قيام الحكم الملكي ذاته .

ان كلمة « قصر » وحدها ، بعثت في خيلة الآنسة دو فرنوي ، أشكال الصورة الحقيقية الأصيلة له . واذ تبينت الخطوط الجنازمية في اللوحة البادية أمامها ، ارتاعت وقفزت بخفة من العربة لتتأملها ملياً ، وهي تفكر بالموقف الذي ينبغي ان تتخذه . أما فرانسين فقد لاحظت مدام دو غوا وهي تتنفس الصعداء لوجودها خارج نفوذ الزرق وترسل هتافاً عفويماً لدى انغلاق البوابة حيث شعرت بأنها باتت في أمان داخل قلعة شبه طبيعية .

أما ما كان من المريكيز دومونتوران ، فقد اقترب من الآنسة دو فرنوي ، ولم تخفَ عليه هواجسها ، وقال لها بشيء من اليأس :

— لقد هدمت الحرب هذا القصر ، كما هدمت أنت المشاريع التي أعدتها من اجل سعادتنا .

وإذ فوجئت بهذا الكلام . صاحت :

— ماذا تقول ؟ فأجابها بسخرية :

— أنت « امرأة شابة جميلة ، نبيلة وذكية » ..؟

— من قال لك العكس ؟

— أصدقاء جديرون بالثقة يجرسونني ويحبطون كل مؤامرة تحاك ضدي .

— مؤامرة ! . أفهل صارت ألسون وهولو بعيدين عن هذا المكان ؟ انك

ضعيف الذاكرة وهذه الصفة خطأ يعرض رئيس الحزب للخطر . قالت ذلك بلهجة ساخرة وأضافت :

— ولكن ، ما دمت في احضان اصدقاء يتحكمون بقلبك ، فاحتفظ بهم ،

لا شيء يضاهي لذة الصداقة ... الوداع ، فلا أنا ، ولا جنود الجمهورية سندخل هذا المكان . قالت ذلك ومشيت نحو البوابة بازدراء وعنفوان جريح ، إلا انها أظهرت في تصرفها هذا نبلاً أصيلاً ويأساً مريباً غيراً كل نوايا المريكيز . وكان قد

بذل الكثير من الجهد ليتخلى عن رغباته ويبقى على حذر دائم . لكنه كان مفرماً كما كانت هي ، وكلاهما لا يبغيان طول الخصام ، فقال المريكيز بلهجة المتوسل :

- قولي كلمة اخرى فأصدقك .

- كلمة اخرى ! كلا ، بل ولا اشارة اخرى ، قالت ذلك بسخرية ظاهرة .

- أنتبيني على الاقل ! قال متوسلاً وهو يحاول عبثاً لمس يدها واطاف :

- أنتبيني ان كنت تجرؤين على مشاكسة زعيم ثوار كان منذ قليل طروباً

مطمئناً ، وهو الآن حذر متجهم عبوس .

فاذا رمقته ماري بنظرة لا حنق فيها اردف قائلاً :

- انك تعرفين سري ، وانا لا اعرف سرك .

وهنا امتقع وجه ماري ، وبعد ان ألقت نظرة فاحصة على المريكيز اجابت :

- سري ؟ لن تعرفه ابداً .

كل كلمة وكل نظرة في الحب لها مغزاها العميق . الا ان الآنسة دو فرنوي لم

تبد شيئاً واضحاً في هذا الشأن . وعلى الرغم من نباهة المريكيز دو مونتوران

بقي سرها مكتوماً وان تجلت في صوتها انفعالات نفسية غير اعتيادية اثارت

فضوله . فقال لها :

- لديك طريقة محببة في تبديد الشكوك .

- الا زلت تحتفظ ببعض تلك الشكوك ؟

قالت ذلك بلهجة من تريد ان تقول :

- ألك بعض الحقوق علي؟! !

فأجابها الشاب وفي حياء استسلام لا يخلو من الحزم :

- يا آنستي . السلطة التي تمارسينها على جنود الجمهورية ، وهذه الحاشية ...

فقاطعته بلهجة لا تخلو من التهكم :

- ذكّرني ... حراسي ، وانا ، يعني منقذيك ، هل سنكون في امان هنا؟

- أجل ، أياً كنتم انت واتباعك ، فلا خوف عليكم في بيتي . كلام شرف ..

تلفظ بهذا العهد بولاء وصدق مؤكداً للآنسة دو فرنوي ان بإمكانها ان تطمئن على مصير الجمهوريين الذين معها . وكانت الآنسة تستعد للكلام واذا بمدام دو غوا تفرض عليها الصمت .

لقد سمعت هذه السيدة لا بد جزءاً من الحديث الذي جرى بين الحبيين وانجلت امامها الحقيقة بحيث لم تشك بزوال كل خصومة من بينها ، وذلك ما اثار فيها قلقاً شديداً . وحين رآها المركز اخذ بيد الآنسة دو فرنوي وسار بها نحو البيت بنزق ، ليتخلص من رفقة مزعجة ، فتجمدت السيدة في مكانها وهي تقول في نفسها :

- أصبحت ازعجه . ورافقت بنظرها الحبيين ، وقد تم بينها الوثام ، وتقدما نحو الردهة حيث توقفا ليتحدثا بعيداً عنها . ورددت في نفسها :
- أي نعم ! أصبحت ازعجها ! لكن . بعد قليل لن ترعجني هي . سيكون الغدير قبرها باذن الله . وأي خوف عليها تحت المياه ؟ الا تكون في امان حسب عهدك لها ايها النبيل ؟

وفيا كانت ترمق صفحة البحيرة الصافية الى جهة اليمين ، اذا هي تسمع حفيف العليق والموسج على الضفة ، ولحمت في ضوء القمر وجه « مارش آتير » الذي انتصب خلف جذع صفافة . وكان لا بد لها من التعرف الى الناعق لتبينه وسط تلك المجموعة من الاشجار المشدبة خفية المعالم .

ألقت مدام دو غوا اول نظرة حذر حولها ، فرأت الحوذني يقود جياده الى اصطبل قائم في جناح القصر المواجه للضفة التي تخفي مارش آتير ، ورأت فرانسين متجهة نحو الحبيين ، وكانا في هذه اللحظة في غفلة عن كل ما يجري حولهما . عندئذ ، تقدمت واصبعها على شفتيها طالبة السكوت التام .

فهم الناعق ، أكثر مما سمع ، الكلمات التالية :

- كم انتم هنا ؟

- سبعة وثمانون .

- انهم هناك ليسوا أكثر من خمسة وستين ، لقد عددتهم .

وهنا توارى الناعق وهو متيقظ لكل حركة تبدر من فرانسيس التي رآها
تتلقت باحثة عن العدو التي كانت تراقبها بالفريزة .

وفي هذه الفترة ظهر في أعلى الردهة الرئيسية سبعة او ثمانية اشخاص كانوا
قد انتبهوا الى ضجيج العربية وصاحوا :

- هوذا « الغار » ، ها هو بلحمه وعظمه ! وركض رجال آخرون على هذا
التهاتف فقطعوا بجيئهم الحديث بين العاشقين . هرع المركز نحوهم طالباً منهم
السكوت ، ومشياً الى أعلى الجادة حيث سار الجنود الجمهوريون . واذ شاهد
المتآمرون البذلات الزرقاء ذات الردّات الحمراء والحراب اللامعة ، صرخوا
مندهشين :

- أجنّت لتفدر بنا ؟ فأجابهم المركز متبسّماً :

- لو كان ما تقولون صحيحاً لما رحمت احذركم وأدعوكم الى لزوم الصمت
والانتباه . ان هؤلاء الزرق يشكلون حرس هذه السيدة الشابة التي تكلمت
فأنقذتنا بأعجوبة من هلاك تعرضنا له في احد فنادق ألسون . وسنروي لكم
تفاصيل تلك المغامرة . والآنسة وحاشيتها هم هنا في عهدتي ويجب استقبالهم
كأصدقاء .

في هذا الوقت كانت مدام دو غوا وفرانسيس قد وصلتا الى الردهة حيث
أعطى المركز يده للآنسة دو فرنوي ومر وإياها وسط الرجال الذين انفصلوا
وانتظموا في صفين متساويين ، وجميعهم حاولوا تبيّن سمات السيدة المجهولة .
وكانت مدام دو غوا قد اثارت فضولهم ببعض الاشارات والايماء التي كانت
ترسلها خلسة اليها .

شاهدت الآنسة دو فرنوي في الصالة الكبرى مائدة كبيرة حسنة الترتيب ،
معدة لعشرين مدعواً ، وصالة الطعام هذه متصلة بصالة اخرى واسعة ، اجتمعت
فيها الشخصيات الموجودة في القصر . والحجرتان انسجمتا ومعالم الخراب البادية
في خارج القصر . فالخشبية الجوزية مصقولة محفورة لكن بأشكال خشنة قبيحة .
وكانت سيئة الصنع ، متشققة ، توشك ان تسقط ، ولونها القاتم يزيد في كآبة

الصالتين ، حيث لا زجاج ولا ستائر ، وفيها اثاث يعود الى مئة سنة او أكثر يتجاوب تماماً وهذه المجموعة من البقايا البالية .

ورأت ماري على المائدة الكبيرة خرائط جغرافية وتصاميم مطوية . كما رأت في زوايا المنزل أسلحة وبنادق متراكمة . كل شيء كان يشهد على انعقاد مؤتمر خطير ، بين رؤساء فائده ورؤساء الناعقين .

وقاد المركز الآنسة دو فرنوي الى مقعد كبير مصقول ، بالقرب من المدفأة . ووقفت وراءها فرانسيس خادمتها مستندة الى ظهر المقعد ، وقبل ان يتركها سألها هل تأذن له بأن يتصرف كرب المنزل حيال ضيوفه فأذنت له بكياسة . رأت فرانسيس جميع الرؤساء يسارعون الى اخفاء اسلحتهم ، بطلب من مونتوران ، حتى لا يثيروا شكوك الضباط الجمهوريين ، وبعضهم نزعوا زئانيرهم الجلدية المحتوية على مسدسات وسكاكين صيد . اوصاهم بالتكتم الشديد وخرج معتذراً ليهتم بضيوف مزعجين قذفه بهم القضاء من حيث لا يريد .

اما الآنسة دو فرنوي ، فقد بسطت قدميها امام النار لتدفئتها وادارت ظهرها للمجتمعين وهم يرجون رؤية وجهها . وبذلك كانت فرانسيس الشاهد الوحيد على التبدل الذي طرأ إثر خروج مونتوران . فقد تملق الرؤساء حول مدام دو غوا . واثناء الحديث السري الذي اجرته معهم لم يحجم احد منهم عن التطلع الى الفتاتين الغريبتين .

قالت مدام دو غوا :

- انكم تعرفون مونتوران ، لقد تعلق بحب هذه الفتاة ، وبات يرتاب في فضل النصائح التي قدمتها له . ولم يحفل بالتحذير الذي سمعه من صديقينا في باريس ، المسيو « فالوا و دسكرينيون دالسنون » ، بان الجمهوريين ينصبون له فخاً ، بالقاءهم مخلوقةً حسنة في طريقه . وها هو متعلق برداء اول مخلوقة صادفها ، وهي فتاة علمت انها تحمل اسماً كبيراً لتبهره وانها .. الخ

هذه السيدة (دو غوا) التي عرفنا فيها المرأة التي قررت مهاجمة عربية البريد ستظل تحمل في هذه القصة الاسم الذي نجت به من خطر محتم اثناء عبورها ألسون .

ففي اعلان اسمها الحقيقي اهانة لاسرة نبيلة يكفيها ما رزئت به من سيرة هذه السيدة الشابة التي قدر لها ان تكون موضوعاً لقصة شائكة اخرى .

اما الموقف الفضولي الذي اتخذه المجتمعون فلم يلبث ان تحول الى موقف فيه قحة وشبه عداء بلغت بعض الفاظه فرانسيس، فاسرّت كلمة في اذن سيدتها، ومضت تحتبىء في فجوة حائط . واذ ذاك نهضت ماري والتفتت الى السفهاء المتطاولين ، ورمتهم بنظرة ملؤها الكبر والاحتقار ، وما لبثوا ان تأثروا بجهاها ولباقة حركاتها وكبريائها، واذا هم يغيرون فجأة موقفهم منها . وكان اثنان او ثلاثة منهم شفاً ظاهرهم عما اكتسبوه من عادات الكياسة والأدب والظرف ، في حياة البلاط واوساطه الرفيعة . فاقتربوا من ماري بتأدب ولباقة وقد فرضت عليهم الاحترام ، بادبها وقوة شخصيتها . فلم يجرؤ احد منهم ان يبدأها الكلام . وبدلاً من ان تكون متهمّة ، بدت وكأنها هي التي تحكم وتتهم ، لقد بدا زعماء الحرب الناشئة باسم الله والملك قليلي الشبه بتلك الصور التي كوتتها عنهم ، فيما مضى ، في خيالها . وذلك النضال العظيم حقاً ، تضاعف في نظرها فجأة واتخذ صفة الهوان والمسكنة حين رأت هؤلاء الرجال ،عدا اثنان أو ثلاثة منهم ، قد تجردوا من معاني الحياة ومقوماتها !

وبعد ان غاصت ماري في بحر من الخيال ، دخلت فجأة في نطاق الحقيقة ، وتبين لها ان تلك الوجوه هي أقرب لأعلان حاجتها الى الدسائس منها الى انتزاع الامجاد ، لقد قضت المصلحة على هؤلاء الرجال بامتشاق السلاح، ولكنهم ، وان كانوا قد حصلوا على بعض البطولات عملياً ، فانهم حياها بدوا كلا شيء .. إلا ان ماري ، بفقدانها ميزة بُعد النظر ، كانت ظالمة جائرة الحكم ، وعاجزة عن تبيان صفة الاخلاص الحقيقي الذي رفع شأن الكثيرين من هؤلاء الرجال .

هذا ، وفي حين بدرت من معظمهم حركات مشتركة ، كانت هي تستعيد في ذاكرتها شكليات النهج الارستوقراطي . وإذ هي تعترف لهؤلاء الرجال ، بصورة عامة ، بالذكاء واللباقة لم تجد فيهم اثرأ لتلك البساطة الرائعة التي

ألفتها لدى رجال الجمهورية . لقد أضحكها ذلك الاجتماع الليلي في قلعة عتيقة متداعية ، هي التي رغبت في رؤية مشهد يرمز الى الملكية الفخيمة حقاً . والشئ الوحيد الذي سرها التفكير فيه هو ان المركز يلعب الدور الأول بين هؤلاء الناس في قضية تبدو خاسرة ، وذلك منتهى الاخلاص .

وفما كانت الأنسة دوفرنوي مسترسلة في التفكير ، كان وقع اقدام المركز يسمع في الصالة الجاورة . وفي الحال توزع المتآمرون حلقات . وساد الصمت ، تماماً كما يفعل التلاميذ لدى حضور المعلم ، ودخل المركز فراق منظره ماري ، فراحت تتأمله وسط رجاله ، وقد بدا اصفرم سناً واجلمهم طلعة ، كان هو الاول والزعيم . وكالملك في بلاطه راح يتنقل من حلقة الى اخرى موزعاً ابتساماته ، مصافحاً الايدي ، مسيراً ومعاتباً ومنصتاً ، يؤدي مهمته كرئيس حزب حاذق ، وهو الذي اهتمته سابقاً بالغفلة والتهاون ، وبوجوده وضع حداً للفضول بشأن شخصية الأنسة دوفرنوي . إلا ان خبث مدام دوغوا ترك مفعوله . فالبارون دوغونيك الملقب بال « أنتيميه » - وكان يحق له خلافاً للجميع ، ان يخاطب مورتوران برقع للكلفة - اخذ المركز من ذراعه وانفرد به في زاوية وقال له :

- اسمع يا صديقي المركز إننا نراك ، ونحن على غاية من الألم ، على وشك ارتكاب حماقة .

- ماذا تعني بهذا الكلام ؟

- هل عرفت من اين جاءت هذه الفتاة ؟ من هي ؟ وما هي مقاصدها منك ؟

- يا عزيزي الأنتيميه ، الكلام بيننا ، غداً تزول كل علاقة بيني وبينها ..

- فان سلمت هذه مخلوقة لأعدائك قبل الفجر ؟

- اجيبك على ذلك لو أجبتي انت لماذا لم تسلمي الفتاة حتى الآن ؟ وكان

بوسعها ان تفعل في مناسبات عديدة .

- انك ترضيها الآن وهي لا تريد ان تخونك قبل ان تروي منك .

- يا صديقي ، انظر اليها ، افحص خركاتها ، تمنن في جمالها ، ثم اجرؤ على

القول بأنها ليست امرأة ممتازة . ولو منحتك نظرة رضى أفلا تشعر في قرارة نفسك ، بشيء من الاحترام والمودة لها ؟ ثم امرأة. أثارتك ضد هذه الأنسة وأهاجت وساوسك . لكن ، بعد كل ما سمعته. انا منها وسمعته هي مني فلسوف أقتلها اذا ما تأكد لي انها ، كما يتهمونها، من بنات الهوى .

وهنا تدخلت مدام دو غوا وقالت للشاب :

- اتظن ان « فوشته » كان احق عندما بعث اليك بهذه المرأة التي التقطها من الشارع ؟ لقد قاس مفاتها على مستوى مقامك ، وان كنت انت أعمى فعيون صحابك ساهرة عليك .

فأجابها « الغار » بمجدة :

- احذرك الا تتعرض لها ولا لحاشيتها بسوء ، والا فلا عاصم لك من انتقامي . آمرك ان تعاملي الأنسة دو فرنوي باحترام كلي كامرأة تحبني . ولعلك تعلمين ان اسرة دو فرنوي من حلقاتنا .

المعارضة التي لقبها المريكز تركت في نفسه أثراً لا بد منه . فهو ، وان يكن عامل الأنسة دو فرنوي بخفة ، وتظاهر بان حبه لها ليس اكثر من هوس عابر فقد تجاوز حداً في تدلها بها، بوفائه لها وجدها جديرة بكل احترام وراح يقنع الرؤساء المجتمعين بانها تحمل اسم دو فرنوي عن جدارة واستحقاق . وانها خير من يوثق به . فبدد بذلك الاشاعات والشكوك حولها . فاذا اطمان اليهم ، اقترب من حبيبته وقال لها بصوت خفيض :

- لقد سلبوني وقتاً ثميناً من السعادة .

- اراني جد سعيدة بوجودك قربي . واحذرك باني فضولية وارجوك الا

ازعجك باستلتي . قل لي اولاً من هو ذلك الرجل صاحب السترة الخضراء ؟

- انه الجور بريفو وهو من رجال « ماريه » صاحب « المرحوم ميرسييه »

ذاك الذي كانوا يطلقون عليه لقب : « الفانديه » .

- ومن هو الاكليريكي الضخم ذو الوجه الشاحب الذي يتحدث معه الجور عني؟

- اتعرفين ماذا يقولان ؟

- يا له من سؤال ؟

- لا استطيع اطلاقك دون ان اغيظك .

- ما دمت تسمح باهانتني تحت سقف بيتك دون ان تنتقم لي ، فالوداع ايها
المركيز . لا اريد البقاء هنا دقيقة واحدة . اني اشعر بتبكيت الضمير لاني
خدعت أولئك الجمهوريين الاوفياء .

- اصغي الي يا عزيزتي ماري ، اقسم لك بشرفي اني نقضت افكارهم ومزاعمهم
الشريرة قبل ان اعرف اهي صحيحة ام بهتان وزور ، ومن كان في مقامي ، جاز
لخاصته وصحابه ان يسيئوا الظن بامرأة في مثل جمالك ، خصوصاً بعد ان علموا
ان اصدقائي في باريس حذروني من أي امرأة اجدها في طريقي مؤكداً ان
« فوشه » ينوي استخدام « دليلة » اخرى لإيقاعي في الفخ .

كان المركيز يتكلم وعيناه في عيني الآنسة دوفرزوي . فامتعضت ولم تستطع
إمسك دموعها وقالت بألم :

- انا جديرة بهذه الاهداءات ، وأشد ما اصبو اليه ان اراك واثقاً بأني مخلوقة
حقيرة ، وانك بالرغم من ذلك تحبني . اذ ذاك أثق بك وأؤمن بحبك ، لقد
صدقتك وانت تحدعني . وانت لا تصدقني وانا صادقة ، فلنقف عند هذا الحد
يا سيدي .

قالت ذلك وهي مقطبة الجبين ، منسرفة اللون كأنها مشرفة على الموت . ثم
اردفت قائلة بمرارة :

- الوداع .

وانطلقت خارج صالة الطعام بياس شديد ، فهتف المركيز في اذنها قائلاً :

- ماري ! حياتي لك .

- كلا ، كلا ، سأكون كريمة ، لم أكن أفكر حين تبعتك لا بماضي ولا

بمستقبلي ، كنت مجنونة ، الوداع .

- كيف تتخلى عني حين اقدم لك حياتي .

- تقدم لي حياتك وانت في نشوة الحب والمتعة ..

- بل الى الابد ، وبلا ندم .

فعدت اليه . ولكي يخفي اضطرابه استرسل قائلاً :

- ذلك الرجل الضخم الذي سألتني عن اسمه .. انه رجل رهيب الجانب ، الأب غودن ، وهو جزويتي متعصب . بقي في فرنسا على الرغم من المرسوم الذي صدر سنة ١٧٦٣ لطرده الجزويت من الاراضي الفرنسية ، انه هو جذوة الحرب في هذه المناطق ، والمروج الاكبر للجمعية الدينية المسماة بجمعية القلب الاقدس . انه ، وهو المعتاد على استخدام العقائد اداة ، يعرف كيف يبقئهم على تعصبهم بنبوءات محكمة . ماذا تريدان ؟ للوصول الى الهدف ينبغي استخدام المصالح الخاصة عند اي شخص ، ذلك هو سر السياسة .

- وذلك المعجوز الذي لا يزال اخضر العود ، ذو الوجه المنفرّ والعضلات القوية ، هناك ، لابس الجبة المعدة للمحامين .

- المحامين؟! .. انه يطالب برتبة المارشالية ، افلم تسمعي باسم لونغفي ؟

- اهذا هو نفسه ؟ وانت تستخدم مثل هؤلاء الرجال ؟

- صه ، قد يسمعك ؟ اتريين الرجل الآخر الفارق في حديث اجرامي مع

مدام دو غوا ؟

- صاحب اللباس الأسود ؟ الشبيه بالقاضي ؟

- انه احد مفاوضينا ، اسمه « لا بيلارديير » ، وهو ابن مستشار في برلمان

بريتانيا . انه حائز على ثقة الامراء .

- وجاره الذي يضغط على غليونه الفضاري الأبيض ويسند يده على

اطار المقعد ؟

- انه حارس الغابة السابق لدى المرحوم زوج هذه السيدة ، وهو الآن آمر

فرقة مشاة ، وهو ومارش آتير ربما كانا من اخلص اتباع الملك .

- والسيدة ؟ من تكون هي الاخرى !

- انها آخر عشيقات الزعيم الثائر المرحوم شاريت ، وهي صاحبة نفوذ كبير

على الجميع .

- وهل ظلت وفية لعهده ؟

جواباً على هذا السؤال أتى المركز بجملة من ماري ، فسألته ماري :

- وهل تحترما .؟

- انك تبالغين في الفضول .

- انها عدوتي بعد ان لم يعد بإمكانها ان تكون منافستي . انني اغفر لها
اخطاها الماضية فلتغفر لي هي اخطائي ... وذلك الضابط ذو الشنب ، من هو؟
- اسمحي ألا اسميه ، انه ينوي القضاء على القنصل الاول بمهاجمته وجهاً
لوجه ، وسواء نجح ام لم ينجح فسوف تعرفينه ، سيصبح شهيراً .

- وانت ترأس مثل هؤلاء الناس ؟ قالت ذلك برعب واردفدت :

- أهؤلاء هم المدافعون عن الملك ! فأين رجال البلاط من مشاهير النبلاء
والسادة الفحول العظام ؟

- انهم منتشرون في جميع بلاطات اوروبا ، ولولا وجودهم هنالك فمن ذا
الذي يحمل الملوك ووزاراتهم وجيوشهم ليكونوا عوناً على هذا النظام الجديد
الذي يهدد بالقضاء على النظام القديم .

اجابت ماري باضطراب شديد :

- آه ! كن لي من الآن فصاعداً معيناً صافياً أستقي منه ما انا شديدة
الاحتياج اليه من المعرفة ، ولكن ، دعني اعتقد انك النبيل الوحيد الذي يقوم
بواجبه بمهاجمة فرنسا بالفرنسيين لا يجيوش الاجانب . اني امرأة ، واشعر انني
لو ضربني ابني عن غضب استطيع ان اغفر له ، اما ان سكت عن مجهول يمزقني
فهو في نظري وحش مخيف .

- ستبقين كما انت جمهورية .

- جمهورية ؟ كلا ، لم اعد جمهورية ، ولن احترمك اذا خضعت للقنصل
الاول . لكنني لا اريد ان اراك على رأس اناس ينهبون زاوية من فرنسا بدلاً
من اجتياح الجمهورية بكاملها ... لمن تقاقل ؟ وماذا تتوقع من اناس يستعيدون
حقوقهم على ايديكم ؟ ثمة امرأة سبق لها ان قامت بمثل هذا العمل فكانت النتيجة

ان تخلى عنها من ناصرهم فأحرقت حية . اولئك تبوؤا هم باذن ربهم .. فدعهم
لربهم يفعل ما يشاء .. ان شاء رفعهم ثم يخفضهم ثم يرفعهم تارة اخرى . كل
ذلك باذنه ومشيئته وقضائه . لو انك قدرت المكافأة التي تعود عليك لكنت
في نظري أكبر مما كنت احسب بعشر مرات .. اذ ذاك دسني بقدميك أكن
سعيدة .

- انت رائعة في حديثك . لا تجربي ان تعطي هؤلاء السادة ، حتى لا اصبح
بلا جنود ..

- آه ! لو سمحت فسمعت دعوتي تدعني ، اذن لبعدها معاً الف مرحلة عن
هذا المكان .

- ان هؤلاء الذين لا تحفيها استهانتك بهم لا يجمعون عن التضحية بأنفسهم
في ساحة الجهاد . اما عيوبهم فسوف تنسى . وبعد ، وإن تكلمت جهودي
ببعض النجاح ، افلن تخفي أكاليل الفار كل شيء ؟
- لا ارى هنا احداً غيرك يخاطر بشيء ذي بال حقاً .

- لست وحدي المجاهد الصادق ، انظري هذين ، انها زعيمان جديدان
لفانده ، احدهما ، الملقب بجاك الكبير ، هو الكونت دو فونتين ، والآخر هو
لا بيلاردير .

- وهل نسيت كيبرون ، حيث مثل لا بيلاردير دوره المعروف ؟
قالت ذلك وقد دهمتها تفاصيل تلك الذكرى . فقال « الفار » :
- صدقيني ان لا بيلاردير حمل الكثير من اوزار غيره . فخدمة الأمراء ليست
نزهة على بساط من الورد .

- انك لتروعي يا مريز ! صرخت ماري ثم قالت كأنها اكتشفت شيئاً غيباً
فيه سرها الشخصي يكفي لحظة واحدة ليزيل وهماً وليكشف اسراراً تتعلق
بحياة وسعادة الكثيرين . وصمتت هنيهة كأنها تخشى كثرة الكلام ثم اردفت قائلة :
- اريد ان اطمن الى سلامة جنود الجمهورية .
فقال لها مبتسماً ليخفي اضطرابه :

- اطمئني ، اني شديد الحذر ، كفي عن الكلام عن جنودك لقد قطعت
عهداً بمجايتهم .

- بعد هذا اي حق لي عليك بيننا نحن الاثنين ؟ فكمن سيداً ، ان منتهى
التماسة ان اكون حبيبة عبد ذليل .

وقطع المجرور بريغو الحديث بين الاثنين بقوله :

- الى متى يبقى الزرق هنا يا سيدي المركيز ؟

- الى ان يرتاحوا قليلاً من عناء المسير . قالت الآنسة دو فرنوي .

والقى المركيز نظرة فاحصة على الجماعة ، واذ لاحظ ان هناك اضطراباً ،
ترك الآنسة دو فرنوي مع مدام دو غوا ، تلك المرأة التي افتعلت ابتساماً
ماكرة خفيت على الزعيم الشاب . وفي هذه اللحظة ، اطلقت فرانسين صرخة
عنيفة . واذ رات ماري خادمتها الامينة منطلقة نحو صالة الطعام ، تطلعت في
مدام دو غوا فدهشت للاصفرار الذي يعلو وجهها ، شئت ان تعرف سر ذهاب
فرانسين المفاجيء ، فتقدمت نحو النافذة . واذا بعدوتها تتبعها لتبدد الشكوك
التي قد تكون اثارها وابتسمت لها بخبث لا يمكن وصفه . وبعد ان القت
المراتان نظرة على مناظر البحيرة ، عادتا معاً الى المدفأة . لم تلاحظ ماري ما
يبرر هرب فرانسين ، بينما مدام دو غوا عادت مسرورة لتأكدها من تنفيذ
أوامرها .. فعلى ضفة البحيرة رأت مارش آتير في طريقه نحو الحفرة وسط
البساتين بايحاء منها .

وفيا كانت فرانسين تراقب بعدم اكتراث تحركات الاغصان وانحناءاتها ،
خيل اليها انها ترى وجه رجل ينساب بين البساتين الا انها لم تتأكد من صحة
هاجسها بسبب التموجات السائدة تحت ضوء القمر الباهت ، ولكنها عادت
فرأت شبح رجل آخر ، ثم ظهر رجال آخرون .. بمرورهم تميل اغصان
الشجيرات الصغيرة بعنف حسب اتجاههم .

ورأت فرانسين على الآثر صفاً طويلاً من المخلوقات يتعرج في السير كفاعي
الهند باشكالها الاسطورية . ثم ظهرت لها عدة اضاءة تتحرك هنا وهناك . واذ

انعمت النظر خيل اليها انها تعرفت الى الوجه الأول من تلك الوجوه وجه ،
حبيبها مارش آتير وقد تأكدت انه هو بعينه من دقات قلبها .

الآن ، وقد استنارت فرانسين بشارة خفية ، ولشدة اهتمامها لمعرفة ما اذا
كان هذا الزحف الغامض لا يخفي وراءه مكيدة ما ، انطلقت نحو الساحة ،
واذ وصلت الى المنبسط الأخضر نظرت حولها وفي كل مكان فلم تكتشف شيئاً
عن تلك الحركة . اصاحت السمع فسمعت ضجيجاً خفيفاً أشبه بوقع اقدام
حيوان مفترس في الغابة ، غشاها الفضول فلجأت الى الحيلة ، رأت عربة
فاختبأت فيها ، تربصت فلمحت بيل ميش يخرج من الاصطبل برفقة قرويين
وكان الثلاثة يحملون حزمات من القش فرشوها بشكل سرير طويل أمام البناء
المهجور حيث كان الناعقون يسرون يهدوء . وفجأة سمعت فرانسين صوتاً
عرفته يقول :

- انك تقدم لهم القش كأنهم سينامون عليه فعلاً . كفى ، كفى يا بيل ميش .

- الن يناموا ؟ قال بيل ميش وهو يطلق ضحكة بليدة . واذف . الا

تخشى ان يستاء الغار ؟ فاجاب مارش آتير بصوت خافت لم يبلغ سمع فرانسين :

- سيستاء ، ولكننا نكون قد قتلنا الزرق ، واذف قائلاً :

- هيدا عربة يقتضي علينا ادخالها .

وجر بيل ميش العربة من مقدمها ودفعها مارش آتير من دواليبها بسرعة

قبل ان تتمكن فرانسين المختبئة في داخلها من التفكير . وخرج بيل ميش من

الخطيرة ليأتي بوعاء الحمر الذي أمر المريكز بتوزيعه على جنود الحاشية . ومشى

مارش آتير بمحاذاة العربة لينسحب بدوره ويقفل الباب واذا بيد تقبض عليه

من سترته الجلدية . تطلع فيها فتعرف على عينيها اللتين طالما مارستا سحرهما

عليه فبقي بعض الوقت ذاهلاً مسحوراً .. وقفزت فرانسين بخفة من العربة

وقالت له بصوت عدائي كامرأة منفعلة :

- ما هي الاخبار التي حملتها في الطريق لتلك السيدة ولابنها ؟ ماذا تفعل

هنا ، ولماذا تختبئ . اريد ان اعرف كل شيء .

هذه الكلمات تركت على وجه الناعق المتوحش تعبيراً لم تفهمه فرانسين .

ثم قاد حبيته البريئة الى عتبة الباب وادارها نحو ضوء القمر وقال لها وهو يتطلع فيها بعينين قاسيتين :

- سأجيب على اسئلتك يا فرانسيس اذا اقسمت لي على هذه السبحة ، قال ذلك واراها سبحة اخذها من جيبه وقال :

- اقسمني على هذه التعويذة التي تعرفينها انك تجيبين بصراحة على سؤال واحد . امتقع وجه فرانسيس وهي تنظر الى تلك السبحة التي كانت هي ، ولا وشك ، عربون جبهما . واردف الناعق قائلاً :

- على هذه السبحة اقسمت انت .

وقبل ان يتم كلمته وضعت القروية يدها على شفتي عشيقها فارضة عليه السكوت . وقالت :

- وهل انا بحاجة الى القسم ؟

اخذ يدها برفق ، تأمل فيها لحظة ثم قال :

- هل الآنسة التي تخدمينها تدعى الآنسة دو فرنوي فعلاً ؟

حيال هذا السؤال بقيت فرانسيس مبسوطة اليدين ، خافضة العينين صفراء محنية الرأس مكبوتة .

- انها ساقطة ! قال مارش آتير بصوت رهيب .

هنا ايضاً حجبت اليد الناعمة شفتي المتكلم ، الا انه هذه المرة تراجع بعنف ولم تعد ترى فيه الفتاة البريتانية حبيبا بل حيواناً مفترساً بكل وحشيته ، مقطب الحاجبين يصير على اسنانه ويكشف عن انيابه كالكلب عندما يدافع عن سيده وقال لها :

- تركتك زهرة ووجدتك مزبلة . آه ! ترى لماذا تخلت عنك ! لقد جئت

لتخونينا ! لتسلمي الغار !

كانت عباراته اقرب الى الزئير منها الى الالفاظ ، وفرانسيس ، وان تكن قد ارتعبت من كلامه الاخير ، فقد تجرأت على تأمل وجهه ، بعينين ملانكييتين وأجابته بهدوء :

- اقسم بخلاصي ان ذلك خطأ ومن اختلاق تلك السيدة .
هنا خفض مارش آتير رأسه بدوره فأخذت بيده والتفتت نحوه قائلة :
- لماذا نحن في ورطة يا بيار ؟ اسمعني جيداً ، لست اعلم كيف تفهم الامور ،
لا اعلم لي بشيء ، ولكن ، تذكر ان هذه الآنسة الحسنة النبيلة قد أحسنت الي
واليك ايضاً ، وانتا ، هي وانا نعيش معاً كشيقتين ، وما دمت معها فلا يجب
ان تتعرض لسوء ، اقسم لي على ذلك ، انا في هذا المكان لا أتق بأحد إلا بك .
- لست صاحب الامر هنا . اجاب الناعق بلهجة صارمة ووجه عابس .
اخذت فرانسين تلاطفه وتداعب اذنيه الطويلتين فاذا لان قالت له :
- عدني بأنك ستبذل أقصى جهدك من اجل سلامة المحسنة الكريمة .
هز رأسه دلالة على الشك في امكانية نجاحه فارتاعت الفتاة البريتونية ، وفي
هذه اللحظة المخرجة ، كانت الحاشية قد وصلت الى الطابق الارضي وكان وقع
اقدام الجنود وصليل اسلحتهم يبعشان الاصداء في الساحة ، وبظهورهم وضعوا
حداً لتردد مارش آتير فقال لمشيقته :
- قد اخلصها اذا كان بإمكانك ان تبقيها في المنزل ، وأضاف : على كل حال
ابقي معها والزمني الصمت المطبق .
- اعدك بذلك ، اجابت من اعماقها .
- حسن ، عودي ، عودي حالاً واخفي اضطرابك عن الجميع ، حتى عن
سيدتك .
- سأفعل . قالت ذلك وضغطت على يد الناعق فرمقها بنظرة أبوية وهي
راكضة بخفة الطير نحو الردهة ، ثم تغفلت بين اشجار البستان .
لدى وصول رجال حاشية الآنسة دو فرنوي الى القصر قال جيرار لميرل :
- هذا المكان يبدو لي مسحوراً يا ميرل .
- هكذا أرى ، أجاب الضابط قلقاً .
وسارع الضابطان الى وضع حراس ليؤمنوا الحراسة على المدخل ، ثم القيا
نظرات الحذر في كل مكان وقال ميرل :

– اما ان ندخل الساحة بكل ثقة والا فلا .

– لندخل ، اجاب جيرار :

وباشارة من الرئيس سارع الجنود الى وضع بنادقهم بشكل هرمي واصطفوا بشكل جبهة صغيرة أمام فراش القش حيث يوجد اناء الخبز. ثم انفصلوا الى فرق واخذ قرويان يوزعان عليهم الزبدة والخبز . واقترب المركيز من الضابطين وقادهما الى الصالون ، واذ صعد جيرار الى الردهة وتطلع في الجناحين حيث يبسط الشربين اغصانه السوداء، استدعى اليه بوبيه ولا كلي دو كور وقال لهما:
– انتا ستهبان وتتحريان البساتين والسيجات، مفهوم ؟ ثم تضعان حارساً امام راية فرقتم .

– هل يمكننا ان نشعل النار قبل البدء في الاستكشاف !

– أجل .

وخاطب بوبيه رفيقه لا كلي دو كور « مفتاح القلوب » بقوله :

– ارأيت كيف ان الرقيب جيرار قد اخطأ في الدخول الى هذا الوكر ، لو كنا بقيادة هولوا لما وصلنا الى هنا ابداً ، اننا في هذا المكان وكأنتا في قدر .
– انت احمق ، اجاب لا كلي دو كور. الا تعرف وانت اخبث الخبثاء ، ان هذا المحراب هو قصر الحسناء المغفلة التي يحوم حولها الضابط ميرل ليتزوجها ، ذلك شيء واضح لا لبس فيه ، فهو اجمل الضباط ، وفي زواجه من فتاة من هذا العيار شرف للفرقة .

– الحق معك ، يا بوبيه ، ويمكن ان تضيف قائلاً :

– ها هي خمرة التفاح اللذيذة ! إلا اني لا اشرىها باستمتاع امام هذه السياجات المقيتة فما زلت اتخيل لاروز وفيو شابو وهما يتدحرجان في الهوة في البرلين ، لن أنسى ما حييت هذا المشهد .

– يا بوبيه ، يا عزيزي ما اوسع خيالك ، كان من الافضل لك ان تكون في المعهد الوطني تنظم الاغاني من ان تكون جندياً .

- اذا كان لدي ذاكرة قوية فلا يلزمني وقت طويل لأصبح قنصلاً ، اما انت فعلى العكس .

قطع « لاكلي دو كور ، الجدال بضحكة عالية وقال لرفيقه :

- لنقم بالدورية ، انت تأخذ جهة اليمين وانا جهة اليسار .

- حسناً ، ولكن ، لحظة ، سأخذ جرعة من الخمر ابلل بها حلقي الجاف .

كانت جهة اليسار من البساتين التي تهاون لاكلي دو كور في تفتيشها في الحال هي الضفة الخطرة التي رأت فيها فرانسيس تحركات الرجال ..

في الحرب كل شيء يدعو الى المخاطرة ، فعندما دخل جيرار الى الصالون وحيا الفرقة وألقى نظرة ثاقبة على رجالها عاودته الشكوك واضطربت نفسه . اقترب من الآنسة دوفرونوي وقال لها بصوت خفيض :

- في رأيي ان تنسحي في الحال ، لسنا في امان هنا . فأجابته ضاحكة :

- أتخشى شيئاً وانت في بيتي ؟ انك هنا في امان أكثر من أي مكان آخر .

تكلمت الآنسة بالنيابة عن حبيبها بكل ثقة في النفس . فاطمأن الضابطان ،

وفي هذه اللحظة انتقلت الفرقة الى صالة الطعام .

خلال السكوت الذي يسبق عادة البدء بالطعام ، استطاعت الآنسة دوفرونوي

ان تعطي بعضاً من انتباهها الى هذا الاجتماع الغريب في وقت جعلتها الظروف ،

بشكل ما ، هي سببه يجهالة امرأة اعتادت ان تتدخل في كل شيء وتنفذ أشرس

ما في الحياة من اجل غاية دينية .

ثم واقع آثار انتباهها . فالضابطان الجمهوريان يهيمنان على الحضور بقوة شخصيتها ،

فالشعر المشدود الى الورااء بشكل جديدة على العنق يرسم خطوطاً تضي على

وجهها مزيداً من الكبر والنبيل ، والبذلة الزرقاء المخرّجة بالقماش الاحمر حتى

حشوة الكتفين الهابطة الى الورااء تنبئ عن طول جهاد عنيف ، وكل ما فيها

ييزهما عن سائر الرجال حولها . وهتفت من اعماقها .

- آه ! هنا الامة .

ثم التفتت نحو الملكيين وقالت :

- وهنا رجل ، هنا ملك بامتيازات .

وما امكنا إلا ان تتأمل معجبةً وجه ميرل ، ذلك الجندي الطروب الذي يعطي السائل فكرة مستوفية عن كل ما يريد معرفته عن جنود فرنسا الذي يحسنون صفير الالحان وسط القنابل ..

وما غفلت عن تأمل رقيقه جيرار الذي بدا صارماً رابط الجأش بروح جمهورية حقة هي نفس الروح المتقلبة في صفوف جيوش فرنسا التي تميزت بجرأة فريدة . فقالت في نفسها :

- هوذا احد رجالي ملء البصر ، الاثنان يهدمان الماضي لصالح المستقبل ويتوكان على حاضر ظافر .

واذ رأت المريكز محاطاً برجاله الذين كانوا على شيء من الشجاعة ، المتمصين المتربصين لمهاجمة جمهورية منتصرة على امل احياء ملكية رميعة وديانة محرمة وامراء مشردين وامتيازات ضائعة ، اذ رآته كذلك قالت :

- ان هذا ليس في مستوى ذلك ، انه متربع على انقاض ويسعى لأن يعمل من الماضي مستقبلاً .

غذت نفسها بالتصورات فوقت مترددة بين الخرائب القديمة والجديدة ، فقد كان ضميرها يصرخ قائلاً ان واحدهما يقاتل من اجل رجل والثاني من اجل البلاد ، من اجل امة ، إلا انها وصلت بالعاطفة الى نقطة تؤدي ، عن طريق العقل ، الى الاعتراف بأن الملك هو رمز الامة .

سمع المريكز وقع اقدام رجل فنهض لملاقاته . عرف انه الضيف المنتظر الذي فوجيء بوجود الهيئة فحاول الكلام . الا ان « الغار » أوما اليه ، خفية عن الضابطين الجمهوريين ، بان يصمت ويأخذ مكانه على المائدة .

اما ميرل وجيرار ، فقد وقعا من جديد فريسة الظنون والخاوف بعد ان امعنا في تحليل قسما وجوه مضيفيها . فلباس الاب غودن الاكليركي وبغرابة بدلات الناعقين ايقظت فيها الحذر الشديد مضاعفاً انتباهها واكتشفاً تناقضات مضحكة بين حركات المدعويين واحاديثهم . فبقدر ما تجلت الروح الجمهورية في

بعض الحاضرين . كانت حركات البعض الآخر استوقراطية .
تلك الغمزات المتبادلة بين المركز وضيوفه ، تلك الكلمات ذات المعاني
المبطنة ولا سيما تمشيط اللحي المستديرة على الاعناق المخفية تحت عقدة العنق ،
كل هذا كشف للضابطین عن حقيقة اذهلتها معاً ، فأعربا عن افكارهما
المشتركة بنظرة واحدة ، فقد فصلتها مدام دو غوا عن بعضها بلباقة فراحا
يتخاطبان بالاعین ، كان موقفهما يدعو الى التصرف بحذق ونباهة . لم يكونا
يعرفان ما اذا كانا سيدي القصر ام فريستين وقعا في الفخ ، وما اذا كانت الآنسة
دو فرنوي مفضوشة ام شريكة في هذه المغامرة المهمة . الا ان حادثاً غير متوقع
عجل في وقوع الأزمة قبل ان يتمكننا من معرفة فداحتها .

لقد كان الضيف الجديد مربع الشكل من اسفل الى اعلى . بدينياً يميل الى
الوراء حين يمشي ، مغروراً يفتعل الحركات ليلفت نظر الذين حوله . على الرغم
من كونه احد النبلاء ينظر الى الحياة كأضحوكة في حين ينبغي الاستفادة من
الحياة قدر الامكان ، إلا انه مع عنجهيته بدا طيب القلب مهذباً خفيف الروح
على غرار هؤلاء النبلاء الذين يعودون الى أراضيهم بعد ان ينهوا مدة تربيتهم في
البلاط ، ولا يصدقون أنفسهم انهم قد تمكنوا اخيراً . وبعد عشرين سنة من
الانقلات من قيود الرسميات .

على المائدة بدا اكلوا من طريقة استعماله للشوكة ، تطلع في الهيئة فازداد
دهشة عندما شاهد الضابطان معه ، سأل مدام دو غوا ، بالنظر ، عن خبرهما
فكان جوابها ان دلته على الآنسة دو فرنوي .

واذ رأى المجهول الضخم الحورية التي بدأ جماها يفرض الصمت على العواطف
التي أهاجتها اولاً مدام دو غوا اطلق ابتسامة غاشمة وساخرة تضمنت قصة
خطيرة كاملة . ومال الى اذن جاره وأسر ببعض كلمات بقيت سرّاً على
الضابطین وعلى ماري فقط ، اما الآخرون فقد تبادلوا من اذن الى اذن ومن فم
الى فم الى ان بلغت مسامع ذلك الذي اصيب فؤاده بسهم قاتل . وحول زعماء
فانده والناعقون انظارهم نحو المركز دو مونتوران بفضول مخيف . واخذت

مدام دو غوا تنزه بصرها بين المركيز والآنسة دو فرنوي وهي تطلق بريق
الابتهاج . وكان الضابطان القلقان يتشاوران بانتظار نتيجة هذه المسرحية
المهمة ، ثم ، بلحظة واحدة جمدت الشوكات في الايدي وساد الصمت في الصالة
وتعلقت اعين الجميع « بالفار » مفجرة هياجاً رهيباً في الوجه الدموي الغضوب
الذي اعتراه الشحوب . والتفت الزعيم الشاب نحو الضيف الذي انطلقت منه
تلك الانباء المكتومة وبصوت مبطن بالنعومة قال له :

- يا لنفسي الحزينة يا سيدي الكونت . هذا صحيح ؟

- بشرفي ، اجاب الكونت وهو ينحني امامه .

خفض المركيز عينيه ثم رفعها لينظر الى ماري ، وكانت منتبهة لكل ما
جري حولها ، وليلقي عليها بنظرة ملؤها الموت . وقال بصوت خافت :

- بودي لو ابذل حياتي لانتقم في الحال .

فهمت مدام دو غوا عبارته من حركة شفتيه فابتسمت له كما يتبسم الصديق
لصديقه الذي استعاد رجاءه بعد ياس . وبلغ امتعاض الضابطين الجمهوريين حده
الاقصى حين لاحظا دلائل الاحتقار للآنسة دو فرنوي مرتسمة على وجوه الجميع
فنهضا فجأة . اذ ذاك سألتها مدام دو غوا :

- ماذا تبتغيان ايها المواطنان ؟

- نبتغي سلاحنا ايها « المواطنة » اجابها بسخرية .

- لستما بحاجة اليه على المائدة ، قال المركيز بپرود .

- صحيح ، انما نريد ان نلعب لعبة تعرفها . اننا هنا اقرب الى بعضنا منا
في البارين ، اجابه جيرار وهو يحاول النومه .

وقف جميع من في الصالة وكان على رؤوسهم الطير ، وفي هذه اللحظة سمع دوي
رهيب في الساحة . فهرع الضابطان الى الشرفة ومنها شاهدا مئة ناعق يصوبون
فوهات بنادقهم على بعض الجنود ويطلقون عليهم النار كأنهم ارانب . هؤلاء
البريتونيين خرجوا من الضفة حيث وضعهم مارش آتير لمصيرهم المحتوم . فبعد
الطلقات الاخيرة ، سمع ، عبر صراخ المائتين ، بعض الناعقين يسقطون في المياه

حيث تدحرجوا كما تتدحرج الحجارة في هوة .
وفيما كان بيل ميش يسدد فوهة النار على جيرار كان مارش آتير يفرض
الصمت على ميرل .

وقال المريكيز لميرل مردداً الكلمات التي قالها عنه :
« وهكذا الرجال كشجر الاكيدنيا لا ينضجون إلا على القش » .
قال ذلك وبإشارة من يده دله على موكب كامل من الزرق مرتين على بيدر
من القش مضرجين بدمائهم ، حيث كان الناعقون لا يزالون يجهزون على الاحياء منهم
ويجردون الاموات من ملابسهم بسرعة فائقة ، وأردف المريكيز قائلاً لميرل :
- كنت على حق حين قلت لك ان جنودك لن يبلغوا البيرين ، كما اني أعتقد
ان رأسك سيمتليء بالرصاص قبل ان يمتليء رأسي به . فما رأيك ؟

كان مونتوران متعطشاً للانتقام ، كان مستهيناً بكل شيء ، سخرته
بالمغلوب ، وحشيته ومكره وخداعه وحتى تلك الهزيمة العسكرية التي تمت
بدون أمر منه ، كل هذه كانت تتجاوب مع تمنيات قلبه الدفينة ، في غضبه شاء
ان يحو فرنسا بأسرها . كان امامه الزرق المذبوحون وبين يديه الضابطان على
قيد الحياة وجميعهم أبرياء مما اراد « الفار » ان يثار له . فكانوا بالنسبة اليه
كأوراق اللعب التي يلتمها المقامر الخاسر في شدة قنوطه .

قال جيرار للمريكيز بعد ان شاهد الجنود غارقين بدمائهم ، عراة :
- لأهون علي ان اهلك هكذا من ان أنتصر مثلك ذلك الانتصار الذي
احرزته بقتلهم غدرأً وجبنأً .

- كما قتلتم لويس السادس عشر ، اجابه المريكيز على الفور .
- أيها السيد ، اجاب جيرار ، يوجد في دعوى الملك أسرار لن تفهمها قط .
- أتهم الملك ايها الضابط ؟ قال المريكيز بغضب .
- وانت ، أتحارب فرنسا ، قالها بلهجة احتقار .
- هراء .
- عاق ! قاتل امك ! .

- عاق ! قاتل الملك !

وهنا صرخ ميرل مخاطباً جيرار بقوله :

- اتؤخر وقت موتك للمخاصمة باللسان .

- صحيح ، قال جيرار بفتور وهو يلتفت نحو المركيز واطاف :

- ان كنت تنوي قتلنا ، تكرم واقتلنا في الحال على الاقل .

- احسنت يا جيرار ، انما يا صديقي ، اذا كانت الرحلة بعيدة وليس

بالامكان تناول الفطور في اليوم الثاني ، فلنتعش على الاقل ! قال ميرل ..

ودون ان يتلفظ جيرار بكلمة واحدة انطلق بكبر وعنفوان نحو السورفسدد

عليه بيل ميش فوهة بندقيته وهو يتطلع في المركيز الذي بقي جامداً ، فاعتبر

سكوته امرأ ، وفي الحال خر جيرار مضرجاً بدمه واسرع مارش آتير يقامم

بيل ميشل ثياب القتل وكفرايين جائعين راحا يتقاتلان على الجثة قبل ان تبرد .

وقال المركيز لميرل الذي شاء ان يحتفظ به للمبادلة :

- ان شئت ان تتعشى يا كابتن فانت حر . في ان ترافقني الى المائدة .

وسار الكابتن ميرل بتهاون الى جانب المركيز وهو يقول بصوت خافت

كمن يلوم نفسه :

- تلك البنت الشيطانة هي السبب في كل هذه المأساة ، ترى ماذا عساه

يقول هولوا ؟

- بنت ؟! صرخ المركيز بصوت عال ، على ذلك فهي « بنت » خفيفة فعلاً ؟

بدا الكابتن وكأنه قتل مونثوران الذي كان يتبعه اصفر اللون مغلوباً على

أمره ، حزيناً حتى الموت يمشي بخطى متثاقلة .

هذا ، في حين كانت تجري في صالة الطعام مسرحية اخرى اتخذت اثناء غياب

المركيز طابعاً مشؤوماً الى حد ان الانسة دو فرنوي توقعت تنفيذ حكم بالاعدام

اصدرته ضدها عدوتها اللدودة في غياب شفيعها المركيز .

على دوي الرصاص في الخارج ، نهض الضيوف لاستطلاع الخبر ما عدا مدام

دو غوا التي خاطبت الجميع بقولها :

- اجلسوا ، لا شيء هناك يستحق الاهتمام ، أتباعنا يقتلون الزرق !
واذ رأيت مدام دو غوا المركز خارجاً ، نهضت وقالت للحضور :
- هذه هي الفتاة التي جاءت لتختطف «الفار» ، لتحاول تسليمه الى الجمهورية!
فردت الآنسة دو فرنوي عليها بقولها :
- لو كان في نيتي تسليمه لفعلت ذلك منذ الصباح في عشرين مناسبة سنحت ،
لكني أنقذت حياته ودافعت عنه .

وما كادت ماري تنهي كلمتها حتى أطبقت عليها مدام دو غوا بسرعة البرق
وأمنعت فيها ضرباً ولكماً ، مزقت ثيابها وانتزعت من مكان خفي في جسدها
رسالة مخفية وأنشبت يديها في خناقها وتركت آثار اظفارها على يديها وهي تعاني
رغبة جامحة في اذاعتها ذل الدعارة المقيت . وأثناء المقاومة الضعيفة التي أبدتها
ماري حيال تلك المرأة الفاجرة تقطعت ازرار معطفها فسقط عن جسمها كما
انحل رباط شعرها فتبعثر وسقط على وجهها .

امتقع وجه الفتاة المسكينة بحمرة الحجل وخطت الدموع دروباً على
خدنها وزادت في اضطرام عينيها ، ثم وقفت وهي ترتجف امام الضيوف في منظر
مؤثر يدفع حتى القضاة الى الحكم ببراءتها بمجرد النظر الى اوجاعها وهوانها .
كان وقع هذه الكراهية سيئاً الى حد ان مدام دو غوا لم تجد أذناً صاغية
عندما صرخت ، سكرى بخمرة النصر :

- أرايتم ايها السادة ؟ هل افترت على هذه المخلوقة الفظيعة ؟
- ليست فظيعة الى هذا الحد ، قال الضيف الجسيم مثير هذه الكارثة . واطاف :
- ما احبها الي من فظيعة !
واردفت المرأة الطاغية قائلة :

- اليكم مضمون امر موقع بامضاء لابلاس ومصادق عليه من قبل دو بوا .
لدى سماع هذين الاسمين رفع الجميع رؤوسهم ، وتابعت مدام قراءة الامر :
« على المواطنين الضباط العسكريين من جميع الرتب والدرجات اداريين
ونائبين عامين ونقابيين الخ ... في اقاليم الثوار وبنوع خاص في الأماكن التي

يرتادها المركز دو مونتوران رئيس قطاع الطرق الملقب بالـ « غار » ان ينجدوا
ويعاونوا المواطنة ماري دو فرنوي وان ينفذوا اوامرها كل بحسب نطاق
عمله الخ .

وزادت على ذلك قولها :

– ابنة الاوبرا تتخذ اسماً شهيراً تغطي به عهرا .
وقال البارون دو غونيك ساخراً .

– لا تعادل بين الفريقين اذا كانت الجمهورية تستخدم جيالات من هذا
العيار ضدنا .

– ولا سيما فتيات بلا رصيد .. قالت مدام دو غوا .

– كيف ؟ سأل الفارس دو فيسار ، ان الآنسة تملك مزرعة كبيرة تدر عليها
ملاً وفيراً .

وقال الأب غودن :

– قد تكون الجمهورية تحب الضحك بارسالها لنا فتيات هوى للمتعة .

مدام دو غوا : ولكن ، مع الاسف ، فالآنسة تبحث عن ملذات قاتلة .

وقالت الضحية وهي تنهض بعد ان اصلحت بعض زينتها :

– كيف بقيت على قيد الحياة الى الآن يا مدام ، (ولم تقتلك ملذاتك ..) ؟

هذه الاهانة الجارحة اتخذت طابع الاحترام لضحية فخورة ، وفرضت

الصمت على الجمعية ، ولمحت مدام دو غوا ابتسامة ساخرة على شفاه الزعماء

الملكيين ، فخافت . وقبل ان ترى المركز والكابتن في طريقهما الى ردهة

الاجتماع ، نادى على بيل ميش وقالت له وهي تشير الى الآنسة دو فرنوي :

خذها ، انها نصيبي من « الجبنة » اهبا لك ، اصنع بها ما تشاء .

ما كادت المرأة تتلفظ بهذا الكلام حتى اضطرب جميع من في الصالة . فقد

ظهر من وراء ظهر المركز رأسا مارش آتير وبيل ميش وبهما انجلي العقاب

بابشع مظهر .

في الزاوية وقفت فرانسيس جامعة يديها كأنها تصلي صامئة جامدة كأن على

رأسها الطير . ولما استعادت الأنسة دو فرنوي وعيها ، ألقنت نظرة جافة على المجتمعين ، وبازدراء وكبر اخذت الرسالة من يد مدام دو غوا وانطلقت نحو الباب حيث رأت المريكز واقفاً كالتمثال فاقداً مروءة الدفاع عنها في محنتها هي الجريمة الكرامة الكارمة للحياة .

هذا الرجل الذي وهبته قلبها سمع الاهانات التي وجهت اليها وشهد التنكيل الذي لحق بها ولم يهرع لنجدتها او يعمل شيئاً من اجلها ، قد يمكن ان تغفر له منها أساء اليها .. انما امتعاضا كان يفوق حد التصور بسبب رؤيته إيها في حالة زرية من الذل والهوان .. رمته بنظرة ملؤها الحقد والكراهية لأنها شعرت في هذه اللحظة ببيل جامع لانتقام رهيب يتولد في قلبها . رأت الموت وراها فهبت في رأسها عاصفة من الجنون وغلى الدم في عروقها وتوهمت العالم بأسره شعلة من نار ، وعندئذ ، بدلاً من ان تقتل نفسها ، تناولت السيف وطعننت به المريكز . إلا ان الطعنة جاءت بين الذراع والخاصرة ، وكان ان قبض « غار » على معصمها وجرحها خارج الصالة بمساعدة بيل ميش الذي انقض على تلك المخوفة الهائجة حين حاولت قتل المريكز .

امام هذا المشهد ، أطلقت فرانسين صرخة مدوية :

- بيار !! بيار ؟! بيار ! ولحقت بسيدتها .

اما المريكز ، فقد ترك المجتمعين في حيرة وخرج الى الردهة وهو لا يزال مسكاً بيد المرأة ضاغطاً عليها بحركة تشنجية فيما اصابع بيل ميش المتوترة تكاد تخترق العظم ، ومع ذلك لم تحس بغير يد الرئيس الشاب الذي نظرت اليه ببرود وقالت له :

- انك تؤلمني . وكان جوابه ان تأمل طويلاً في وجه عشيقته التي قالت له :

- اعندك شيء للتأربنذالة كما فعلت تلك المرأة ؟

واذ رأت جثث الجنود ممددة على القش ، ارتعدت وقالت بسخرية ميمتة ..

ايه ! ايه ! ما اجمله من يوم !! هذا هو وعد نبيل وقسم شريف !..

- أي نعم ، يوم جميل ... وبلا غد . قال المريكز ذلك وترك يد الأنسة

دوفرنوي بعد ان زود بنظرة اخيرة تلك المخلوقة الرائعة الجمال التي كاد يعجز عن التخلي عنها . لم يشأ أي من الحبيبين المتكبرين ان يلين امام الآخر . ربما كان المركيز يتوقع دمة . إلا ان عيني الفتاة أمسكتها بآباء وغطرسة ، فاستدار بجدة تاركاً لبيبل ميش فريسته ، فقالت له :

— الله يصغي الي يا مركيز ، اطلب منه تعالى لك يوماً بلاغدا !
تخير بيل ميش واربتك حيال فريسته الجميلة وقادها برفق ممزوج بالاحترام والسخرية . فتنفس المركيز الصعداء ودخل القاعة عارضاً على الضيوف وجهاً شبيهاً بوجه ميت مفتوح العينين .
لم يجد ممثلو هذه المأساة تفسيراً لوجود الكابتن ميرل بينهم ، فراحوا يتأملونه باستغراب مستشرين بعضهم البعض بالنظر . واذ لاحظ ميرل دهشة الناعقين حوله خاطبهم دون ان يخرج عن طبعه المرح انما بابتسامة مريرة قائلاً :
— لا أظنكم ايها السادة ترفضون كأساً من النبيذ من رجل في آخر مرحلة من حياته .

في هذه اللحظة ظهر المركيز ثانية في الصالة بوجهه الشاحب ونظره التائه ، فابتدره ميرل بقوله :

— سوف ترى كيف يجر الميت الاحياء .
فقال المركيز بحركة المستيقظ من سبات :
— هوذا انت مستشاري الحربي العزيز . قال ذلك وعرض زجاجة النبيذ ليملاً كأسه فشكره ميرل بقوله :

— شكراً ايها المركيز المواطن قد اخرج عن الوعي .
تجاه هذه البادرة ، خاطبت مدام دوغوا المدعويين بقولها :
— لنؤمن له الحلوى .. فأجابها الكابتن :
— انك فظيعة في انتقاماتك يا مدام ، انسيت ان صديقي القاتيل في انتظاري ولا يمكنني ان اخلف موعدني معه ؟
وهنا تدخل المركيز وقال له وهو يرميه بقفازه .

- اليك بهذا الجواز ، فانت حر طليق . ان قناصي الملك يعرفون انه لا يجوز قتل جميع حيوانات الغابة .

- أنطلق حياً؟ ولكنك تخطيء . انني سأجد في طلبك ولن ارحمك . قد تكون ماهراً ولكنك لا تساوي جيرار ، ورأسك لا يتساوى مع رأس جيرار لكنني اطلبه وسأحصل عليه .

- أكان على عجل من امره الى هذا الحد !

- الوداع ، يمكنني ان اشرب الكأس مع جلادي ، لكن لا اريد البقاء مع قاتلي صديقي . قال الضابط ميرل ذلك وخرج وسط دهشة المدعويين .

وهنا طرح الغار ببرود على المدعويين السؤال التالي :

- ما رأيكم ايها السادة ، بالقضاة والجراحين والمحامين الذين يسوسون الجمهورية ؟

فأجاب الكونت دوفان :

- انهم قوم بلا اخلاق ولا تهذيب وهذا احدهم يستهين بنا .

كان لانسحاب الضابط ميرل سبب خفي . فتلك مخلوقة المهانة المحطمة التي قد تكون ماتت او كادت ، قد تركت في نفسه اثرأ لا ينتسى . وقد قال في نفسه وهو خارج :

« اذا كانت من بنات الهوى فهي ولا شك بنت فوق العادة وسأجعل منها زوجة لي » .

كان ضعيف الامل بتخليصها من ايدي جلادها ، ومع ذلك عقدالنية على انتزاعها ووضعها تحت حمايته . ولكن ، مع الاسف ، حين وصل الى الشرفة رأى الساحة خالية . نظر حول المكان فلم ير احداً . اصاخ السمع ، فلم يسمع سوى قهقهات الناعقين في البساتين يعاقرون الحجرة . وخاطر بالتجول في الجناح المشؤوم حيث اعدم الجنود الجمهوريون ومن هذا المكان ، وعلى ضوء الشموع البعيد استطاع ان يميز مختلف تشكيلات قناصة الملك . لم يجد بينهم لا بيل ميش ولا مارش آتير ولا فرانسين ولا عرف مكانهم انما ، في هذه اللحظة ، شعر بيد تشده برفق

من سترته واذا التفت ، شاهد فرانسين جاثية على ركبتيهما فسألها على الفور :

– اين هي ؟

– لست ادري ، لقد طردني بيار وطلب مني ألا اتحرك من مكاني .

– من أي جهة ذهبوا بها ؟

– من هنا ... ودلته على الطريق المعبّدة .

لاحظ الضابط وفرانسين في الاتجاه انعكاس ظلال على سطح مياه البحيرة في ضوء القمر وتعرفا الى تكاوين نسائية خفق لها قلبهما وان بدت غير واضحة ، وقالت الفتاة البريتونية :

– انها هي .

ظهرت الأنسة دوفرنوي واقفة وسط بضعة اشخاص تبين من حركاتهم انهم في نقاش وخصام ، فقال الضابط :

– هناك عدة اشخاص ، ولكن ، لا بأس ، هيا بنا .

– انك تعرض نفسك للموت بلا فائدة ، قالت فرانسين .

– لقد مت مرة اليوم !

ومشى الاثنان نحو البوابة التي جرى المشهد وراءها . وفي وسط الطريق توقفت فرانسين عن متابعة السير وقالت :

– كلا ، لن ابتعد عن هنا ، لقد قال لي بيار ان لا اتدخل ، وإلا افسدنا كل

شيء ، افعل ما تشاء يا سيدي الضابط على ان تبتعد عني ، اذا رأك بيار يقربني قتلك .

في هذا الوقت ظهر بيل ميش خارج البوابة ، استدعى الحوذي المقيم في الاصطبل ، وفجأة لحظ الضابط فصرخ وهو يسدد بندقيته نحوه :

– يا حنة القديسة . لقد كان المدير على حق حين قال لنا ان الزرق يوقعون

المعاهدات مع الشيطان ، مهلاً ، مهلاً ، سأبعثك حيا !

واذ رأى ميرل الخطر يتهدده صرخ قائلاً :

– مهلاً ، حياتي مؤمنة ، هوذا قفاز رئيسك .

– أي نعم ! الأرواح تتكلم ، أما أنا فلن اضمن حياتك . قال ذلك واطلق
 الرصاص وأصاب رأس الضابط الذي سقط على الفور .
 وحين اقتربت فرانسين من الضابط سمعته يتمم هذه الكلمات :
 – « أحب الي البقاء معهم من ان اعود دونهم » .
 وانقض الناقق على جثة القتيل ليعريه من ثيابه وهو يقول :
 – من حسن الحظ ان هؤلاء الاشباح العائدين الى الحياة يعيشون احياء بشياهم .
 واذ رأى القفاز ، بيد الضابط ، وقف مذهولاً ، وقال :
 – ليت امي لم تلدني ! ثم اختفى بسرعة العصفور .

لفهم هذا اللقاء المشؤوم بالنسبة للضابط ، ينبغي ان نتبع الآنسة دو فرنوي
 منذ ان سلها المركز الى بيل ميش ، فقد أمسكت فرانسين بذراع مارش آتير
 وطالبتة باكية بالوعد الذي قطعه لها . وعلى بعد بضع خطوات شوهد بيل ميش
 يجر ضحيته وراءه كما يجر اي حمل ثقيل ، وما ضحيته سوى ماري التي التفتت نحو
 البحيرة لتجد نفسها في قبضة فولاذية وارغمت على اتباع الناقق الذي كثر
 التفاتته نحوها ليجبرها على حث الخطى وفي كل مرة يلتفت نحوها كانت تساوره
 فكرة سارة تترك على شفتيه ابتسامة مقببة وقد هتف بصفاقة قائلاً :
 – انها بنت نفيسة حقاً .

سمعت فرانسين هذا الهتاف فانحلت عقدة لسانها :

– بيار ؟

– ماذا ؟

– اتراه سيقتل الآنسة ؟

– ليس في الحال . أجاوب مارش آتير .

– ولكنها لن تدعه يفعل .. واذا ماتت مت أنا وراءها .

– اراك تحبينها كثيراً ، فلتمت .

– اذا كنا اغنياء وسعداء فالفضل في ذلك يعود اليها ، ولكن لا بأس ، الم

تعديني بانك ستمنع عنها كل اذية ؟

- سأحاول ولكن ، ابقني هنا ، ولا تتحركي .
وفي الحال افلقت ذراع مارش آتير ، وبعد قليل رأت فرانسين مارش آتير
ينضم الى رفيقه الذي كان يدفع الضحية للصعود الى العربة ، وسمعتة يقول له :

- ماذا ستفعل بكل هذا ؟
- لقد وهبتي « الست الكبيرة » هذه المرأة وكل ما لها فهورلي .
- حسناً ، بالعربة تحصل على المال ، ولكن المرأة ؟ انها ستنتقض عليك
كالهرة .

قهقه بيل ميش ضاحكاً وقال :
- احملها الى بيتي واوثقها .
- حسناً ، فلنقطر الجياد .
بعد قليل صعد بيل ميش الى العربة وجلس دون ان يلحظ ان الآنسة دو
فرنوي تستعد لالقاء نفسها في المستنقع فناداه مارش آتير :

- هيه يا بيل ميش !
- ماذا ؟
- سأشترى منك كل غنيمتك .
- أتترأ ؟ قال الناعق وهو يسحب أسيرته من «تنورتها» كما يفعل اللحام بالثور
الذي يحاول الهرب .
- دعني أراها فأقول لك الثمن .

وأرغمت الفتاة التمسعة على النزول من العربة ووقفت بين الناعقين اللذين راحا
يتأملانها بشراهة ، وبعد ان اطلق مارش آتير زفرة عميقة قال لبيل ميش :
- أقبل ٣٠ ليرة رزقاً حلالاً لك ؟

- احقاً ؟ قبلت ، انها تساوي هذا المبلغ ، ولكن العربة لمن تكون ؟
- لي ، اجاب مارش آتير بصوت رهيب ينبىء بالسيادة التي تفرضها شرسته
على جميع رفاقه .

- ولكن ، ماذا اذا كان في العربة ذهب ؟

- ألم تقل انك قبلت ؟

- اجل .

- اذن اذهب واستدع الحوذي الموجود في الاصطبل .

- ولكن ، ربما كان في العربية ذهب .

- هل في العربية ذهب ! سأل مارش آتير الآنسة دوفرنوي .

- فيها مئة ليرة لي .

تبادل الناعقان النظر ثم دنا بيل ميش من اذن مارش آتير وأسرّ قائلاً :

- لن نتقاتل من اجل امرأة من الزرق ، لنلقها في البحيرة بعد ان نربط في عنقها حجراً ولننتقاسم المئة ليرة .

- اعطيك المئة ليرة من نصيبي من فدية دورجمون ، قال مارش آتير وهو يركم زفرة لهذه التضحية ..

أطلق بيل ميش هتاف الاستحسان وهرع ليأتي بالحوذي . وكان سروره طالع شؤم على الضابط التمس الذي التقاه في الطريق وقتله كما ورد .

وبساعه الطلق الناري هزع مارش آتير الى المكان حيث وجد فرانسين جاثية ويدها مضمومتان تصلي قرب جثة الضابط ، فابتدراها بقوله :

- اسرعي الى سيدتك ، لقد نجت !

وذهب بنفسه في طلب الحوذي وعاد بأسرع من البرق ، واثناء مروره ، مرة اخرى ، أمام جثة ميرل شاهد قفاز الغار في قبضة الميت فصرخ :

- آه ! آه ! لقد اطلق بيل ميش رصاصة الخيانة . لم يكن واثقاً من انه يعيش من مداخله ، فقتل لينهب !

انترع القفاز وقال للآنسة دو فرنوي التي كانت قد جلست في العربية مع فرانسين :

- اليك بهذا القفاز ، فاذا هاجمكما احد من رجالنا اصرخي :

- هيه الغار ! واعرضي هذا الجواز فلا يصيبك اذى .

والتفت نحو فرانسين وقال لها وهو يشد يدها :
- ها قد تصافينا مع هذه المرأة ، تعالي معي ودعيها وشأنها .
فأجابته بصوت كئيب !
- اتريدني ان اتخلى عنها الآن ؟
حك مارش آتير جبينه واذنيه . ثم رفع رأسه وكشف عن عينين غضوبتين
تعبران عن شرسته وقال :
- الحق معك ، سأتركك معها لمدة ثمانية ايام ، فاذا انقضت هذه المدة
ولم تكوني معي ... لم يكمل كلمته ، انما خبط يده على بندقيته مصوباً
فوهتها نحو سيدتها مهدداً ثم انسحب دون ان يطلب جواباً .
وما كاد الناعق يسير في طريقه حتى سمعت الفتاتان صوتاً عميقاً كأنه من
اعماق المستنقع ينادي :
- مدام ، مدام ..
ارتجف الحوزي والمراأتان من شدة الخوف . فقد طفت بعض الجثث حتى
ذلك المكان . وظهر احد الرجال الزرق ، وكان مختبئاً وراء شجرة وقال :
- دعوني أختبئ في صندوق العربية حتى لا اقتل . فكأس الحجر الملعونة التي
شاء «لاكلي دو كور» ان يشرها كلفت أكثر من ضحية ، ولو انه اقتدى بي وتحايل
لما طافت جثث هؤلاء الرفاق فوق المياه .

فيما كانت هذه الاحداث تجري في الخارج ، كان الرؤساء القادمون من فاندو
ورؤساء الناعقين يتذاكرون والكأس في اليد ، برئاسة المركزي دو مونتوران .
وبتأثير الحجر المعتقة تطور النقاش في آخر الوليمة وتحول الى خصام . فائشاء
تناول الحلوى ، وفي الوقت الذي تقررته فيه خطة العمليات الحربية ، شرب
الملكيون على صحة ال «بوربون» ، وفي هذه اللحظة دوت رصاصة بيل ميش التي
أطلقها على ميرل كصدى لحرب وبيلة يضمورها هؤلاء المتآمرون ضد الجمهورية .
ارتعشت مدام دو غوا ابتهاجاً لمجرد تفكيرها بأنها تخلصت من غريماتها ، وتبادل

المدعوون النظرات بصمت ونهض المركيز عن المائدة وخرج ، فقالت مدام دو غوا بسخرية .

– لقد كان يجبها ، اذهب وكن برفقته ياسيد فوتتين ، ان تركناه لهما فسيصبح كئيباً عبوساً اشد ازعاجاً من الذباب .

قالت مدام دو غوا ذلك وأطلت من النافذة على الساحة لترى جثة ماري ، ومن هنا استطاعت ان تميز من خلال اشعة القمر العربية المناسبة بسرعة فائقة بين بساتين التفاح . لقد كان شال الآنسة دوفرنوي يلوح خارج العربية في الهواء . امام هذا المشهد ، اهتمت فتركت الاجتماع حانقة ، وشهد المركيز متكئاً على الشرفة ، غارقاً في تأملات قائمة وهو يرى نحواً من مائة وخمسين ناعماً عادوا بعد ان تقاسموا الفينمة ، ليقضوا على آخر نقطة خمر ، وعلى آخر رغيف من الارغفة المحصنة للزرق . هؤلاء الجنود الذين تعقد عليهم الملكية الآمال ، كانوا يشربون الخمر معاً ، فيما كان سبعة او ثمانية جنود على الضفة المواجهة للشرفة يتلهون بربط الحجارة في اعناق جثث الزرق وقذفها الى اعماق البحيرة .

هذا المشهد وغيره من المشاهد ، التي تمثل الاعمال التي كان يقوم بها هؤلاء المحاربون المتهادون ببدايتهم الغربية كانت جديدة وفريدة بالنسبة للسيد دو فوتتين الذي كان قد اعتاد رؤية الثوار الملكيين في فائده على أتم ما يكون من النظام والنبيل والانضباط ، اغتم هذه الفرصة ليقول للمركيز دو مونتوران :

– ماذا عساک تأمل من هؤلاء الاغبياء ؟

– لا شيء يستحق الذكر . اليس كذلك يا عزيزي الكونت ؟

– هل يستطيعون القيام باي مناورة حيال الجمهوريين ؟

– كلا .

– هل يفهمون وينفذون اوامرک على الأقل ؟

– كلا .

– واي فائدة لك منهم اذن ؟

– ان اغمد سيفي في صدر الجمهورية ، ان احصل بواسطتهم على فوجير

بثلاثة ايام وعلى بريتانيا باكملها بعشرة ايام . واطاف بصوت عذب :

- هيا يا سيدي، اذهب الى فاندو، وليزحف دوتيشان وسيزانه والأب برنيه
بسرعة كسرعة زحفنا، على ألا يتفاوضوا مع القنصل الاول كما قيل لي. ثم قال
وهو يصفح الكونت :

- سنكون في مدى عشرين يوماً على بعد ثلاثين فرسخاً من باريس .
- ولكن الجمهورية تهاجمنا بستين الف رجل وعلى رأسهم الجنرال برون .
- بستين الف رجل؟ اصحيح ماتقول؟ وماذا تركت لبونا برت لحملة ايطاليا؟
اما من جهة الجنرال برون، فانه لن يأتي، فقد وجهه بونا برت ضد الانكليز في
هولندا واحل محله هنا الجنرال هيدوفيل صديق صديقنا بارا . اتفهمني؟ ..
لدى سماعه هذه الكلمات حدج السيد دو فونتين المركيز بنظرة عميقة كأنه
يلومه على ايهامه بعدم فهم الكلمات المبطنة التي وجهها اليه وعندها تفاهم النبيلان
الا ان الرئيس الشاب اجاب بابتسامة طويلة على الافكار التي عبر عنها دو فونتين
بنظرة بقوله :

- هل تعرف اسلحتي؟ شعاري في الحياة هو :

- « المثابرة حتى الموت » .

واخذ الكونت دو فونتين يد مونتوران مصافحاً وقال :

- لقد تركت وانا مشرفٌ على الموت في « كاتر شيان » . فلا ترتب بي، بل

ثق بخبرتي، لقد تغيرت الاحوال .. وهناتدخل لا بيلارديير وقال :

- انك شاب ايها المركيز، اصغ الي، الم تبسح املاكك ...

- هل هناك اخلاص بدون تضحية؟

- هل تعرف الملك؟

- أجل .

- انك تعجبني .

واردف المركيز قائلاً :

- الملك هو حامي العقيدة وانا اقاتل من اجل العقيدة والايان .

وتفرق الجميع . اقتنع الكونت دو فونتين بضرورة التريث حيال الاحداث

مع الاحتفاظ بالايان في القلب . وذهب لا بيلارديير ليعود الى انكلترا ومونتوران

ليقاتل بضاوة و ليحمل سكان فاندِه على التعاون معه في العمليات الحربية معتمداً على الانتصارات التي يحلم بها .

هذه الاحداث أثارَت الكثير من الانفعالات في قلب الآنسة دوفرنوي فارتمت شبه مينة داخل العربة وهي تشير للحوذي بالذهاب الى فوجير . ولما كان الحوذي يخاف من مغامرة جديدة أسرع السير على الشارع الكبير فوصل بعد حين الى قمة البلين .

اجتازت ماري دوفرنوي وسط ضباب الصباح وادي كويسنون حيث بدأت هذه القصة . ومن أعالي البلين رأت الصخرة التي تقوم عليها مدينة فوجير ، واذ شعرت ماري بقرصة البرد ، تذكرت ذلك الجندي المسكين الذي كان غثبناً خلف العربة فألحت عليه ، رغم رفضه ، ان يجلس بالقرب من فرانسين ، إلا ان منظر فوجير غير مجرى تفكيرها مؤقتاً . المهم في الامر ان المخفر على مدخل سان ليونار يمنع المجهولين من دخول المدينة ، ولذلك تحتم عليها ان تبرز بطاقةها الوزارية وبذلك وجدت نفسها في مأمن من كل اعتداء وهي تدخل المكان حيث السكان كانوا هم المدافعين الوحيدين عن المدينة . ولم يجد لها الحوذي مأوى أفضل من نزل المخفر . وهنا قال الازرق الذي خلصت حياته من الموت للآنسة دوفرنوي :

— يا سيدتي ، اذا احتجت يوماً ما الى تسديد ضربة قاتلة الى أي وقح فحياتي لك . انني في امان هنا . اسمي جان فالكون الملقب بـ « بوبيه » ، رقيب في فرقة الارانب التابعة لهولو ، الطابور الثاني والسبعون المسمى « الماينيز » . اصفحي ياسيدتي عن غروري وجراتي ، إلا أنني لا املك ما اقدمه لك سوى نفسي . قال هذا واستدار على عقبه ومشى وهو يصفر فقالت ماري لنفسها :

— بقدر ما تتوغل في المجتمع بقدر ما نصادف عواطف نبيلة مجردة ، هوذا مركزيز يمتني لأنني وهبته الحياة ، ورقيب بسيط... ولكن لندع كل ذلك جانبا . حين أوت الباريسية الحسنة الى سريرها الدافئ انتظرت خادمتها الامينة كلمة تحبب اعتادتها من سيدتها ولكن بدون جدوى ، واذ رأتها ماري واقفة قربها قلقة البال قالت لها والغصة في القلب :

- ويسمون هذا نهراً يا فرانسيس !! اراني هرمت بهذا اليوم الواحد عشر سنوات .

في صباح اليوم الثاني حضر كورنتان فأذنت له ماري بالدخول قائلة لفرانسيس :
- آلام نفسي فوق مستوى الوصف يا فرانسيس ، حتى لم تعد رؤية كورنتان تؤثر بي .

ولكنها ، بمجرد رؤيتها هذا الرجل عانت ، وللمرة الالف ، كراهية غريزية له لم تتمكن معرفة سنتين ان تلتفها .
قال كورنتان :

- لقد بت موقناً بالنجاح .. واذن ، لم يكن « هو » الذي أمسكته ! .
فأجابته ماري ببطء وألم :

- لا تحدثني يا كورنتان عن هذه القضية إلا اذا تحدثت انا عنها اولاً .
وراح الرجل يتمشى في الغرفة ملقياً على الآنسة دو فرنوي نظرات فاحصة محاولاً استجلاء خفايا أفكارها وقال لها بعد فترة سكوت :

- لقد توقعت هذا الفشل ، اذا شئت ان تجعلي مقر قيادتك العامة هنا فقد جمعت المعلومات اللازمة ، نحن هنا في قلب وكر الناعقين ، فهل تريد البقاء هنا؟
اجابت بحركة ايجابية من رأسها أتاحت لكورنتان ان يتبين تخمينات سابقة ، بعضها صحيح ، عن الاحداث التي جرت في النهار فقال لها :

- استأجرت لك بيتاً لم يجرؤ احد على بيعه لأنه يخص مهاجراً صعب المراس .
وهو قائم قرب كنيسة القديسة ليونارد يطل على مناظر جميلة ، يمكن الاستفادة من هذه « الزريبة » فهي صالحة للسكن ، فهل تذهبين ؟
- في الحال .

- ولكن ، يلزمي بضع ساعات من الوقت لأرتب وأنظف البيت لكي تجدي كل شيء على ما يروقك .

- لا بأس ، اسكن في الدير او في السجن بكل طيبة خاطر ، انما احرص على ان تجعلني ، هذا المساء ، ارتاح في عزلة تامة . هيا اذهب ودعني وشأني .

وجودك يسبب لي ضيقاً في الصدر . بودي ان اختلي بفرانسين ، يمكنني ان اتفاهم معها اكثر مني مع نفسي ، مع السلامة .. هيا ، اذهب .. اذهب .

تدافعت كلماتها بسرعة الى شفيتها بمزيج من الاستبداد والتعجب والألم ، ونمت في الوقت ذاته عن سكينه تامه ، اذ لا بد للنحاس من ان يكون قد صنف على مهل انطباعاتها لليوم السابق الذي زين لها الانتقام وان كانت بعض التعابير الغامضة ما فتئت تملو وجها ، فذلك لانها ما برحت تستنجد بحجاسة خفية فيها لدفن اقدس العواطف في النفس بتلك المداجاة التي تسمح بالابتسام عند تقدير الحسائر التي حلت بضحايا تلك العواطف .

لقد اختلت بنفسها منشغلة في البحث عن كيفية اعادة التركيز اليها حياً يرزق . لأول مرة تعيش هذه المرأة رغباتها ، ولكن ، من هذه العيشة لم يبق لها سوى أمنية واحدة هي الثأر ، ثأر غير محدود ، ثأر ناجز بات ، ذلك كان هما الوحيد وشهوة قلبها الفريدة .

تكلمت فرانسين ولكن كلماتها لم تلق جواباً من ماري التي بدت نائمة وعيناها مفتوحتان . وانتهى ذلك النهار الطويل دون ما حركة او عمل يشير الى نطاق ماري الخارجي ، لقد ظلت نائمة إلا انها أطلقت في المساء هذه الكلمات وهي تنظر الى فرانسين :

— يا صغيرتي ، امس فهمت ان الانسان يعيش للحب ، واليوم ادركت ان بإمكان الانسان ان يموت من اجل الثأر ، اجل ، من اجل البحث « عنه » حيث يكون ، ومن اجل لقاء جديد ، ومن اجل اجتذابه الي ، ابدل حياتي . ولكن ، اذا لم اجده في مدة بضعة ايام ، جاثياً على قدمي ذليلاً خاضعاً ، ذلك الرجل الذي احتقرني ، اذا لم اجعل منه خادماً لي ، فساكون دون كل شيء ، لن أكون امرأة ولن اكون انا نفسي .

البيت الذي اقترحه كورنتان على الأنسة دو فرنوي احتوى على جميع اسباب الرفاهية والأناقة المتأصلة في تلك الأبنية ، فقد ضمنه كورنتان كل ما يرضيها ، برغبة الحبيب المتودد لحبيبته او بعبودية رجل مقتدر يحاول ارضاء مرؤوس محتاج

اليه .. وغداة اليوم الثاني جاء يقترح على الآنسة دو فرنوي الذهاب الى ذلك الفندق المرتجل .

في هذا المنزل لم يتغير شيء على الآنسة دو فرنوي سوى انها استبدلت من الفراش الحشن فراشاً مريحاً على « صوفا » اثرية جميلة ، اما سائر ما اعده كورنتان لها من اسباب الراحة ، والترفيه ، فقد كان مألوفاً عندها ولم ترفيه شيئاً جديداً . ويبدو ، وكان ثمة حلاً جعلها تتجاوب مسبقاً مع هذا البيت الذي سكنته بمقددها وكان بإمكانها ان تسكنه بجبها . فقالت :

– على الاقل لم احرك فيه شيئاً لتلك الشفقة المهينة التي تقتل ، ولست مدينة له بالحياة .. وتبتهف اليانس الطعين هتفت من اعماقها :
– آه !! يا حيي الاول والاخير والوحيد ، اي فراق هو هذا ! واندفعت نحو فرانسين ملتاعة وقالت :

– هل تحبين ؟ أي نعم تحبين ، لقد تذكرت ، انا سعيدة لكوني اعيش مع فتاة تفهمني ، آه يا حبيبتي فرانسين ألا يبدو لك الرجل مخلوقاً فظيماً ؟ ايه ! قال انه يحبني ! لم يثبت امام اتفه التجارب ، ولكن ، لو ان العالم بأسره رفضه ، فله قلبي مأوى ، ولو ان العالم كله اتهمه بفرية ، لدافعت عنه . بالأمس كنت أرى العالم مليئاً بالمخلوقات ، تروح وتجيء دون ان احفل بها . لقد كان العالم حزيناً بنظري وليس مخيفاً ، اما الآن ... ما هو الكون بدوني ؟ هو ، اذا ، يعيش بعيداً عني بعيداً عن نظري ، لا اكله ولا اسمه ولا ألمسه ولا أضمه ... آه ! سأخفقه وهو نائم ...

وهنا تأثرت فرانسين . وبعد ان تأملت سيدتها ملياً قالت لها :

– أنتقلين الرجل الذي تحبين ؟

– طبعاً ، اذا عاد لا يحبني .

وبعد ان تلفظت بهذا الكلام خبأت وجهها بيديها وجلست صامتة . وفي اليوم التالي مثل امامها فجأة رجل لم يعلمها عن قدمه قبلاً ، رجل بوجه صارم هو هولو . تطلعت فيه وارتجفت :

– أأتيت لتسألني عن اصحابك ؟ لقد ماتوا . فأجاب :

– لقد عرفت ، انهم لم يموتوا في خدمة الجمهورية .

– لقد ماتوا من اجلي وبسببي . انك ستكلمني عن الوطن ، فهل يعيد الوطن الحياة للذين يموتون من اجله ؟ هل ينتقم لهم على الاقل ؟ سأنتقم لهم ، صرخت بعنف . واذ تدافعت في مخيلتها صور قاتمة عن تلك الكارثة الرهيبة جن جنونها ومشت بخطوات متعثرة نحو القائد وقالت :

– من اجل بضعة جنود دُبحوا ، سأضع تحت شفرة المقصلة رأساً يساوي ألوف الرؤوس . ان النساء قلما يجازين ، ولكن ، بإمكانك ، مهما كنت متقدماً في السن ان تتعلم في مدرستي اصول المبادئ الحربية ، سأسلم لرماحك أسرةً بكاملها : مستقبله وماضيه وآبائه وأجداده . وبقدر ما كنت رحيمة وصادقة معه ، ساكون ماكرة وكاذبة . اجل ايها القائد ، ساستدرج هذا النبيل الى فراشي ليخرج منه مكبلاً الى الموت ، وبذلك لن يكون لي منافسة ... لقد حكم الشقي على نفسه بنفسه حين قال : « يوم بلا غد » . سأنار للجمهورية ولنفسي .

وكررت كلمة للجمهورية بلهجة اربعبت هولوا وارذفت :

– سيموت الشاب اذا حمل السلاح ضد البلاد؟ ستسلبني فرنسا ثأري الخاص ! آه ما أهون الحياة ! لا يمحو الموت سوى جريمة . ولكن ، اذا لم يكن لهذا الرجل سوى رأس واحد ليقدمه . سيكون لي معه ليلة اجعله يفكر انه يخسر أكثر من حياته .. وعلى كل ايها القائد ، انت الذي ستقتله . وأطلقت زفرة عميقة وقالت :
– احرص ألا يتسرب اليه شيء عن خيانتني ، دعه يموت مقتنعاً بأمانتي . هذا كل ما اطلبه منك . دعه يموت وهو يفكر بي وحدي .

قالت ذلك وصمتت . ولكن كورنتان وهولو لاحظا من خلال امتقاع وجهها

ان الغضب والهديان لم يطفأ فيها جذوة الحياء العذري . فقال لها كورنتان :

– ولكنه كان بين يديك .

– هذا ممكن ، اجابت بمرارة . وقال لها هولوا :

– لم منعنتني حين اردت القبض عليه ؟

- هه أيها القائد ، لم نكن نعلم انه هو بالذات .
- وفجأة هدأ روعها وسكنت عاصفة غضبها وقالت باصرار عنيد :
- لم كثرة الكلام ؟ ينبغي ان اذهب للبحث عنه !
- للبحث عنه ؟ كرر القائد هولو وأردف :
- احترسي لنفسك يا عزيزتي ، لسنا سادة الارياف ، فان غامرت بالخروج من المدينة فقد تموتين على مسافة مئة قدم منها .
- ليس هناك مخاطر على الذين يسعون للانتقام ، اجابت ماري بحركة استخفاف وازدراء لتطرد من امامها هذين الرجلين اللذين تخجل من رؤيتها معها .
- أي امرأة هي هذه ! ، قال هولو وهو ينسحب مع كورنتان ، واطاف وهو يهز برأسه :
- ولكنها لن تسلمه ابدأ .
- بل ستفعل ، قال كورنتان .
- ألا ترى انها تحبه ؟
- ولهذا السبب ستسلمه . سوف أمنعها عن ارتكاب المحاقات ، ففي شريعتي أيها الرفيق ، ليس من حب يضاهاي ثلاثمائة ألف فرنك .
- عندما ترك كورنتان القائد العسكري ، شيعه هذا الاخير بنظرة الى ان توارى عن البصر ، واذ ذاك اطلق هولو زفرة وهو يقول لنفسه :
- قد يوجد احياناً سعادة في ألا يكون الانسان سوى حيوان مثلي ، وحق السماء ان لقيت « الغار » لأصطد من معه في عراقك ميمت وإلا فلا يكون اسمي هولو ، اذ لو جاء به هذا الثعلب حياً للمحاكمة لوجدت ضميري قدراً ، اشد قدارة من قميص عسكري سمع الرصاص لأول مرة .
- مجزرة فيفتير والرجبة في الثأر لأصدقائه دفعنا هولو الى استعادة قيادة الفرقة التي كان قد قدم استقالته عنها ولم تقبل نظراً للظروف الطارئة ، وقد تلقى بلاغ الرفض من وزير الحربية الجديد بريقاً مع كتاب سري يقول له فيه ، دون ان يطلعه على مهمة الآنسة دو فرنوي ، ان الحادث الذي وقع في فيفتير

بخارج عن نطاق الحرب ولا يجوز ان يقف العمليات الحربية ، وقال الوزير في كتابه ان مساهمة الرؤساء العسكريين تقتصر في هذه القضية على مساندة « المواطنة المحترمة » اذا اقتضى الأمر .

حين عرف هولوا ان حركة الناعقين تقصد الى حشد قواتهم والزحف الى فوجير ، جاء سراً بطابورين من فرقته ، الى هذا الموقع الخطير مدفوعاً بغيرته على الوطن وببغضه للاستوقراطية التي يهدد أنصارها قسماً كبيراً من البلاد .
أما من جهة الآنسة دو فرنوي ، فلم تكذب نفسها وحدها بعد خروج هولوا وكورنتان حتى هتفت قائلة :

– هذه هي الحياة التي تمنيتها ، مها كانت الساعات قصاراً فهي بالنسبة لي قرون طويلة . وفجأة اخذت يد فرانسين وبصوت مبجوح أطلقت هذه الكلمات :
– ما زلت يا صغيرتي أرى بعين الفكر تينك الشفتين العذبتين وتلك الذقن القصيرة المرتفعة قليلاً وتينك العينين الملتهبتين ، وما زلت اسمع كلمة « حا ! دي » ! يقولها الخوذي للجياد ، هذا حلم ... ولكن ترى لماذا كل هذا الحقد في اليقظة ؟

وأطلقت زفرة طويلة ، ثم ، جلست لأول مرة تنعم النظر في بلاد تمزقها الحرب الاهلية التي يغذيها نبيل شامت ان تهاجم بمفردها ولنفسها ... أخذت الفتاة بروعة الطبيعة ، فخرجت لتستنشق الهواء الطلق ، وان كانت قد اتخذت طريقاً للمغامرة ، فهي بدون ريب ، قد جنحت الى جادة المدينة متقاداة بفرور النفس التي تطلب دائماً الآمال في طي المبهمات .

الفصل الثالث

يوم بلا غد

المنزل الذي تشغله الآنسة دو فرنوي قائم في مكان يسمى برج باغو ، ولهذا البرج قاعدة بالغة العمق ويرتفع حتى ساحة فسيحة تمتد بشكل « كورنيش » امام كنيسة سان ليونارد . ومن هذا البيت المنعزل نطل ، من الجهات الثلاث ، على قاعدة البرج وعلى وادي نانسون المتعرج وعلى ساحة سان ليونارد . وهو بيت قديم مبني بالحشب وقائم الى الجهة الجنوبية من الكنيسة فيشكل معها زقاقاً مخرجه طريق منحدر يؤدي الى مدخل سان ليونارد ، ومن هذا الطريق المنحدر ذهبت الآنسة دو فرنوي .

أغفلت ماري الدخول الى ساحة الكنيسة التي كانت فوقها واتجهت نحو « جادة النزهة » وعندما اجتازت الحاجز الصغير امام منحرف بوابة سان ليونارد ، سكنت آلام نفسها امام روعة المناظر الطبيعية . تأملت طويلاً في جزء من وادي كويسون ابتداءً من قمة البلارين حتى المنبسط الذي تشقه طريق « فيتري » . ثم حولت بصرها الى « نيدوكروك » والى منعطفات « جيباري » ، ووقفت خائفة امام وادي نانسون البعيد الغور .

وسارت الآنسة دو فرنوي من مفاجأة الى اخرى الى ان وصلت الى نقطة استطاعت ان تشاهد منها الوادي الكبير عبر جيباري المطوق ببرج المدينة وبصخور سان سولبيس وبمرتفعات ريلي . في تلك الساعة من النهار كان دخان منازل الضاحية والوادية يشكل في

الفضاء غمامة تحجب معالم الأشياء ونور النهار الصافي يخبو والجو يتخذ لوناً رمادياً
لؤلؤياً، والقمر يلقي بشعاعه على الوادي السحيق . كل شيء كان يدفع الى اغراق
النفس في بحر من الاحلام ويساعد على تذكر الخلوقات العزيزة .

وفجأة ، احست بنفور من كل شيء ، فلم تعد تحفل بأي شيء من الروائع
الطبيعية حولها ، لا السطوح المصنوفة في ضاحية سان سوليس ولا الكنيسة
ذات القبة العالية الضائعة في الوادي ، ولا عشبة الجلباب التي تكسو أسوار
القلعة القديمة .. وعبثاً حاولت الشمس فتنتها بفبارها الذهبي وبساطها الاحمر على
المساكن المبعثرة بين الصخور وعلى المياه وعلى المراعي القريبة . فالأمل الذي قادها
الى جادة الزهرة ، قد تحقق باعجوبة ، فقد خيل اليها انها ترى عبر اشجار الشربين
والوزال المتكاثفة على القمة المقابلة عدداً من ضيوف فيفتير وبينهم « الغار »
الذي استطاعت ان تميزه تحت دفقة من شعاع الشمس المتوارية ، ورأت على بضع
خطوات من التجمع الاول عدوتها اللدودة مدام دو غوا .

ظلت الآنسة دو فرنوي لبعض الوقت تحسب نفسها في حلم ، إلا ان حقدتها
على منافستها أثبت لها ان كل شيء فيها يعيش هذا الحلم ، وانصرافها الى مراقبة
كل حركة من حركات « الغار » منعها عن ملاحظة مدام دو غوا وهي تعد
بندقيتها وتطلق رصاصة رددت اصداها الجبال .

- انها ترسل لي بطاقة انذار ، قالت ماري باسمه .

وفي الحال دوّى كل ما هو حي في المنطقة ، وقالت ماري في نفسها :

- تلك هي وذاك هو .

ولكنها عزلاء من السلاح ، فكيف تنفذ مغامرتها في ملاحقة المركيز واقتفاء
أثره ؟ وتذكرت انها تركت في احد صناديقها خنجراً جميلاً كان لإحدى ملكات
الشرق ، حملته ماري معها يوم صممت النزول الى ميدان الحرب ، ولكن إعجابها
بتلك التحفة ذات القبضة المرصعة باللؤلؤ طغى على ميلها لاستخدامه لسفك
الدماء . ومنذ ثلاثة أيام افتقدت خنجرها فندمت لتركه في الصندوق ، وذلك
حين اعتدت عليها مدام دو غوا وتمنت لنفسها الموت .

وبدون تردد رجعت الى بيتها ، وضعت الحنجرة في وسطها ، شدت كتفها
ووسطها بشال كبير .. لفت شعرها بمنديل من الدنتيلا الاسود . غطت رأسها
بقبعة ذات أطراف واسعة يعتمر مثلها عادة الناعقون ، كانت قد اخذتها من
احد خدام بيتها . واخذت قفاز المريكز الذي جهزها به « مارش آتير » كجواز
مرور ، ثم عادت الى الجادة بعد ان قالت لفرانسين انها ذاهبة للبحث عن المريكز
ولو في جهنم !

عادت لتجد الغار لا يزال في مكانه ، انما وحده . وبدا لها على امتداد البصر
وهو يتفحص بدقة مختلف منافذ نانسون كرجل حرب ماهر ، فانطلقت في
ممرات ضيقة رسمتها اقدام المعزى ورعاتها الى ان وصلت الى الوادي ، ومنه
عبرت الى نانسون ، فإلى الضاحية ، حيث شقت طريقها وسط صخور سان
سوليس النائثة ، وانحدرت في طريق تعتورها كتل من الفرانيت ومفروشة
بالبلان والوزال فاجتازتها بعزيمة قد لا يعرفها الرجل .

وفاجأها الليل وهي على المرتفعات . فراحت تتبين في ضوء القمر الخفيف
الطريق التي سلكها المريكز وعرفت من السكون الخيم على المكان ان الناعقين
ورئيسهم انسحبوا الى مكان آخر ، فأسقط في يدها وتألمت لضياح الجهود المبذولة
من اجل ارواء شهوة جامحة في النفس .

واذ وجدت نفسها وحيدة في الظلام وفي مكان مجهول يكاد يكون جبهة
حرب ، راحت تفكر بأمرها خائفة مرتعبة من توصيات هولو ومن الرصاصة التي
أطلقتها مدام دو غوا . وقد اتاح لها سكون الليل ان تسمع أي حركة حتى
خفيف الاوراق المتساقطة .

وكانت الرياح العاصفة في المنطقة العليا تجرف الغيوم بعنف محدثة في السماء
توججات متعاقبة من الظل والنور ، الأمر الذي زاد في خوفها وارتعادها .
وحولت نظرها الى منازل فوجير بأضوائها كأنها نجوم أرضية ، وفجأة وقع
بصرها على برج باغو ولم يكن امامها سوى مسافة قليلة تقطعها لتعود الى منزلها ،
لكن هوة عميقة كانت تعترض سبيلها ، وقد تذكرت عدة مهارٍ تحيط بالدرج

الضيق الذي جاءت منه .

خطر في بالها ان قفاز المركيز ينجيها من المخاطر في نزهتها الليلية لو تعرض لها الناعقون في الريف ، وان مدام دو غوا هي عدوها الوحيد الذي يخشى جانبه في مثل هذا الحال . ولدى هذا الخاطر تحسست ماري خنجرها ومشت نحو بيت ريفي كانت قد ميزت سطحه لدى وصولها الى صخور سان سوليس ، إلا أنها أبطأت الخطى . اذ انها كانت الى ذلك الحين تجهل الرهبة الصارمة التي تواجه المخلوق المنزل في الليل وسط موقع موحش محاط بالجبال العالية . ولطالما علق طرف فستانها بالشوك فتعثرت وارتعدت ، ولطالما عادت عن حث الخطى الى التباطؤ متوهمة ان ساعة اجلها قد حانت .. غير ان الظروف اتخذت طابعاً قد يعجز عن مقاومته اصلب الرجال عوداً وأقوام شكيمة ، فأغرقت الآنسة دو فرنوي في حالة من الرعب تضغط على مقومات الحياة في وقت يكون فيه الانسان في أقصى حالتي القوة والضعف ، فتأتي اضعف المخلوقات بضروب من القوة الخارقة بينما يمين أقوى المخلوقات حياها من شدة الخوف . فقد سمعت ماري على مسافة قريبة جلبة غريبة واضحة ومبهمة في نفس الوقت ، جلبة يعجز السمع عن اختراقها تنبعث من باطن الارض التي كانت تهتز تحت اقدام جيش زاحف بجيله ورجله .

وفي ومضة عابرة استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تلمح على بعد بضعة اقدام منها حقلاً طويلاً من الرؤوس المائجة كسنابل الحقل ، الزاحفة كالأشباح ، إلا انها لم تكدر ترى ذلك حتى هبط الظلام ثانية كستار اسود فحجب عنها ذلك المشهد المليء بالأعين الصفراء البراقة .

تراجعت بسرعة وهرعت الى أعلى منحدر هرباً من ثلاثة وجوه مخيفة أقبلت نحوها .

* * *

قال واحد منهم :

— أرأيتَه؟! فأجابه الثاني بصوت اجش :

- شعرت بهواء بارد حين مر بالقرب مني . وقال الثالث :
 - وأنا تنشقت هواءً رطباً وشممت رائحة القبور .
 - وهل هو ابيض ؟ سأل الاول ، فأجاب الثاني :
 - ترى لماذا بعث حياً وحده من بين جميع ضحايا البرلين ؟
- فقال الثالث :

- ترى لماذا تكون الافضلية لأعضاء جمعية القلب الاقدس ؟ اما من جهتي فأفضل ان اموت غير متمم لواجباتي الدينية على التشرذم مثله بدون أكل ولا شرب ، بدون دم في العروق ولا جلد على العظم . وفجأة أطلق المتكلم صيحة :
- آه ..!

صيحة ردها الناعقون الثلاثة عندما أشار احدهم باصبعه الى الأنسة دو فرنوي ووجهها الشاحب وهي هاربة بأقصى السرعة دون ان تثير وراءها أي حس . وانطلقت الاصوات باحثة عن الشبح :

- ها هو ... ها هو ... أين هو ..؟ هنا ... هنا ... لقد تواري ...
كلا ... اجل ... هل تراه ..؟

أما الأنسة دو فرنوي ، فقد مشت بشجاعة باتجاه البيت وشاهدت وجوهاً غير واضحة تفر هاربة من أمامها ، مطلقة صيحات الرعب الشديد . لقد بدت الفتاة وكأنها محمولة بقوة مجهولة وقدرة قادر كريشة في مهب الريح ، وتلك الوجوه التي كانت ترتفع جملةً لدى اقترابها منها ، وكأنها تبرز من تحت الأرض ، حالت دون سماعها أنيناً غريباً متصاعداً من الأعماق .

وأخيراً ، وصلت ، بعد عناء ، الى بستان خرب ، سياجاته وحواجزه محطمة . أوقفها الحارس فعرضت عليه القفاز ، وإذ تبين وجهها على ضوء القمر ، سقطت البندقية التي كان يسدها الى وجه ماري من يده وأطلق صرخة مدوية . رأت أمامها أبنية كبيرة ، دلت بعض الأنوار الضعيفة الى الغرف المأهولة منها . واقتربت من الجدران دون صعوبة ، ومن النافذة الاولى شاهدت مدام دو غوا مع الزعماء الذين كانوا مجتمعين في فيفتير .

تاهت بين هذا المشهد وبين شعورها بالخطر. فارتمت بمنف في فتحة مغلقة بحاجز من القضبان الحديدية، ولحمت في صالة مستطيلة مقببة المركز وحده حزينا كئيبا، جالسا أمام نار ينعكس نورها على وجهه فيضفي عليه لونا أحمر وهاجبا، يصبغه بطابع الرؤيا. ومن شدة الخوف، التصقت ماري بالحاجز على أمل سماعه يتكلم في سكون الليل. فاذا رآته أصفر مغلوبا على أمره، سرها ان تكون هي سببا من أسباب حزنه. ثم تحول حنقا الى حنان فأشفاق، وأحست فجأة انها لم تأت الى هنا بدافع الثأر وحده.

نهض المركز .. واذا أدار رأسه وقف مشدوها وهو يلح وجهه الآنسة دو فرنوي كأنه مطل من خلال غيمة فصرخ بامتعاض وتأفف قائلا :

- أرى تلك الشيطانة في كل مكان حتى في اليقظة .

ذلك الاحتقار الذي كان يكنه لها « الغار » قابلته بضحكة رنانة ارتعدت لها فرائض الرئيس الشاب فهب لامساكها ولكنها تخلصت منه بقفزة من فوق الجدار مؤثرة طريق العذاب والجحيم تخلصا من تلك العبارة التي خيل لها انها مكتوبة على جبينه باحرف من نار : « اني احتقرك ! » .

وبعد ان مشت مسافة على غير هدى ، توقفت عن السير وقد أحست بانها تنتقل في جو رطب ، ولكنها ارتعدت مذعورة حين سمعت وقع اقدام عمدة أشخاص معا فهبطت دركات سلم قادتها الى دهليز تحت الارض تتصاعد منه اناث رجل متألم ، وفيما هي تصيخ بسمعها ، اذا بها ترى وميضاً ينطلق من أعلى السلم، ظنت ان ملاحقها يطاردونها فاستجمعت ما بقي لها من قوة وتسلفت جدار حائط يفصل ما بين السلم والقبو الذي كان يتصاعد منه الانين فرأت رجلا مغمورا يجلد المعزى ينحدر من تحت ويعرج نحو القبو دون ان يحدث اقل حركة .

وبفارغ الصبر انتظرت الآنسة دو فرنوي ومضة نور اخرى سرعان ما انتشرت في القبو حيث لحمت على الارض كتلة لا شكل معين لها انما تتحرك وتحاول الوصول الى جزء من الحائط وهي تأتي بحركات عنيفة متكررة شبيهة بحركات سمكة اخرجت حديثا من الماء .

وبعد قليل انتشر في القبو نور مشعل صغير امتزج مع الدخان فمال لونه الى ازرق حائل وتأكد للآنسة دو فرنوي انها موجودة في مطبخ تحت الارض مهجور منذ زمن بعيد. وتحت اضواء المشعل وضحت الكتلة المتحركة فاذا هي رجل ضخيم قصير جميع اعضائه موثوقة باحكام انما ترك وشأنه بلا عناية ولا رحمة . وما كاد المسكين يرى الرجل الآخر حاملاً المشعل بيد والخطب باليد الأخرى حتى أطلق من اعماقه أنة طويلة حركت شعور الآنسة دو فرنوي حتى نسيت رعبها واضطرابها وبأسها وآلامها من جراء طول القرفصاء على الحائط وطول مدة انطواء قدميها وتخدير جسمها ، ورغم ذلك حاولت ألا تأتي بحركة وهي ترتقب الناعق يضع الخطب في موقد المدفأة بعد ان اطمأن الى متانة الخلقين المدلى من صفيحة عالية من الحديد ، وأشعل النار في الخطب . عندئذ انعكس وهج النار على وجهه . ولم كانت دهشة الآنسة دو فرنوي شديدة عندما عرفت انه المحتمل بيل ميش الذي كان تسلمها من مدام دو غوا وباعها من مارش آتير ، وقد قابل نقيب الرجل الموثوق بضحكة عريضة ارتسمت معالمها على وجه الميء بالتجاعيد الملفوح بالشمس وقال للأسير :

- أرأيت كيف اتنا ، نحن المسيحيين ، لا نخل بكلامنا مثلك ؟ هذه النيران ستلب ساقيك ولسانك ويديك . من المؤسف ان لا اجد قدراً اضعها تحت قدميك لتتلقى الشحم السائل من جسمك السمين .
ارسل الضحية صرخة حادة لعل احداً خارج الدهليز يسمعه فياتي لنجدته .
فقال له جلاده ساخراً :

- اصرخ ملء حنجرتك يا سيد اورجمون ، فلن يسمعك احد ، الجميع نائمون فوق ، ومارش آتير يتبعني وسيقفل باب الدهليز وراءه .
كان بيل ميش يتكلم وهو يتحسس برأس بندقيته صندوق المدفأة وأخشاب سطح المطبخ والجدران والافران باحثاً عن ثروة البخيل بدقة وعناية تحت انظار دورجمون الذي بقي صامتاً متوجساً خيفة ان يكون احد خدمه قد خانه مع العلم بانه لم يبع بسره لأحد ، لكن للرجل عادات ربما فضحته .

وكان بيل ميش يكرر التفاته نحو الضحية ليراقب تعابير وجهه فيعرف منها ما اذا كان قد اقترب من المكان المقصود أو انه لا يزال بعيداً عنه ، وقد اعرب دررجون عن بعض الخوف عندما رأى الناعق يضرب الافران فتحدث صوتاً جافاً . تلك خدعة سلكت على بيل ميش السريع التصديق بعض الوقت .
وفي هذه الأثناء حضر ثلاثة من جماعة الناعقين ومن جملتهم مارش آتير فأخبر بيل ميش أن ماري لميريكان قد بعث حياً ورأى الناس شبحه ، وان كل قضية تتضاءل أمام هذا النبأ . فأجاب بيل ميش :

– لا غرابة في ذلك ؛ فقد كان يتناول القربان المقدس دائماً ، ويظن ان الله كان له وحده . وقال مينابيان ، وهو أحد الرفاق الثلاثة :

– لقد استفاد من القربان افادة الميت من الحذاء . فقد ارتكب فعل الزنى مع بنت غوغولو . وإنما الخطيئة بميتة لم يعترف بها ولم يحلته الكاهن منها قبل حادث البلين ، ولهذا السبب قال الأب غودن انه سيبقى لمدة شهرين روحاً بلا جسد قبل أن يعود الى حالته الطبيعية . لقد شاهدناه يمر أمامنا أصفر ، مقروراً وخفيفاً كالظل تفوح منه رائحة القبور . وقال الرجل الرابع :

– لقد قال المحترم ايضاً ان الروح ، اذا استولى على احد ، يجعله رقيقاً له . وهنا استيقظ مارش آتير من الاحلام الدينية التي أغرقه فيها تحقيق اعجوبة زعم الاب غودن انها تتكرر لصالح أي تقي ورع يدافع عن الدين والعقيدة ، وخاطب غالب شوبين الحديث الايمان بقوله :

– أرأيت الى أين يؤدي بنا التهاون في الواجبات المقدسة ؟ لقد نصحتنا « حنة أوراي » القديسة بالألا تتسامح عن أقل الأخطاء . لقد طلب لك ابن عمك بيل ميش وظيفة حراسة فوجير وقبل الغاران يسندها إليك بمعاش محترم ، ولكن ، هل تعرف بأي طحين نخبز فطائر الخونة ؟
– أجل يا سيدي مارش آتير .

– أتعرف لماذا قلت لك ذلك ؟ البعض يقول انك تحب الحمره وقطع النقد الكبيرة ، وهذا لا يعني انه يجوز الاسترسال في هذه المعصية ..

- لقد قال المحترم، يا سيدي مارش آتير، ان الحجره والمال مزيتان مباحتان .
وعلق بيل ميش على ذلك بقوله :
- اذا كان ابن عمي يرتكب بعض المعاصي الصغيره فذلك عن جهل .
فاجابه مارش آتير بصوت ارجف القبو :
- الشر من حيث أتى فلن أخطئه، فاذا ارتكب ابن عمك المعصية سألني عليك بعضاً من مسؤوليه خطئه ، وقال غالوب شوبين :
- عفوك يا سيد مارش آتير ، ألم يخطر في بالك ولو مرة ان مقاومي الناعقين كانوا في الماضي ناعقين؟ فأجابه مارش آتير بصوت جاف:
- يا صديقي، اجتهد في اصلاح نفسك وإلا قطعتك الى شقين كما يقطع اللفت .
اما من جهة موفدي « الغار » فانهم يحصلون على قفازه ، ولكن ، منذ حادث فيفتير ابدل بالقفاز شريطاً اخضر .
- وهنا هز بيل ميش ساعد رفيقه مشيراً الى دورجون الذي كان يتظاهر بانه نائم ،
وفي الحال ، وبإشارة خفيه من مارش آتير ، نزع بيل ميش حذاء الاسير وحمله
مينابيان وغالوب شوبين من اسفل جسمه وقرباه من النار ، واخذ مارش آتير
قطعة حبل ربط بها البخيل وعلقه بالخلقين ، وفيما كان الرجل يطلق
صرخات أليمة كان بيل ميش يجمع تحت قدميه الفحم .
- وصرخ التعيس قائلاً :
- أها الاصدقاء ، انكم تلحقون بي الاذى وانا مؤمن مثلكم .
فرد عليه مارش آتير بقساوة :
- كذبت ، لقد أنكر شقيقك الله . واما انت فقد اشترت دير جوفيني .
والاب غودن يقول ان بالامكان شي المرتد واحرقه دون ما شفقة .
- ولكن ، اها الاخوة بالرب ، أنا ما رفضت ان أدفع لكم ...
- أمهلناك خمسة عشر يوماً ، وها قد مضى شهران ولم يحصل غالوب شوبين
على شيء .

وبيأس شديد سأل البخيل غالوب شوبين :

- ألم تحصل على شيء حقاً يا غالوب شوبين ؟ فأجابه هذا مذعوراً :
- كلا . لا شيء .

كانت صرخات الاسير قد تحولت الى أنين أشبه بمشجرة مائت . ثم اتخذت شكلاً زاعقاً لا يطاق .

ولما كان الناعقون الاربعة معتادين على مثل هذه المشاهد ، فقد جلسوا يتفرجون عليه وهو يولول ويزأر تحت ألسنة النار كما يتفرج الغريب على قطعة اللحمه فوق النار متى تنضج ليلتهما .
وأطلق دورجون الصرخة التالية :

- انني أموت وان مت فلن تحصلوا على ثروتي .

وعلى الرغم من صراخ الضحية ، لاحظ بيل ميش ان ألسنة النار لم تلعس جسم البخيل بعد ، فحرك الجمر لناحية الفحم بطريقة تزيد النار التهاباً ، فقال الرجل بلهجة المغلوب :

- ايها الاصدقاء ، حلوا رباطي ، ماذا تريدون ؟ مئة دينار ، ألف دينار ، عشرة آلاف دينار ، مئة ألف دينار ، اقدم لكم ٢٠٠ دينار ...
هذا الصوت المحزن دفع الآنسة دو فرنوي الى ارسال زفرة عميقة أعقبها مارش آتير بصرخة : من المتكلم ؟

ونظر الاربعة حولهم بقلق شديد ، هؤلاء الرجال الذين يقتحمون المدافع وهي تطلق قنابلها لم يضبطوا النفس امام الشبح !. ولم يعد يصغي الى اعترافات الضحية تحت وطأة التعذيب سوى بيل ميش ، قال البخيل :

- أعطيك خمسمائة دينار .

- أين هي ، هاتها .

- انها تحت اول شجرة تفاح ... يا مريم العذراء ... في آخر الجنيينة الى اليسار ... انكم لصوص قتلة .. آخ .. انني اموت ... يوجد هناك عشرة آلاف فرنك ...

- لا أريد فرنكات ، اجاب مارش آتير .. يلزمننا ليرات .. فاللدنانير
الجمهورية ذات الوجهين الوثنيين ، لن تكون صالحة للتداول قطعاً .
- انها ليرات . ليرات ذهبية وهاجة .. ولكن .. حلوني .. حلوني .. حياتي
هي في كنزي .

تبادل الاربعة النظر متساولين أي منهم يستطيع ان يكون موضع ثقتهم ليجلب المبلغ .
وفي هذه اللحظة كانت ضراوة هؤلاء الرجال قد اثارت الآنسة دو فرنوي
الى حد جعلها تصرخ يجسارة وبصوت صارم قائلة :
- ألا تخافون غضب الله ايها البرابرة ، اطلقوه في الحال ..

رفع الناعقون رؤوسهم ، فرأوا في الفضاء عينين تلمعان كنجمتين فهربوا
ناجين بأنفسهم ، عندئذ قفزت الآنسة دو فرنوي الى ارض المطبخ ، اقتربت من
دورجمون ، سحبتة بعنف من النار ، ثم استلت خنجرها وقطعت الحبال التي
أوثق بها . واذ اصبح البخيل متحرراً كانت اولى التعابير التي ارتسمت على وجهه ،
ابتسامة أليمة متشنجة وقال :

- اذهبوا .. اذهبوا الى شجرة التفاح أيها اللصوص ، لقد خدعتهم مرتين
ولن أدعهم يخدعوني للمرة الثالثة .

وسمع في الخارج صوت امرأة يدوي قائلاً :
- الشبح ! الشبح ! يالكم من أغبياء ، انها هي ، اهب ألف دينار لمن
يأتيني برأسها .

كان ذلك الصوت صوت مدام دو غوا .
اصفر وجه الآنسة دو فرنوي ، وابتسم البخيل ثم اخذ بيدها ، وجذبها
تحت غطاء المدخنة الواسع ، ومنعها من ترك أثر وراءها باقتيادها بطريقة جانبية بحيث
تتجنب النار التي تشغل مساحة قليلة من المكان . ادار لولبا فسقطت صفيحة
الحديد . وحين عاد اعداؤهما الى القبو انطبق باب الحبأ بلا ضجيج . عندئذ فهمت
الباريسية الشابة الهدف من العذاب الذي ألحق بالصراف التعس .
وفي القبو سُمع صوت مارش آتير يقول لمدام دو غوا :

جواباً على كلام مدام دو غوا أطلق بيل ميش ضحكة خفيفة معبرة ،
- أرأيت يا سيدتي ، لقد اتخذ الشبح الأزرق رفيقاً له .
ألم بهم زعر شديد بدليل ان صمتاً رهيباً تلى الكلام الى حد ان دورجمون
ورفيقته سمعا الناعقين يتمتمون ببعض الصلوات .
وقال دورجمون :

- انهم يصلون ! يا لهم من بلهاء ! فقاطعته الأنسة دو فرنوي بتولها :
- ألا تخشى ان يكتشفوا ...

بدد البخيل مخاوف الباريسية بقوله :

- ان الصفيحة هي في بلاطة من الغرانيت بساكة عشر بوصات ، لذلك نحن
نسمعهم اما هم فلا ...
ثم اخذ يد محررته ووضعها على شق ينسم منه الهواء بارداً فعرفت ان هذا
الشق صنع في قسطل المدفأة .
واردف دورجمون قائلاً

- يا للشيطان ، ان « بغلة الجزائر شاريت » - كما يسمونها في نانت - ليست
بلهاء الى حد معاكسة أتباعها ، فهي تعرف جيداً انهم ، ان لم يكونوا اغبياء
لما كانوا يقاتلون ضد مصالحهم ، وها هي تصلي هي الاخرى ، ليتها تحظى وهي
تتلو السلام الملائكي ببعض الشهامة فترد لي الاربعة آلاف فرنك التي لي عليها ومع
الفائدة والتكاليف يصبح المبلغ ٤٧٨٠ فرنكاً وبعض السنتيمات ...
انتهت الصلاة فنهض الناعقون وخرجوا ، عندئذ ضغط دورجمون على يد
الآنسة دو فرنوي كأنه يحذرها من بقاء الخطر .

وسمع صوت بيل ميش يقول لمدام دو غوا :

- كلا يا سيدتي ، لن يعودوا .

- ولكنها لم تخرج . لا بد ان تكون هنا .

- كلا ، كلا ، لقد تواريا عبر الجدران .

- ترى كيف غفلت عن ان هذا العجوز يا بيل ميش ، وانت البخيل مثله ،
قادر ان ينفق ألوف الليرات لبني هذا الدهليز مجهزاً بمدخل سري .

وأردفت مدام دو غوا قائلة :

- ابقى هنا .. انتظر خروجها . انني أتخلى لك عن كنز هذا المرابي المستبد لقاء رصاصة واحدة قاتلة . عليك ان تطيعني اذا كنت تريد ان أغتفر لك بيعك هذه البنت .

قال اورجمون معقبا على كلام مدام دو غوا :

- تقول « بغلة شاريت » انني مغتصب مستبد ، في حين لم أدينها المال بفائدة تزيد على التسعة بالمئة صحيح ان القرض مكفول برهن عقاري .. رأيت كيف تقابل لها احساني . الله يعاقبنا من اجل الشر الذي نأتيه والشيطان حاضر دائما ليعاقبنا على الخير ! والانسان بين الخير والشر ، لا يعرف مصيره ، فهو في نظري أشبه بقاعدة الثلاثة في الحساب حيث تكون السين ضائعة .

ويبدو انه اطمأن للضجة التي أحدثتها مدام دو غوا ورفيقها بيل ميش وهما يتحسنان مرة اخرى الجدران والانفاق والسقوف بحثا عن الكنز ، فأخذ يد محررته ليساعدها على تسلق سلم ضيق مشقوق في حائط سميك من الغرانيت ، وبعد تسلق ٢٠ درجة شع نور خفيف كشف عن رأسها ، فالتفت البخيل نحو رفيقته متفحصا وجهها كأنه يتفحص سندا ماليا مشكوكا في صحته فقال لها بعد زفرة أليمة :

- ببجيئي بك الى هذا المكان رددت لك فضلك علي تماما وكالاً ولا أرى موجبا للدفع ... فقاطعته قائلة :

- دعني هنا يا سيدي ... لن أطلب منك شيئا .

وبلطف وأدب ساعدها على تسلق بضع درجات غريبة التركيب وأدخلها غرفة صغيرة مساحتها ، اربع اقدام مربعة^(١) ، مضاءة بقنديل معلق في فجوة . وهنا لاحظت ماري ان البخيل اتخذ جميع الترتيبات للاقامة في هذا المكان أكثر من يوم في ما اذا اضطرته احداث الحرب الأهلية الى البقاء هنا مدة طويلة . وابتدراها دورجمون بقوله :

(١) هكذا جاء في النص الفرنسي : والصحيح ان يكون طول كل من جدرانها اربع اقدام اي متراً وثلاث ، فتكون مساحة الغرفة الصغيرة ست عشر قدماً مربعاً وبهذا يستوي المعنى .

- لا تقتربي من الحائط لئلا يتلوث فستانك بالكلس الابيض ، قال ذلك ومد يده ليفصل بين شالها وبين الحائط المطروش حديثاً ، وبهذه الحركة أثار ردة فعل معاكسة لما كان يتوقع ، فقد حدقت الأنسة دو فرنوي امامها فرأت في الزاوية شكلاً انتزع منها صرخة رابعة .. لقد أدركت ان مخلوقاً بشرياً مطلياً بمعجون الترابية والكلس وضع هنا واقفاً ، وبحركة تم عن الرعب الشديد طلب منها دورجون ان تلتزم الصمت وقال لها :

- حمقاء ! أتظنين أني قتلته ؟ انه شقيقي ، انه اول رئيس الكليركي ارتد . وكان هنا ملجأه الوحيد ضد غضب الناعقين والكهنة الآخرين . انه شقيقي الأكبر ، وهو وحده الذي علمني الحساب العشري والنسبة المئوية . لقد كان كاهناً طيباً ، مقتصداً ، يعرف كيف يجمع المال ! مات منذ اربع سنوات ولست أعرف سبب موته .. انه كاهن .. اعتاد ان يضي وقته جائباً على ركبتيه يصلي .. وقد لا يكون مرتاحاً في الوقوف هكذا منتصباً ، قد يأتي يوم أستطيع فيه ان ادفنه في ارض مقدسة بناء على طلبه .

اغرورقت عينا الرجل العجوز بالدموع ، فحولت الفتاة نظرها عنه احتراماً لألمه ، ولكنه ، على الرغم من هذه الليونة ظل ينعما عن الاقتراب من الحائط ويحدق الى عينيها لعله ، ينعما عن تفحص الحواجز الداخلية . إلا انها تمكنت من استراق نظرة من بعض تلك الحواجز فخييل إليها ، أمام نتوءات الجدران ، ان البخيل كان قد بناها بنفسه باكياس من الفضة والذهب .

تم للآنسة دو فرنوي ذلك فيما كان دورجون مستغرقاً في حلم سحري . ففي حين كان يعاني آلاماً مبرحة من جراء الحروق في ساقيه ، وذعراً شديداً من وجود مخلوق بشري وسط كنوزه ، كان في نفس الوقت يقاسي انفعالات نفسية بسبب وقوف محررته بجانبه ، تلك الحسنة التي في خديها الجميلين دعوة لقبلة وفي عينيها السوداوين يرتق يصعد الى القلب دماً ساخناً ما كان يعلم أهو دليل حياة أو موت . وسألها بصوت لاهت :

- هل أنت متزوجة ؟

- كلا ، أجابت مبتسمة .

- لدي ما اقله لك . لا بد لكل فتاة جميلة مثلك ان تكون مولعة بالماس والمجوهرات والذهب . كل هذه المتعانت اتركها لك بعد موتي ان قبلت ان ...
عرفت الآنسة دو فرنوي من تعابير وجهه وهو يتلفظ بهذه الكلمات ، انه لم يفكر بالزواج إلا ليدفن سره في قلب مخلوق آخر غيره ، فرمته بنظرة مليئة بسخرية قاسية أفرحته وأحزنته بنفس الوقت وقالت :
- لا قيمة للمال عندي ، لو كنت تملك الأموال التي رفضتها انا ، لكنت اليوم أغنى مما انت بثلاثة أضعاف .

- تكلمي دون ان تقربي الحائط ..

- وكل ذلك لقاء نظرة واحدة ، اردفت الآنسة دو فرنوي قائلة باعتراز :
- أخطأت ، في ذلك عملية ممتازة .. ولكن فكري ملياً بالموضوع ..
- فكر انت .. اني سمعت من هنا صوتاً ، نبرة واحدة منه أثنى في نظري من جميع كنوزك .

وهنا حركت الآنسة دو فرنوي لوحة تمثل لويس الخامس عشر على صهوة جواده . وما كادت تفعل ذلك حتى رأت تحتها المريكز منهمكاً في مطالعة بعض الاوراق في غرفة مجاورة . وبعد ان أزاح دورجون الصورة يجذر تطلع في الفتاة الشابة وقال لها بلهجة قاسية :

- لا تتلفظي بكلمة اذا كنت تحبين الحياة . ثم أسر في أذنها قائلاً :

- لم تلقي بعد بثقلك على البناء الصغير ، هل عرفت ان المريكز دو مونتوران يملك مئة ألف ليرة هي عائدات مزارع له لم تبغ بعد ؟ آه ! آه ! أصبح هذا الرجل في نظرك أكثر جمالاً الآن أليس كذلك ؟ طبعاً ، نعم ، ففي عينيك ما يشبه بريق ليرقين ذهبيتين !

الحقيقة ان عيني الآنسة دو فرنوي قد التمعتا ببريق الامل عندما سمعت مرة اخرى صوتاً ألفتته ، ولأول مرة منذ وجودها هنا واقفة على قدميها وسط منجم الفضة استقام لولب نفسها بعد طول التواء تحت وطأة الاحداث ، وقد

بدت صارمة كأنها اتخذت قراراً جهنمياً تنظر في وسائل تنفيذه وقالت في نفسها:
- لن أراجع امام تحقير كهذا ، فاذا كان قد تخلى عن حيي فسأقتله ولن أدع
أي امرأة سواي تفوز به .

وقفت تصغي للحديث الدائر في الغرفة المجاورة، قال الرئيس الشاب مخاطباً
الاب غودن :

- كلا ، يا حضرة الاب ، يجب تنفيذ ارادتي .
- ولكن يا حضرة المريكز ، انك تذهل بريتانيا بأسرها باحيائك حفلة راقصة
في سان جيمس . ليس الراقصون هم الذين يجركون القرى بل الواعظون ، ليكن
عندك بنادق لا كمنجات .

- لا يخفى عليك يا حضرة الأب ان في عقد اجتماع عام يحضره انصارنا
استطيع ان أقرر ما يجب عمله ، ومن الأنسب اقامة حفلة عشاء اتمكن فيها من
تفحص الوجوه ومعرفة النيات واكتشاف ما يمكن من الجواسيس بالتحدث اليهم
عن كذب والكأس باليد .

سمعت ماري هذا الكلام فابتهجت ، فقد قررت الذهاب الى الحفلة
بقصد الانتقام .

وتابع المريكز كلامه قائلاً :

- أتحسبني أحق لآخذ بموعظتك عن الرقص ؟ ألم تكن تظهر بين الراقصين
ترقص بملء ارادتك قبل ان تظهر باسمك الجديد وبدلتك الجديدة كأحد
آباء الإيمان ؟ ..! وهل تجهل ان البريتونيين يخرجون من القداس ليذهبوا الى
المراقص ؟ وهل تجهل ايضاً ان السيد هيد دو نوفيل والسيد داندينيه عقدا منذ
١٥ يوماً مؤتمراً مع القنصل الأول بشأن عودة صاحب الجلالة لويس الثامن عشر
الى العرش ؟ فاذا كنت قد قررت ان أخطر بالمشاركة في هذا العمل ، فما ذلك
إلا لألقي بثقل جنودنا في المفاوضات الجارية بهذا الشأن .

ثم هل تجهل أن جميع زعماء فاندو وحتى صديقنا فونتين يتحدثون عن
الاستسلام ؟ آه ! يا سيدي الأب المحترم ! لقد خدعوا الامراء عن الوضع في

فرنسا . فاذا كنت قد غرقت في الدماء حتى القدم ، فليست مستعداً ان أغرق حتى الوسط إلا عن ايمان وطيد بالنصر ، فانا مخلص للملك ، وليس لأربعة ادمغة مستعرة ، ولا لرجال غارقين في الديون أمثال ريفويل ، ولا للمهيجين ، ولا ...

- قل ولا للكهنه الذين يجمعون المساعدات على نطاق واسع لدعم الحرب ..
قلها يا سيدي المركزي ...

- ولم لا أقولها ؟ زمن البطولات في فائده قد ولى يا محترم .
- نستطيع أن تاتي بالعجائب بدونك يا سيدي المركزي ..
- أي نعم . كاعجوبة ماري لمبريكان .. لنفترق بدون ضغينة ايها المحترم ، اعلم انك تجازف بشخصك ، لكن الله بعونك ، واني آمل ان اجعلك تشترك في تتويج الملك ، وعلى رأسك تاج الأسقفية ...

فعلت العبارة الاخيرة فعلها في الكاهن ، فقد استل بندقيته وصرخ قائلاً :
- في جيبي خمسون خرطوشة يا سيدي المركزي وان حياتي للملك .
هنا التفت دورجون نحو الآنسة دو فرنوي وقال مشيراً الى الاب غودن :
- هذا واحد آخر من المدينين لي . لن أتكلم عن الستمائة الدينار التي استدانها مني ، بل عن دين الدم الذي لي بذمته . وأظن أنه سيسدد هذا الدين قريباً ، كل شريكه هذا الجزويقي ، فلن يكون على مستوى ما أتمناه له . لقد حكم على شقيقي بالموت وأثار البلاد كلها ضده ، لماذا ؟ لأن المسكين تخوف من القوانين الجديدة وضعف امامها .

وبعد ان ألقى نظرة على مخبأ ثروته ، أردف البخيل قائلاً :
- ها هم هؤلاء اللصوص راحلون ليجتروا عجيبة اخرى ، ارجو ألا يودعونني
باشعال النار في البيت .

بعد حوالي نصف ساعة سمعا صوت غالب شوين يقول :
- لقد زال الخطر يا دورجون ، غير اني ربحت هذه المرة ثلاثين ديناراً أمنك بحق .
- يا بنتي اقسمني لي بأن تغمضي عينيك .. قال البخيل للآنسة فرنوي :

وضعت الآنسة دو فرنوي احدى يديها على عينيها ، وأطفأ العجوز القنديل وقاد محررته من يدها ليساعدها على اجتياز دهليز صعب . وفي مدى بضع دقائق وجدت الآنسة دو فرنوي نفسها في الغرفة التي تركها المريكز منذ قليل ، وكانت من غرف البخيل الذي خاطب الحساء بقوله :

- بإمكانك الآن ان تذهبي . طبعاً ليس معك نقود ، اليك هذه العشرة الدنانير . بخروجك من الحديقة تجدين درباً يقودك الى المدينة او الى مركز القضاء كما يقولون . ولكن ، قد لا تتمكنين من العودة باكراً بسبب وجود الناعقين في فوجير ، وعليه تكونين بحاجة الى ملجأ ، احفظي جيداً الكلمة التي أقولها لك ولا تستخدمها إلا عند الخطر الشديد ، فعلى الطريق المؤدية الى نيدو كروك تجدين مزرعة يقيم فيها غران جيبو الملقب بغالوب شوبين ، ادخلها قائلة لزوجته : « نهارك سعيد يا بيانير » واسمها الحقيقي باريت ، وهي تجد لك مخبئاً . فاذا اكتشفك غالوب شوبين في الليل حسبك شجراً ، او في النهار ، فاعطه العشرة الدنانير وانتهى الأمر . والآن ، الوداع ، لقد صفيت حسابك . وأردف قائلاً وهو يشير الى الحقول التي تحيط بالمنزل :

- ان شئت فهذه كلها لك ! ...

بنظرة امتنان استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تتزعم من هذا المخلوق الفريد زفرة اختلفت معانيها وما أمكنه إلا ان قال لها :

- لا ريب في انك ستعيدين الي العشرة دنانير بلا فائدة . فادفعها لحسابي لسد اجور (باترات) كاتب العدل في فوجير الذي سيحرر عقد زواجنا ان شئت .. والثروة بانتظارك .. الوداع !

ردت الآنسة دو فرنوي له تحية الوداع باسمه :

- الوداع . ولكنه عاد فاستوقفها ليقول لها :

- اذا كنت بحاجة الى المال أقرضك ما تشائين بفائدة خمسة بالمئة ! نعم خمسة بالمئة فقط ! يا إلهي أتراني قلت خمسة ؟ واذا رآها تتابع طريقها دون ان ترد عليه ، قال في نفسه :

- يلوح لي انها فتاة طيبة . ومع ذلك سأغير نجماً ثروتي . قال ذلك
وأخذ خبزاً وشريحة من لحم الخنزير . ثم دخل الى مجننه .
مشت الآنسة دو فرنوي في البرية فأحست بأنها ولدت ثانية . فقد أنعشت
طراوة الصباح وجهها الذي ظل طوال ساعات ممتعماً تحت ضغط جو مكرب .

حاولت ان تجد الدرب القصير الذي حدثها عنه البخيل . إلا ان القمر كان قد غاب
وبغيا به ساد الظلام ووجدت نفسها تسير على غير هدى ، وخوفها من ان تسقط
في المهاري خلص حياتها ، اذ انها توقفت فجأة متوهمة ان الارض ستميدها ان
هي خطت خطوة واحدة الى الامام .

الهواء البارد يداعب شعرها وخرير المياه يحرك نفسها وكل شيء ينبشها بأنها
في الطرف الآخر من سان سوليبس . طوقت بذراعها جذع احدى الشجرات
ويقلق شديد راحت تنتظر بزوغ الفجر ، فقد سمعت قرعة سلاح وضجيج خيل
وأصواتاً بشرية فشكرت السماء لهذا الليل الذي حماها من الوقوع في ايدي الناعقين
المحيطين بالمدينة .

* * *

كالنار التي تشعل في الليل كعلامة للحرية ، هكذا ظهرت أشعة حمراء من
فوق الجبال التي ما برحت اصولها مغطاة بلون رمادي خفيف يتعاكس مع الغيوم
الوردية المتهادية على الاودية .

وان هي إلا لحظة ، واذا بقرص بلون الياقوت يرتفع ببطء في الافق ، فتهلل
الساوات لقدمه . وبرزت المناظر المتشابكة وقبة جرس سان ليونارد والصخور
والمروج الغارقة في الظل . كما ظهرت معالم الأشجار على ذرى الجبال في النور
الصاعد .. لقد انبثقت الشمس بطلعتها البهية من خلال أشرطة شعاعية ارجوانية
وزمردية ، وامتد نورها في خطوط متساوية من ربوة الى ربوة ومن واد الى واد
وتبددت الظلمات وعم النهار الطبيعة .

الهواء بارد والطيور تغرد والحياة تدب في كل مكان . ولكن ، ما كادت

الآنسة دو فرنوي تحول أنظارها عن هذه المجموعة الفريدة من المناظر ، حتى امتدت أبسطه من البخار فغطت الاودية وأخذت بالارتفاع حتى بلغت قمم الجبال فأغرقت هذا المنخفض الخصب تحت وشاح من الثلج . بعد قليل اخذ الطقس الثلج يلف موجات كالأقيانوس وينشر صفائح تتهادى بكسل ، تتموج وتندرج بعنف معاكسة أشعة الشمس المخضبة بلون وردي ، راسمة هنا وهناك أشكال بحيرة من الفضة السمحة .

وفجأة هبت الرياح فتبدد الضباب الذي ترك على العشب وندى مليئاً بالأكسيد^(١) ، وعندئذ استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تشاهد كتلة عظيمة سمراء على صخور فوجير انكشفت عن ٨٠٠ ناعق يتحركون بالسلاح في ضاحية سان سوليس ، كالنمل في قريتها ، للهجوم الصاعق على ضواحي القصر التي احتلها ٣٠٠٠ رجل منهم وقد وصلوا اليها بطريقة سحرية . وعلى الرغم من متاريس تلك المدينة النائمة وأبراجها القديمة المغبرة ، فقد كادت تسقط لولا سهر هولو ودرابته . لقد ردت المدفعية الخبأة في اسفل فجوة لأحد المتاريس على اول رصاصة أطلقها الناعقون وأخذت تحصدهم على الطريق المؤدية الى القصر ، ثم خرجت فرقة من باب سان سوليس واغتتمت دهشة الناعقين لتشتبك معهم في معركة ضارية وبدأت تصب عليهم نيراناً ماحقة .

واذ رأى هؤلاء الناعقون متاريس القصر مغطاة بالجنود لم يحاولوا المقاومة ، انما اخترق قسم منهم ، كان مسيطراً على وادي نانسون ، ممرات ضيقة بين الصخور وتمكن من الوصول الى جادة النزهة فوجدها مغطاة بجلود المعزى كأنها سقف من القش القاتم . وفي الوقت ذاته سمعت طلقات مدوية في قسم من المدينة يشرف على وادي كويسون . وتم الهجوم على فوجير من جميع النقاط لأنها كانت محاصرة . والنار التي ظهرت على المقابل الشرقية دلت على ان الناعقين احرقوا الضواحي ، ثم ما لبث الدخان ان تلاشى اشارة الى ان الحريق قد انطفأ وهبت ريح بددت الغيوم القاتمة التي أفلقت بال الآنسة دو فرنوي مرة اخرى .

وكان القائد الجمهوري قد غير اتجاه بطاريتيه بطريقة تمكن من السيطرة على

(١) هكذا جاء في النص الفرنسي .

وادي نانسون وعلى درب لارين وعلى الصخرة ، حين تبين ان أوامره في برومناد قد نفذت بمخافيرها ، فقد تصدت طليعتان من الجنود ، كانتا متمركزتين على مدخل سان ليونارد، للناعقين فدحرتهم ، بينا هرع الحرس الوطني في فوجير الى ساحة الكنيسة وطرده العدو .

كل هذه المعركة تمت في نصف ساعة ولم تكلف الجمهوريين سوى مئة رجل . اما الناعقون المنكسرون فقد اخذوا ينسحبون في جميع الاتجاهات بأمر من « الغار » الذي فشلت مهمته دون ان يعرف ، أثر قضية فيفتير التي قادت هولوا سراً الى فوجير . فالمدفعية الجمهورية وصلت في تلك الليلة ذاتها ولو ان أي نبأ عن نقل ذخائر الى الموقع بلغ المركز دو مونتوران مسبقاً لكان تخلى عن تلك الحملة التي ستبوء بالفشل المحتم . والحقيقة هي ان هولوا اراد ان يلحق درساً قاسياً للغار بقدر ما كان هذا الاخير يتمنى ان ينجح في مسعاه ليؤثر في اتجاه قرارات القنصل الاول . فمذ الرصاصه الاولى فهم المركز انه من الجنون مواصلة حملة لاسترداد الكرامة في مفاجأة ناقصة ، كما انه ، حرصاً منه على حياة ثواره ، أسرع في ارسال بعض المجندين مزودين بالتعليقات من اجل الاسراع في عملية الانسحاب على جميع النقاط . والقائد هولوا ، وقد شاهد خصمه محاطاً بأعضاء مجلسه العديدين وفي وسطهم مدام دو غوا، حاول ان يصلهم ناراً حامية باتجاه صخرة سان سوليبس غير انهم كانوا قد أحسنوا اختيار المكان بحيث لا يترفض الرئيس الشاب لنيران القنابل . وغير هولوا دوره فجأة وأصبح هو المهاجم ، فلدى التحركات الاولى التي كشفت عن نية المركز ، قامت الفرقة المتمركزة تحت جدران القصر بواجبها في قطع طريق الانسحاب على الناعقين باستيلائها على المنافذ الرئيسية من وادي نانسون .

اما من جهة الأنسة دو فرنوي ، فعلى الرغم من حقدتها الشديد ، فقد تبنت قضية الرجال الذين تحت قيادة حبيبها والتفتت نحو المنفذ الآخر لترى هل كان حراً ، فشاهدت الزرق المنتصرين وهم عائدون من وادي كويسنون عن طريق جيباري ليستولوا على نيدو كروك وعلى جزء من صخرة سان سوليبس حيث

المنافذ السفلى لوادي نانسون، وبذلك أصبح الناعقون المحاصرون في حقل ضيق، معرضين للخطر المحتم بجمعهم بقدر ما كانت تحسبات القائد الجمهوري صحيحة وتدابيره محكمة، غير ان المدافع التي اعتمد عليها قصرت عن واجبها فوقعت معركة ضارية من النوع الذي ألفه الناعقون. وعندئذ فهمت سبب التحشيدات التي كانت قد رأتها في البرية واجتماع الرؤساء عند « دورجون » وجميع الاحداث التي وقعت في تلك الليلة دون ان تفهم كيف تسنى لها الخلاص من جميع تلك المخاطر. ومع ذلك دفعها اليأس الى البقاء في مكانها تنعم النظر في اللوحات المتحركة البادية لناظرها. وقد وجدت في المعركة التي وقعت في سفوح جبال سان سوليس مصلحة اخرى لها.

عندما تحقق المركز وصحبه ان الزرق أوشكوا ان يكونوا سادة الموقف انطلقوا لنجدة الناعقين في وادي « نانسون » حيث كان الجنود في هياج وقد صموا على الحياة او الموت في ساحة الوغى بأسلحة أصلح حالاً من أسلحة ذوي جلود المعزى.. وبصورة لاشعورية امتدت هذه المعمعة حتى الفضاء، فالناعقون، تسلقوا جذلين، الصخور المحيطة بـ « سان سوليس » مستعينين بأغصان الشجيرات النابتة هنا وهناك.

هذا، وقد عانت الآنسة دو فرنوي فترة من الرعب وهي ترى الأعداء يتسمنون قمم الجبال حيث دافعوا بضراوة عن الدروب الخطرة التي جاءوا منها. ولما كانت جميع المنافذ تحت اشراف الفريقين، فقد خافت ان تكون بين حشديها، فتخلت عن الشجرة التي كانت ممسكة يجذعها وولت هاربة، وفي نيتها ان تستفيد من توصيات البخيل العجوز لها. وبعد ان ركضت مسافة طويلة على مقالب جبال « سان سوليس » المشرفة على وادي « كويسنون » الكبير شاهدت عن بعد حظيرة قدرت أنها تابعة لمنزل « غالوب شوبين » الذي لا بد ان يكون ترك زوجته وحدها أثناء المعركة، وأملت ان تلاقي في المنزل استقبلاً حسناً يشجعها على المكوث بضع ساعات الى ان تتمكن من العودة الى فوجير، بعد زوال الخطر.

جميع الدلائل كانت تشير الى ان هولو سينتصر ، فالناعقون يهربون بسرعة الى حد ان الآنسة دو فرنوي سمعت طلقات النار من جميع الجهات . وخوفها من ان تصاب برصاصة طائشة اوصلها الى كوخ بداخون يقوم مقام الدعامة ، وكانت الطريق التي سلكتها تؤدي الى مريض خيسل سقفه مدعوم بأربع شجرات ضخمة فيه معصرة لصنع الخمر ، وبيدر للحنطة وبعض ادوات الحراثة . وقفت ماري قرب احدى الدعائم ممتنعة عن اجتياز المستنقع الموحد امام البيت الذي حسبته الباريسية الحسنة حظيرة للمواشي ، وحين فتحت الباب هاجمتها رائحة حموضة كريهة ورأت ان الحيوانات ذات القوائم الاربع قد هدت الجدار الداخلى الفاصل بينها وبين الفرقة ، وفيما هي تتأمل في هذا المسكن الشبيهة بحظيرة موحلة وتتساءل كيف يمكن لمخلوقات بشرية ان تقيم فيه ، اذا بها ترى صيباً في ثياب بالية لا يتجاوز التاسعة من العمر ، يقترب منها بوجهه النضير الوردى وعينيه الحارتين وأسنانه العاجية وشعره الأشقر المسترسل خصللاً ذهبية على كتفيه العارين إلا قليلاً . أعضاؤه متينة وفي حركته دهشة حلوة ومذاجة متوحشة ظهرت في اتساع عينيه . كان طفلاً في منتهى الجمال البريء .

- أين امك ؟ سألته ماري بصوت رقيق وهي تنخفض لتقبله على عينيه .
بعد ان تلقى الولد القبلة ، تركها مسرعاً وتوارى خلف كومة من القمامة ،
ما بين البيت والطريق .

الواقع ان غالوب شوبين كان ، كسائر الفلاحين البريتونيين يضع القمامة برسم السباد في أمكنة عالية فاذا هطل المطر جردها من جميع خواصها النافعة للزرع .
والآن ، وقد أصبحت ماري هي ربة المنزل لبعض الوقت ، فقد اخذت في تقيم الغرفة التي تنتظر فيها باريت زوجة غالوب شوبين . كانت أكثر الامتعة بروزاً مدفاة كبيرة باطار من قطع الآجر الازرق . وخرقة حرام من الصوف خضراء محاطة بشريط من نفس اللون مقصوصة بشكل مستدير معلقة على الحائط وفي وسطها صورة العذراء كتب تحتها بيتان من قصيدة دينية رائجة هما :

أنا ام الرب .
حارسة هذا المكان .

وبالقرب من العذراء صورة ملوثة بالحبر على شكل لوحة . تمثل القديس
لابري ، وفي الغرفة سرير مغطى بمجرام رث أخضر ، ومنامة طفل ، وكراسي
مخلّعة ، وصندوق محشو ببعض الاواني المنزلية ، كان هذا كل ما في الغرفة من أثاث .
وأمام الكوة طاولة كبيرة مع مقعدين وخابية كبيرة للشراب ، لاحظت
الآنسة دو فرنوي تحت قماطها كتلة حائلة الصفرة من الطين ، جبلت على أرض
موحلة ، أخفت الرطوبة معالم حجريتها المكونة من الآجر والغرانيت والصلصال
الأحمر ، وفي ذلك كله دليل على ان «غالوب شوبين» كان جديراً بلقب «ناعق» .
أغمضت الآنسة دو فرنوي عينها عن هذا المشهد المخزي وخيل اليها ان
جميع خفافيش الارض تأوي الى هذا المكان لكثرة ما فيه من نسيج العنكبوت
المتدلي من السقف .

وكان بود ماري ان تتابع تقييم البيت ، إلا ان احتدام المعركة أرغها على
البحث عن مكان نظيف تحتبىء فيه ، وفي هذه اللحظة ظهرت زوجة غالوب
شوبين ، فابتدتها الآنسة دو فرنوي قائلة :

- نهارك سعيد يا بيكانيير ! قالتها ماري وهي تغالب ابتسامه لا ارادية ظهرت
على ثغرها لمظهر هذا الوجه الغريب الذي كان يشبه الوجوه التي تزين بها رؤوس
بعض المفاتيح .

- آه ! آه ! أنت قادمة من قبل دورجمون ؟

قالتها بارييت دون حماسه .. فقالت ماري بلهفة :

- أين تحببيني ؟ الناعقون على الابواب ...

- هنا .. تعالي ..

قالت ذلك وهي تقودها الى مقدمة سريرها لتدخلها في عمر ولكنها وقفتا
مذعورتين لدى مشاهدة رجل مجهول يقفز الى المستنقع . وما كادت بارييت تنتهي
من ارخاء ستارة السرير على ماري حتى وجدت نفسها امام ناعق فار ابتدراها بقوله :
- أين يمكنني ان أختبىء انا الكونت بوفان .

اختلجت الأنسة دو فرنوي وهي تتعرف الى صوت احد ضيوف فيفتير
الذي تلفظ ببعض كلمات ، بقيت سرأ عليها ، سببت تلك الكارثة المشؤومة .
أجابته باربيت قائلة :

- آسف يا سيدي ، لاشيء عندي أحجبك به ، كل ما يمكنني عمله هو ان
أخرج للحراسة حتى اذا اقبل الزرق أنذرتك ، اما ان بقيت هنا وشاهدوني
معك ، فسيشعلون النار في البيت .

قالت ذلك وخرجت ، لأنها لم تكن ذكية الى حد التوفيق بين مصالح
خصمين تساويا بالخبأ وفقاً للدور المزدوج الذي يلعبه زوجها .
وقال الكونت مخاطباً نفسه :

- لم يعد معي سوى رصاصتين لا فائدة من اطلاقها. لكن الزرق تجاوزوني،
وكم أكون سيء الحظ لو عادوا من هنا وطاب لهم ان يفتشوا تحت السرير .
قال ذلك وأسند بندقيته الى عمود السرير حيث كانت ماري واقفة ملتفة
بجرام اخضر ، وانحنى ليتأكد اذا كان باستطاعته ان يدخل تحت السرير، وكان
لا بد له من ان يرى قدمي اللاجئة التي غشاها اليأس فاستات البندقية وقفزت
بخفة الى صحن الكوخ مهددة الكونت الذي انفجر ضاحكاً اذ تعرف اليها ،
لأنها ، قبل ان تختبئ ، كانت قد نزعته عن رأسها القبعة الواسعة التي تتنكر
بها وظهرت صفائر شعرها من تحت ما يشبه شبكة من الدنتيلا .
وانتهرت ماري بقولها :

- لا تضحك أيها الكونت .. انت الآن أسيري ، فان أتيت بحركة ابتليت
بما تستطيع ان تفعله امرأة مهانة .
وفيا كان الكونت وماري يتبادلان النظر بانفعالات مختلفة ، سمعت من بين
الصخور أصوات مختلفة تصرخ :

- خلصوا الغار ، انحرفوا ، خلصوا الغار ، افتحوا له الطريق ، انحرفوا ...
من بين جميع الاصوات برز صوت باربيت عالياً سمعه ضيفا الكوخ الحصان
بشعور مختلف ، اذ انها كانت توجه الكلام في الحقيقة اليها اكثر من توجيهه الى

ابنها الصغير . وأردفت قائلة :

- ألا ترى الزرق يا بنيّ ؟ تعال الى هنا أيها الصغير الشقي وإلا ذهبت انا اليك ، ام انك تحاول التصدي لطلقات البندقية ؟ هيا انجُ بنفسك في الحال ! وفيما هذه الاحداث تجري بسرعة ، اذا يجندي يقفز الى المستنقع . عرفته الآنسة دو فرنوي ونادته باسمه : بوبيه .

أسرع بوبيه على صوتها وسدد فوهة بندقيته الى صدر الكونت بأحسن مما فعلت محررته وانتهره بقوله :

- لا تتحرك أيها الارستوقراطي وإلا هدمتك كالباستيل بدقيقتين .

وعادت الآنسة دو فرنوي تقول لبوبيه ملاطفة :

- اعهد اليك بهذا الاسير ، افعل به ما شئت على ان تعيده الي سالمًا في فوجير .
- سمعاً وطاعة يا سيدتي .

- وهل طريق فوجير حرة الآن ؟

- الطريق آمنة إلا اذا بعث الناعقون بعثاً جديداً .

تسلحت الباريسية الحسناء ، جذلة ، ببندقية الصيد الخفيفة وهي تخاطب أسيرها ساخرة :

- الوداع أيها الكونت ، والى اللقاء !

وتم الكونت بمرارة قائلاً : لقد عرفت متأخراً انه لا يجب المزاح قط مع اللواتي لم يعد هن كرامة . فصرخ بوبيه في وجهه بقساوة :

- أيها الارستوقراطي ، اذا كنت لا تريد ان أرسلك الى نعيمك المرتجى فلا تتلفظ بكلمة سوء ضد هذه الحسناء ..

* * *

عادت الآنسة دو فرنوي الى فوجير بواسطة الدروب التي تصل صخور « سان سوليبس » بـ « نيدوكروك » . ومن هذه الربوة سارت في طريق متعرجة وهي تتفرج على وادي نانسون الجميل الهادئ بعد اضطراب ، ثم ولجت مدخل

« سان ليونار » واختلطت بالناس وهم بانتظار عودة الحرس الوطني ليقدرُوا
الخصائر التي لحقت بهم .

كانت فرانسين قد أمضت الليل بطوله ، فريسة قلق شديد ، بانتظار سيدتها ،
واذ رأتهما شاءت ان تتكلم ، إلا ان ماري فرضت عليها السكوت بجرعة
حبية وقالت :

- لم أمت يا بنيقي ، لقد توخيت المتاعب فوجدتها ، وعدت سالمة .
وشاءت فرانسين ان تخرج لتوصي باحضار الطعام إلا ان سيدتها طلبت اعداد
الحمام أولاً .

اشتدت دهشة فرانسين حين طلبت منها سيدتها ان تأتيا بأجل ما في صناديقها
من فساتين . وبعد ان تناولت طعام الغداء جلست ماري تزين بدقة المرأة التي
تنوي لقاء شخص عزيز في حفلة راقصة . وما استطاعت فرانسين ان تفهم سبب
جدل سيدتها الساخر ، لم يكن جدل الحب ، طبعاً ، فالمرأة لا تخطيء في التعبير
عن نفسها .

رفعت الآنسة دو فرنوي ستارة النافذة وقربت الكنبه من المدفأة وطلبت
من فرانسين ان تأتيا بمقدار كاف من الأزهار لتضفي على الغرفة بهجة العيد .
واذ جاءت فرانسين ، ابدت ماري براعة فنية في ترتيبها ، وبعد ان ألقنت نظرة
رضى اخيرة على الغرفة ، طلبت من فرانسين ان ترسل في طلب الكونت الاسير
الموجود في عهدة بويه . ثم استلقت على الكنبه بتلذذ ، وما كان ذلك للراحة بقدر
ما كان لاتخاذ وضع شيق انيق ؛ سلطان اغرائه لا يقاوم في بعض النساء ،
والوضع الجسدي الذي اتخذته يتفق تماماً مع نظراتها المنصبة للفتنة ، وكانت قد
احرقت العطور لتشييع في جو الغرفة أريجاً عبقاً يسطو على مشاعر الرجل ويمهد
لانتصارات تؤمنها المرأة لنفسها دون ان تتوسل اليها .

بعد لحظات دوّت خطوات القائد هولوا في الصالة المقابلة للغرفة فابتدرته
الآنسة دو فرنوي بقولها :

- اين هو أسيري يا حضرة القائد ؟

- ارسلت في طلب سرذمة من ١٢ رجلاً لاعدامه بتهمة حمل السلاح .
- لقد تصرفت بأسيري اذن !! اسمع يا حضرة القائد . ان قتل رجل بعد
المعركة ، لا يمكن ان يرضي انساناً له سبأؤك . أعد اليّ « ناعقي » واجعل
موته مؤجل التنفيذ وانا الكفيلة برده اليك . اصارحك القول بأن هذا الارستوقراطي
اصبح يؤمن لنا فائدة كبرى ، اعده اليّ واستمر في التعاون مع رفاقك من اجل
تحقيق مشاريعنا ، هذا فضلاً عن ان قتل هذا الناعق هو بمثابة اطلاق رصاصة
على بالون لا يحتاج الى اكثر من وخزة دبوس لينطفئ . بحق السماء دع الشراسة
للارستوقراطيين ، ولنكن نحن الجمهوريين سموحين كرماء ، او لم تعف انت عن
ضحايا كيبيرون ؟ هيا ، ارسل جنودك الاثني عشر ليقوموا بدورية حراسة وتعال
تعشّى عندي مع أسيري ، لم يبق من النهار سوى ساعة وبعدها لا يعود لزيّنتي
أي تأثير .

تردد القائد لحظات فأردفت قائلة :

- ماذا تريد ؟ تكلم ، لن يفلت الكونت من يدك ، لسوف يسقط برصاصك
عاجلاً ام آجلاً .

رفع القائد كتفيه قليلاً كمن ارغم على النزول عند رغبة سيدة حسناء . ثم
انصرف ليعود بعد نصف ساعة يقبعه الكونت دو بوفان .

تظاهرت الآنسة دو فرنوي بأنها فوجئت بزيارة الرجلين فتكلفت الحياء اذ
شاهدتها مسترخية بتكاسل على الكنبه ولكن ، بعد ان لاحظت دلائل الافتتان
في عيني النبيل ، نهضت وراحت تهتم بضيئفها ، لطيفة الحركات ، وبتهديب كلي .
وما من شيء من تصرفاتها كان يفصح نياتها وخططها ، لا ابتسامتها ولا مشيتها
ولا صوتها . كل شيء فيها كان متزناً وطبيعياً لا يدع شبه ظن بأنها تتظاهر بما
ليس فيها .

وبعد ان جلس الرجلان ، الملكي والجمهوري ، ألقت على الكونت نظرة قاسية .
ولما كان النبيل خبيراً في شؤون النساء ، فقد عرف ان الاهانة التي ألحقها بالآنسة
دو فرنوي تستحق حكماً بالموت ، ولكنه على الرغم من هذا الظن ، اتخذ موقفاً

هادئاً . وأيقن انه من العار التظاهر بالخوف من الموت امام امرأة جميلة ، ثم ان نظرة ماري القاسية اوحت اليه بفكرة ، فقال مخاطباً نفسه :

- من يدري فلعل تاج الكونتية يعجبها أكثر من تاج مركز ضائع ؟ ان موتوران رجل جاف كالخشبة .. اما انا .. فمن يدري ؟ لعل اقل شيء اناله هو نجاة رأسي ..

هذه التصورات الدبلوماسية بدت لغواً وبلا فائدة فقد واجهته ماري بالتصريح التالي :

- انت اسيري يا سيدي الكونت ولي ملء الحق في ان استجوبك كما اشاء . ان تنفيذ الاعدام فيك لن يتم بدون رضاي ، لكنني اشعر بشوق ملح لأن ارديك في الحال .

- واذا لزمتم الصمت وامتنعت عن الجواب على الاستنطاق ؟

- قد يفيد الصمت مع امرأة شريفة ! اما مع « بنت حلال » ... هيا يا حضرة الكونت ، هذا محال ، وبسخرية لها فعل السم الناقع اردفت قائلة :

- ومع ذلك ، وحتى لا اكذبك ، سأتصرف تصرف « البنات » وسأبدأ برد بندقيتك اليك ، قالت ذلك وقدمت له بندقيته فأخذها وقال :

- عهد رجل نبيل يا آنستي ، انك ... فقاطعته بعصبية قائلة :

- آه ! لقد شبت من عهود النبلاء ! على هذه الكلمة دخلت الى فيفتير ، فقد

اقسم لي رئيسك بأني ورجالي نكون عنده في امان ، وكان ما كان !

- يا للعار ! صاح هولو وهو مقطب الحاجبين .

- الحق على الكونت يا حضرة القائد ، لقد كان « الغار » يود ان يحافظ على

عهده ، غير ان هذا السيد اشاع عني تهمة أكددت جميع الافتراءات التي شاءت « بغلة شاريت » ان تلحقها بي زوراً وبهتاناً .

- مهلاً يا آنستي ، اقسام بأني لم اقل غير الحقيقة .

- بقولك ماذا ؟

- بأنك كنت ...

- أكمل ، قلها : حظية ...

- حظية المريكز دو لينكور الذي صار اليوم دوقاً ، وهو احد اصدقائي !
- الآن استطيع ان ارسلك في داهية ! قالت دون انفعال امام هذه التهمة العفوية التي ألصقها بها الكونت ، وقد وقف مشدوهاً حيال هذه اللامبالاة التي قابلت بها تهمة ، تابعت كلامها قائلة وهي تضحك :

- لا تحف يا سيد . لكنك لم تغظني بقدر ما أسأت الى صديقك الذي اردت ان تجعلني ... عيب عليك ! ألم تقابل والدي الدوق دو فرنوي ؟ ماذا تقول ؟
وكان الآنسة دو فرنوي اعتبرت القائد هولو أرفع من ان يتدخل في مسارة خطيرة كهذه ، اجتذبت الكونت نحوها بحركة من يدها وأسرت في أذنه بضعة كلمات قابلها الكونت دو بوفان بدهشة عظيمة وتطلع مشدوهاً في الآنسة ماري التي أكملت الذكرى التي أنارتها وهي مستندة الى المدفأة في وضع ينم عن براءة وسذاجة الاطفال وعندها جثا الكونت امامها على ركبتيه وصرخ قائلاً :

- أتوسل اليك أيتها الآنسة ان تغفري لي مها كان ذنبي عظيماً .

- ليس لي ما أغفره لك كما ليس لك ما تندم عليه سوى افتراضك الوقح في فيفتير . غير ان هذه الأسرار هي فوق مستوى ذكائك . اعلم أيها الكونت ان ابنة الدوق دو فرنوي هي أرفع من ان تبالي بك .

- حتى بعد الاهانة ؟ سأل الكونت وهو بادي الندم . فأجابته :

- ثمة أشخاص ارفع من ان تطالهم الاهانات .. وأنا من هؤلاء .

قالت الآنسة دو فرنوي هذا الكلام بكبر وشموخ كأنها تفرض ارادتها على الكونت . اما « هولو » فقد عجز عن ادراك اللغز فراح يفتل شاريه ويتطلع بقلق الى الآنسة دو فرنوي التي أوامت له بما معناه : انها لم تخرج عن الخطط .

وبعد ان طلبت من فرانسين ان تشعل النور في الغرفة ، حولت الحديث بلباقة الى شؤون الماضي القريب مانحة الكونت عدة فرص ليستعيد طمأنينته بملاطفتها ونعومتها الى ان انتعش وراح يحاول مشاركتها الرأي وحاولت هي

بدورها ان تمارس سحرها عليه بتلاعبها بعواطفه ، تملله تارة وتشوقه تارة اخرى فكانت أشبه بالصيد الذي يكرر رفع السنارة من الماء ليرى اذا كانت السمكة قد علت بالطعم . وألسن الكونت لها قياده ، وأسمعا كلمات من المديح استساغتها وأبعدها الوف الأيمال عن شؤون الهجرة والجمهورية وبريتانيا والناعقين... في حين ظل هولو صامتا جامداً كالتمثال عاجزاً عن الخوض في مثل هذه الاحاديث لأنها فوق مستوى ثقافته . وكان كل مه ان يعرف هل كانا يتآمران ضد الجمهورية بكلمات مبطنة .
وقد تابع الكونت كلامه قائلاً :

- ان مونتوران رجل مهذب جميل لكنه لا يعرف الكياسة لأنه دخل قصر فرساي وهو صغير السن وقبل ان تكمل ثقافته . فبدلاً من ان يداجي يطعن بالسكين ، يستطيع ان يحب بعنف انما يفتقر الى كياسة المحبين ولباقتهم ، انه لا يملك فن التحدث مع النساء بأمر جميلة تافهة انما تعجبهن أكثر من مكاشفات الحب التي طالما سمعنها فمللنها ، أي نعم ، انه ، وان كان ثرياً ، فهو غير سلس ولا ظريف .

- لقد لاحظت ذلك ، اجابت ماري وفي صوتها أنة حنين وفي نظرتها بريق حب جعل الكونت يمني النفس بها ، وفي سبيل امتلاكها صمم ان يصدق كل ما تريد ان يصدقه .

ومد لها يده للانتقال الى الصالون بعد انتهاء العشاء الذي احاطته بأبهج المراسم المهودة في القصور الملكية . وفي الصالون التفتت نحو القائد هولو وقالت له :

- بإمكانك ان تنسحب لأنك تخيفه ، فاذا اختليت به أعرف كيف أستنتقه واحصل منه على كل ما اريد من المعلومات . لقد وصلت به الى نقطة حساسة لا يمكنه معها إلا ان يكشف لي قلبه ولا يرى إلا بعيني .

واذ أبدى هولو حركة يقصد بها المطالبة بالأسير ، اجابته على الفور :
- انه حر ، حر طليق كالهواء .

- ولكنه حمل السلاح ..

- كلا ، اجابت مازحة ، لقد جردته من سلاحه . قالت ذلك والتفتت نحو الكونت قائلة له :

- أيا الكونت ، لقد استحصلت لك على حريتك مجاناً ولوجه الله .
- بل سلي ما تشائين ، لك اسمي وشرفي، وكل ما املك اضعه على قدميك .
واقترب منها ليلمس يدها محاولاً ان يجعل من رغباته دليلاً على امتنانه وعرفانه بحسن صنيعها . إلا انها لم تكن ممن يؤخذن بأحابيل التفرير ورغم ذلك علته بابتسامة بعثت الامل في قلبه حين قالت له :

- تريدني ان اندم على ما منحتك من ثقة؟! ..!
اجاب ضاحكاً :

- نخيلة الاوانس أسرع تصوراً من نخيلة السيدات ...
- ذلك لأن خسارة الفتاة اقدح من خسارة المرأة ..

- صحيح ، الحق معك ، على من يملك كنزاً ان يكون حذراً .
- دعنا من هذا الحديث ولنتكلم جدياً . انكم تقيمون حفلة راقصة في سان جيمس وقد بلغني انكم حشدتم هناك مخازنكم وذخائركم ومقر حكومتكم ، فمتى تكون الحفلة ؟
- غداً مساء .

- لا تعجب يا سيدي اذا علمت ان امرأة مفترى عليها من قبل امرأة اخرى تحرص ان تحصل على تسوية لاهانات لحقت بها بحضور شهود عيان ، وعليه فسأحضر حفلتكم وانا اطلب حمايتك من بداية الحفلة الى ان اخرج منها، لا اريد منك قسماً ، انني أكره القسم لأنه لا يعني أكثر من وقاية . قل ببساطة انك تتعهد بضمان نفسي من كل عملية اجرامية او افتراضية مخجلة ، عدني بأنك تصلح خطأك بالاعلان بأني ابنة الدوق دو فرنوي فعلاً على ان تكتم جميع الولايات التي أصابتني في الحماية الأبوية . وهكذا نكون قد صفينا حساباتنا . وهل في حماية

فتاة مدة ساعتين في حفلة راقصة غرامة فادحة ؟ هيا ، انك لا تساوي فلساً واحداً علاوة على ذلك . وابتسامة من ثغرها الريان تحت كل ما في هذا الكلام من تعريض .. وسألها الكونت ضاحكاً عما تطلبه ثمناً للبندقية .

فأجابته :

- هي عندي أغلى منك .

- ماذا ؟

- انه « سر المرأة » يا سيد بوفان ، ولا تحلّه غير المرأة ، انا متأكدة انني أهلك في الطريق بكلمة منك . امس انذرتني بضع قنابل بالخطر واضطرتني الى الركض في الطريق ، حقاً انها لامرأة امهر في الصيد منها في صناعة الزينة والتبرج . لم اعرف أي خادمة امهر من مدام دو غوا في تعرية خصمها بمثل هذه السرعة . آه ! لطفاً ، احرص ألا يصيبني شيء من مثل هذه المخاوف في الحفلة ...

- ستكونين في حمايتي ، ولكن ، هل تجيئين الى سان جيمس من اجل مونتوران؟

- انك تريد ان تعلم أكثر مما أعلمه انا نفسي ، قالت ضاحكة وأضافت :

- لنخرج ، وسأقودك بنفسي الى خارج المدينة .. ان حربكم هذه لأقسى من

حروب أكلة لحوم البشر .

- معنى ذلك يهكم امري قليلاً ، آه يا سيدتي ، دعيني أعلل النفس بأنك

تحسين بصدائتي ، انني أكتفي منك بهذه العاطفة .

- هيا بنا ! قالتها بلهجة جذلة كعربون مودة لا يحط من كرامتها ولا

يكشف سرها .

ثم وضعت فراءها على كتفيها ورافقت الكونت حتى نيدوكروك واذ

وصلت به الى آخر الدرب قالت له :

- كن كتوما حتى مع الماركيز يا سيدي الكونت .

اغتر السيد بوفان بلطف الأنسة دو فرنوي فتجاسر واخذ يدها ، واذ تركتها

له كمنّة عظيمة منها ، طبع عليها قبلة حارة وقال :

- ثقي بي في الحياة وفي الممات يا آنستي ، انني ، وان كنت أكن لك امتناناً

يضاهي امتناني لوالدي فانه لمن الصعب علي ان لا أكن لك سوى الاحترام ...
قال ذلك وانطلق في دربه . وبعد ان رأته ماري يسير في صخور سان
سوليس هزت رأسها علامة الرضى وقالت تخاطب نفسها :

- لقد سلمني أكثر من حياته، من اجل حياته، سأجعله صنيعتي بثمن زهيد...
هنالك صنيعه او صانع ، وذلك هو الفرق بين رجل وآخر .

ثم ألقى نظرة يأس نحو السماء ومشت ببطء الى مدخل سان ليونار حيث
وجدت هولو وكورنتان بانتظارها ، فابتدرتها بقولها :

- بعد يومين ... وسكنت اذ تبين لها انها ليسا لوحدهما ، واقتربت من اذن
هولو وتابعت : ويسقط قتيلاً برصاصك ..

ترجع القائد خطوة الى الوراء ناظراً بسخرية الى تلك الفتاة التي خلت هيبتها
ووجهها من أي دليل على تكبوت الضمير ، والعجب في النساء أنهم لا يقمن أي
وزن لأعمالهن مها كانت أليمة . انهن يندفعن بالعاطفة ويكن طبيعيات حتى في
تخفيهن ، ولدين فقط تلتقي الجريمة بدون حطة وفي معظم الاحيان لا يعرفن
كيف يتصرفن .

واذ أخبرتها بأنها ذاهبة الى سان جيمس لحضور الحفلة الراقصة التي يحبها
الناعقون ، سأها كورنتان اذا كانت تريد ان يرافقها بداعي ان المسافة بعيدة
فأجابته باستخفاف ظاهر :

- انك تهتم كثيراً بالشيء الذي لا أفكر فيه قط ... اعني بك ..
هذا الازدراء الذي اعربت عنه ماري نحو كورنتان أعجب كثيراً هولو
فشيحها بنظرة مستغربة وهي تبتمد نحو سان ليونار ، واتبعها كورنتان بناظريه
وعلى وجهه آثار انفجار داخلي ، مصدره سيطرة مشؤومة ظن بأنه يستطيع ان
يفرضها على الفتاة الجميلة التي كلف نفسه بمراقبة ميولها ، حاسباً ان في وسعه ان
يحولها ذات يوم اليه .

وما كادت الآنسة دو فرنوي تصل الى بيتها حتى أسرع الى صناديقها لتتقي
منها ملابس الرقص ، ولما كانت فرانسيس معتادة على تلبية اوامر سيدتها دون ان

تعرف مقاصدها ، فتشت الصناديق واختارت لها بدلة من طراز اغريقي رائع
ووضبت ادوات زينتها في علبة سهلة الحمل . بعدئذ أخبرتها ماري بأنها مزمنة
على اجتياز الحقول وخيرتها بين الذهب معها او البقاء في البيت فأجابتها فرانسين
قائلة بلهفة :

- ابقى في البيت ؟ ومن ذا الذي يلبسك غيري ؟

- أين وضعت القفاز الذي سلمتك إياه صباحاً ؟

- هوذا .

- خيطي عليه شريطة خضراء ولا تنسي ان تأخذي بعض النقود .

واذ لاحظت ماري ان النقود التي حملتها فرانسين هي قطع جديدة ، صرخت :

- لا ينقصنا إلا هذه النقود حتى نموت قتلاً ، دعي جيريمي توقظ كورنتان ...

كلا ليس كورنتان لئلا يلحق بنا ، دعها بالاحرى تذهب الى القائد هولو وتطلب
منه باسمي دانير من فئة الستة فرنكات .

وهكذا ، بفضة وذكاء فكرت بكل شيء . وفيما فرانسين تعد لوازم

الرحلة ، اخذت هي تتمرن على تقليد نعيب البومة . فتمكنت من تقليد شعار

مارش آتير على أكمل وجه ، وفي منتصف الليل تركت مدخل سان ليونار

ومشت في الطريق التي تؤدي الى نيدوكروك وتغلغلت ، تتبعها فرانسين ، عبر

ممر جيباري بخطى ثابتة مدفوعةً بإرادة قوية وعزيمة جامحة .

- انك ذاهبة دون ان توكلي امرك الى الله ، قالت ذلك فرانسين وقد وقفت

تأمل في قبة جرس الكنيسة ، ثم ضمت يديها الى بعضها وتلت السلام الملائكي

لحنّة اوراي القديسة متوسلة ان تجعل هذه الرحلة موفقة . هذا ، فيما بقيت سيدتها

شاردة الذهن تنظر حولها وتأمل في خادمها البريئة وهي تصلي بجملة ، وفي

نور القمر الغائم .

وصلت المسافرتان الى كوخ غالوب شوبين ، وعلى الرغم من خفة وطء اقدامها ،

استيقظ احد الكلبين وهجم عليها بشراسة مرسلانباحاً خفيفاً اضطرهما الى طلب

النجدة . واذ لم تلق الانسة دو فرنوي جواباً من احد ، صفرت صغير البومة ،

وسرعان ما فتح الباب على مصراعيه وأطل منه غالوب شوبين شاحب الوجه ،
فقالت ماري وهي تعرض على حارس فوجير قفاز المريكز دو مونتوران :
- علي ان اتوجه في الحال الى سان جيمس ، وقد قال لي الكونت دو بوفان
انك ستصحبني وتكون لي بمثابة حارس للدفاع عني عند الحاجة . على ذلك ،
ايها العزيز غالوب شوبين ، احضر لنا حمارين للركوب واستعد لمرافقتنا ، اسرع
فالوقت ثمين ، فاذا تأخرنا عن الوصول مساء غد الى سان جيمس فلن نحظى برؤية
« الغار » ولا بحضور الحفلة .

اخذ غالوب شوبين القفاز بارتباك وراح يقلبه تحت نور الشمعة ، وبعد ان
رأى الشريطة الخضراء وتطلع ملياً في الآنسة دو فرنوي ، وبعد ان حك اذنه
وشرب جرعة من الخمر وعرض الكأس على السيدة الحسناء ، انسحب ليأتي
بالحمارين .

لم يكن نور الشمعة البنفسجي قوياً الى حد التفوق على ضوء القمر الذي نمق
اللطخ على الارض وعلى أثاث الكوخ الداخن ، وقد رفع الطفل رأسه الجميل
مدهوشاً وفوقه بقرتان اطلتا من خلال ثقب حائط الزريبة . واخذ الكلب
الكبير ، ولم يكن اقل من أولئك الافراد ذكاء ، يتفحص الغريبتين بفضول لا يقل
عن فضول الطفل المتعجب . ولو ان رساماً وقعت عيناه على هذا المشهد لوقف
طويلاً يتأمل تأثير الظلام في لوحاته . اما ماري فقلمت كانت تهتم بالدخول في
حديث مع باربيت التي انتصبت كالتمثال وفركت عينيها الواسعتين وهي تتأمل
ماري التي ما لبثت ان خرجت هرباً من الهواء الملوث ومن الاسئلة التي كانت
تطوف على لسان لابيكانبير ، ثم صعدت ببطء على درجات الصخرة قرب الكوخ
وجلست تتأمل معالم الطبيعة النائمة تحت ضوء القمر الذي كان يغمر وادي
كويسنون ، وفي مثل هذه الجلسة ، تستمتع كل امرأة بالكأبة التي يولدها نور
القمر الشاحب في النفس ، ان كانت عاشقة تحمل في قلبها حباً صريحاً .

في هذه اللحظة عكر نهيق الحمارين صفو سكون الليل ، فأسرعت ماري
بالتزول الى الكوخ وخرج الجميع ، وقد تسلم غالوب شوبين ببندقية صيد ذات

طلقتين ، ووضع فوق ملابسه الجلد المؤلف فشابه بزيه روبنسون كروزو ، ولا سيما بقبعته الواسعة الاطراف التي ما برح فلاحو فرنسا يحتفظون بها الى اليوم كأثر لتقليد قديم .

قافلة تسري في الليل البهيم بحماية دليل تطل من بذلته ومن هيئته ووجهه هيبة كهنة التوراة ايام نزوح العائلة المقدسة الى مصر هرباً من هيرودس . وقد تجنب غالوب شوبين السير في الطريق الكبير وقاد الغريبتين في متاهات شاسعة عبر بريتانيا . وبذلك أدركت الآنسة دوفرنوي خفايا حرب الناعقين واستطاعت ، أثناء مرورها في تلك التشعبات ، ان تتبين حالة تلك الأرياف بمنظرها الرائعة ، انما قضي عليها ان تحث الخطى اتقاءً للمخاطر وللصعوبات .

حول كل حقل ، ومنذ العصور القديمة ، اقام الفلاحون سوراً من الطين بعلو ستة اقدام تتكاثف على أعلاه اغصان اشجار الكستناء والسنديان ويعرف هذا النوع من السياج بالسياج النورماندي ، والطرق التي يحضنها الجدار وعرة ومليشة بالحفر ولا تستطيع العربة السير فيها إلا بواسطة ثورين وبغلين قويين ، ويترتب على المشاة الذين يريدون الانتقال من حقل الى آخر ان يصعدوا الى أعلى السياج بواسطة درجات ملساء بفعل الامطار ثم يهبطون بنفس الطريقة الى الطرف الآخر .

وكان على المسافرين ان يذلوا صعوبات اخرى في تلك الطرق المتعرجة .

هناك ، لكل قطعة ارض مدخل خاص بوسع عشر اقدام تقريباً مقفل بركيذة من جذع شجرة ضخمة ، احسد طرفيها مثقوب على مداره بحيث يتسع الثقب لدخول قطعة اخرى من الخشب بمثابة قطب يتجاوزه طرف الركيذة بطريقة تمكن القطب من حمل الاثقال ويكون الطرف الآخر داخلاً في ثقب محفور في الجزء الداخلي من السياج ، وعلى كل ، فهناك عدة طرق لإقامة السدود حول قطع الارض تختلف باختلاف اذواق المالكين . احياناً يكون المدخل قائماً على ركيذة واحدة ، طرفاها معلقان بالسياج ، وأحياناً يكون أشبه بباب مربع الشكل ومركباً من عدة عوارض على شكل عوارض السلم .

هذه السياجات والمداخل والسدود تعطي الارض شكل طاولة شطرنج شاسعة الأبعاد . وكل حقل يشكل مربعاً منفرداً عن الحقول الأخرى ومحصناً كالقلعة . مداخل تؤمن الدفاع عنها بسهولة وتقف سداً منيعاً في وجه اخطر هجوم يشنه اعظم جيش في العالم .

وليس من يعلم هل كانت الحاجة الى تجنب المحاصمات، وزرب المواشي بدون حراسة ، هي التي اوحت ببناء تلك السدود المنيعة التي تجعل البلاد في حصن حصين والحرب الجماعية مستحيلة ؟

فاذا تأملت تلك المساحات الشاسعة خطوة خطوة بدا الفشل المحتم للجيش النظامية في حرب بينها وبين العصابات ، اذ ان بإمكان خمسمئة رجل ان يتحدوا جيوش مملكة بكاملها . هنا يكن سر حرب الناعقين ، ومن هنا ادركت الآنسة دو فرنوي حاجة الجمهورية الملحة الى اتحاد الحلاف بطريق القانون والدبلوماسية لا باستعمال القوة العسكرية .

وفي الواقع ، ماذا يسع الجمهورية ان تفعل ضد أناس يتخلون عن سكنى المدينة ليؤمنوا حماية الارياف بأمنع التحصينات . ترى لماذا لا يحصل التفاوض وقوة هؤلاء الفلاحين محصورة في رئيس فرد ذكي حسن التصرف ؟

لقد أعجبت الآنسة دو فرنوي بذلك الوزير الذي أدرك وهو في مكتبه سر السلام ، وظنت انها استنبطت الاعتبارات التي تؤثر في رجال لهم القدرة الكافية على قيادة امبراطورية كاملة دون تمييز بين فئة وفئة من الناس . وما الاعمال التي قد يعتبرها الجمهور اجرامية سوى ألعاب دماغ هائل .

ان لهذه النفوس الجبارة مقدرة على الجمع بين سلطان الاقدار وسلطان المصائر المحتومة .

مثل هذه الأفكار وغيرها، بررت ، على ما يبدو ، او بالاحرى شرفت رغبة الآنسة دو فرنوي في الانتقام . ثم ان انشغالها بمثل هذه الشؤون الى جانب آمالها الأخرى عززت فيها القوة على تحمل مشاق السفر . وكان غالوب شوبين يضطر لدى كل حقل مسور الى انزال السيدتين عن ظهر الحمار ليسانعدهما على

اجتياز الممرات الصعبة ، ثم تعودان الى ركوب ظهري الحمارين والمخاطرة في طرقات موحلة متعرجة مقفرة .

وبعد عذاب طويل ، وقبيل الشروق وصل الثلاثة الى احراج مارينيه حيث بدأ المسير يكون سهلاً .

ما كادوا يقطعون مرحلة عبر الاحراج حتى سمعوا ضجيجاً هو مزيج من أصوات بشرية ، ورنيناً صافياً لا يشبه الرنين الرتيب الذي تحدثه الجلاجل في عنق الدواب . أصاخ غالب شويين ، وهو يتمشى ، السمع بانتباه واذا بنسيم ينقل الى سمعه بضع تراتيل دينية تركت مفعولها في نفسه ، فقد قاد الراكبتين المنهكتين في درب صغير ليجنبها الظهور في الطريق المؤدية الى سان جيمس ، وأصم اذنيه عن سماع تعليمات الأنسة دو فرنوي التي اشتدت مخاوفها بسبب العبوس السائد في المكان . فعلى اليمين وعلى اليسار صخور هائلة من الغرانيت متراكمة بعضها على بعض ، وبين تشعباتها جذور ثخينة ملتوية أشبه بالأفاعي الضخمة تنزل الى الامام بحثاً عن عصارة طيبة في بعض الاشجار العتيقة .

كان الجانبان من الطريق يشبهان المغاور القائمة تحت الارض والشهيرة بياهاها المتحجرة ، فقد كان على جانبي الطريق أكاليل من الحجارة مغطاة بالعشب الناعم وفوقه ضمم من العوسج والسرخس ، تخفي الهوات ومداخل بعض المغاور العميقة ، ولدى انتقال الموكب الصغير الى طريق ضيقة ، برزت اغرب المشاهد لناظري الأنسة دو فرنوي ومنها عرفت سبب شرود غالب شويين .

من هذه المشاهد حوض نصف دائري يشكل مدرجاً يتخلل درجاته اشجار السرو والكستناء الباسقة بشكل مسرح مستدير تضيي عليه الشمس نوراً شاحباً واوراق الخريف المتساقطة تكسو ارضه . وفي وسط هذه الصالة ثلاثة احجار ضخمة من العصر الدرويدي ، ومذبح واسع ركزت فوقه راية الكنيسة الدرويديّة القديمة ، وحوالي مئة رجل حاسري الرؤوس جاثين يصلون بجملة ، وفي وسطهم كاهن ، يقوم بمراسم القداس ، يساعده رجلان من رجال الدين .

كل شيء كان يضيي على هذا المشهد طابع البراءة التي رافقت العصور المسيحية

الاولى : الملابس الكهنوتية الرثة ، صوت الكاهن الضعيف الشبيه بالانين ، رجال أتقياء تجمعهم عقيدة واحدة جاؤون امام مذبح مجرد من الزينات ، والزمان والمكان . كل ذلك اذهل الآنسة دو فرنوي فوقفت تتأمل في كل ما يجري امامها مصعوقة ، فالقداس تتلى مراسمه في قلب الغابة ، وعبادة اوصلها الاضطهاد الى مصدرها في قلب الطبيعة . ناعقون مسلحون وغير مسلحين ، طغاة وأتقياء ، رجال واطفال في نفس الوقت ، كل ذلك لا يقاس به شيء مما سبق لها ان رأته او تصورته ، لقد تذكرت انها ، في طفولتها ، شاهدت معالم ايجاد الكنيسة الرومانية المتعصبة للجوهر ، لكنها لم تكن قد تعرفت الى الله بعد بوحدانيته . كان صليبها على المذبح ومذبحها على الارض ، وبدلاً من الاوراق المفصلة التي تتوج حنايا الكاتدرائيات الغوطية ، رأت الاشجار الباسقة تسند القبة المتعالية في السماء ، وبدلاً من ألوف الالوان التي تطل من زجاج النوافذ ، هي الشمس وحدها التي أرسلت اشعتها المحمرة وانعكاساتها المكمدة على المذبح وعلى الكاهن والمصلين . الرجال هنا هم شيء واقعي ، وما هم بطقوس ولا تقاليد ، وصلاتهم هي صلاة حقيقية لا صلاة دينية فحسب . والآلام البشرية المتأتبة عن الضغط المؤقت ظهرت جلية في هذا الحقل الصغير .

لدى وصول الآنسة دو فرنوي الى المكان كانت قراءة الانجيل في نهايتها ، وبانفعال شديد تعرفت بنظرها الى المقرئ الاب غودن . فتواتر بسرعة عن ناظره مخفية وراء قطعة كبيرة من الفرانيت ، حيث اجتذبت اليها بحفة خادمته فرانسيس ، إلا انها عجزت عن اجتذاب غالوب شوبين من المكان الذي اختاره للمشاركة في بركات هذا الاجتماع الحافل . لقد أملت ان تنجو من الخطر الذي يتهددها بواسطة طبيعة الارض التي تسمح لها بالانسحاب قبل الجميع ، ومن خلال شق واسع في الصخرة شاهدت الاب غودن يعملي المنبر ويبدأ عظته بهذه المقدمة : « باسم الاب والابن والروح القدس ، وهنا أدى المصلون اشارة الصليب بورع وتقوى . وتابع الكاهن عظته بصوت قوي :

« أياها الاخوة الأعزاء اننا نصلي أولاً من اجل امواتنا الذين سقطوا

متأثرين بالجراح التي أصابتهم أثناء معركة البلين وفي حصار فوجير .

« هؤلاء المجاهدون في سبيل الله اعطوكم ، يا ايها المسيحيون ، المثل في تأدية الواجب . ألا تحجلون مما قد يقال عنكم في الملكوت الاعلى؟ لولا هؤلاء الطوبابيون الذين استقبلهم القديسون بأذرع ممدودة لحسب الله ان أبرشيتكم يسكنها جماعة من الوثنيين .. هل تعرفون يا أبنائي ماذا يقال عنكم في بريطانيا وفي حضرة الملك؟ ... انكم لا تعرفون ، أليس كذلك؟ اذن فسأقول لكم ذلك ، فاسمعوا ، وعوا: كيف تمّ للزرق ان يقلبوا المعابد ، ويقتلوا المرشدين ، ويذبحوا الملك والملكة؟ ثم يريدون ان يأخذوا رعايا الكنيسة البريتونية ليحولهم الى زرق مثلهم ويرسلوهم للقتال خارج ارضهم في البلدان البعيدة ، حيث يتعرضون للموت دون ان تتم لهم طقوس الاعتراف . يذهبون الى جهنم والى الابد ، وقيل عن ابناء مارينيه انهم وقفوا مكتوفي الأيدي عندما احرق الزرق كنيستهم . تبا لجمهورية الابالسة التي باعت بالمزاد بيوت الله واملاك السادات ، وتقاسمت الأرباح مع الزرق ، ثم ، لكي تتغذى بالمال كما تتغذى بالدماء اصدرت مؤخراً مرسوماً بأخذ ثلاث ليرات عن كل دينار وتجنيد ثلاثة من كل ستة رجال . وقيل ايضاً ان ابناء مارينيه لم يحملوا السلاح ليطردوا الزرق من بريطانيا .

« يا ويلهم ! اللجنة محرمة عليهم ولن يتمتعوا بالسلام في قلوبهم . »

هذا ما يقال عنكم . ألا ان سلامة نفوسكم هي الأولى وهي المقصد ولن تنقذوا نفوسكم من سوء العذاب الا بالدفاع عن الدين وعن حماه . لقد ظهرت لي قديسة هذه المناطق بذاتها أمس الاول في الساعة الثانية والنصف ليلاً وقالت لي ما سأقوله لكم :

– أنت كاهن مارينيه ؟

– نعم يا سيدتي ومستعد لخدمتك .

– حسن . انا حنة اوراي القديسة ، خالة المسيح على مذهب بريطانيا . ما

زلت مقيمة في اوراي وهنا ايضاً . لانني جئت لأطلب منك ان تقول لابناء مارينيه انه لا سلام ولا طمأنينة لهم ان هم لم يحملوا السلاح . وعلى ذلك تحرمهم من حلهم من خطاياهم ، الا اذا عادوا الى خدمة الله ، عندئذ تبارك بنادقهم ، والابناء الذين هم بلا خطية لن يفلت الزرق من ايديهم لان بنادقهم مباركة ! .

تابع الكاهن وعظه قائلاً :

— قالت القديسة ذلك واختفت تاركة وراءها ، تحت السنديانة ، رائحة البخور .. لا تعجبوا فقد عاينت المكان وعلتمته بتمثال جميل من الخشب يمثل العذراء ، قام بنصبه كبير كهنة سان جيمس . وفي المساء جاءت والدة « بيار لوروا » الملقب بـ « مارش آتير » لتصلي في المكان ذاته فشفيت من آلامها بفضل الأعمال الطيبة التي قام بها ابنها المذكور . ها هي بينكم . تطلعوا فيها وتأملوا كيف تمشي وحدها . تلك هي اعجوبة تحققت كأعجوبة بعث الطوباوي ماري لمبريكان حياً من بين الأموات ليثبت لكم ان الله لا يتخلى قط عن البريتونيين ان حاربوا من أجل خدامه الكهنة ومن أجل الملك . بناء عليه ايها الاحباء ، ان شتم السلام لانفسكم وان اردتم ان تدافعوا عن الملك فعليكم ان تستجيبوا لكل ما يأمركم به الرجل الذي ارسله الملك والذي نسميه « القار » . واذ ذاك فلن تكونوا ككفرة ، بل تجدون انفسكم مع جميع ابناء بريتانيا تحت راية الله . يمكنكم ان تستعيدوا من جيوب الزرق الاموال التي سرقوها منكم . فاذا حالت الحرب دون زرع حقولكم ، فلكم بأذن الله والملك أسلاب اعداء الله والملك .

أفريضكم ان يقال عنكم انكم متخلفون عن ابناء المورييهان ، وسان جورج ، وفيتريه ، وأنتران . وهم الذين وهبوا نفوسهم لله ؟ هل تدعونهم يأخذون كل شيء ؟ هل تظنون مكتوفي الأيدي فيما جميع البريتونيين يصنعون السلام لانفسهم بانقاذ الملك ؟ لقد ورد في الأنجيل :

« تتركون كل شيء من اجلي » الم تتخل نحن عن « أعشارنا »؟! تخلوا انتم ، اذن ، عن كل شيء من اجل الحرب المقدسة وستصبحون كالمكابيين . وعندئذ

كل شيء يترك لكم وتغفر خطاياكم وستجدون بينكم المرشدين والكهنة، وسوف
تنتصرون !

« انتبهوا جيداً ايها الأخوة : لقد اعطينا من الله الحق لنبارك بنادقكم ،
فالذين لا يستفيدون اليوم من هذه المنة فلا شفاعة لهم ولن تصغي قديسة هذه
المنطقة اليهم كما فعلت في الحرب السابقة » .

هذه الموعظة ، مع كل ما رافقها من حركات وتفخيم وتعظيم ، لم تسفر ،
ظاهرياً ، الا عن بعض التأثير ، فقد ظل الفلاحون مسمرين في اماكنهم وعيونهم
معلقة بالخطيب كالتماثيل ، غير ان الآنسة دو فرنوي ادركت ان موقف الفلاحين
هذا ناتج عن سحر القاه الأب غودن على الجمهور ، فقد خاطب الناس وكأنه
يخاطب رجلاً فرداً عن المصالح وعن الميول والمواطف . فحلل المنكرات وفكك
القيود الوحيدة التي تربط هؤلاء الرجال الجفاة بالمبادئ الدينية والاجتماعية .
لقد مزج الكهنوت بالمصالح السياسية . ففي زمن الثورة كل يعمل لصالح حزبه
ويتخذ مما يملك سلاحاً له ، وهكذا اصبح صليب يسوع المسالم اداة من ادوات
الحرب .

واذ لم تجد الآنسة دو فرنوي أي مخلوق تتفاهم معه حولت بصرها نحو فرانسين
لتجدها منسجمة مع موقف الجمهور التقشفي اذ كانت تتلو الصلاة الربانية والسلام
الملائكي على عدد حبات سبحة أخذتها من غالوب شوبين ، فقالت لها :

– هل خفت ان تكوني وثنية يا فرانسين ؟

– معاذ الله ، ولكن ، ألا ترين والدة بيار تمشي على قدميها ؟

الاقتناع الذاتي الذي اغرق فرانسين في صلاة حارة ، كشف لما ري سر
الموعظة وسر سيطرة الاكليروس على الارياف الفرنسية . والسر الكامن في نتائج
تلك المشاهد . فقد بدا الفلاحون القريبون من المذبح يتقدمون الواحد بعد
الآخر ، يجثون ثم يقدمون بنادقهم الى الخطيب فيضعها بدوره على المذبح . وفيما
الكهنة الثلاثة يرتلون ، كان الاب غودن يؤرّج المبخرة فوق ادوات الموت

فيحجبها وراء ستار كثيف من الدخان الأزرق . واذ بدد النسيم بخسار البخور أعيد توزيع البنادق على أصحابها ، فكان كل رجل يتلقى بندقيته وهو جاث على ركبتيه من أيدي الكهنة المرمنين ، وبعد الانتهاء من توزيع البنادق انطلق الجمهور بالترنيم بحماسة عظيمة ولدت في نفس الأنسة دو فرنوي موجة من الحنين الى عائلة آل بوربون المنفية ، وأيقظ فيها ذكريات الماضي عن أعياد وحفلات البلاط المشتت ، يوم كانت فيه نجمة لامعة من نجوم تلك الاعياد ، وقد برز وجه المركزيز دو مونتوران من خلال هذه الذكريات الغابرة ، إلا انها استطاعت ان تزيل من مخيلتها تلك الأفكار لتعود الى مشروعها الانتقامي الذي يقض راحتها والذي قد يسقط امام نظرة ..

وفيا هي تفكر كيف ستبدو جميلة في تلك اللحظة الفاصلة من وجودها ، خطر لها انها لا تملك ادوات زينة تزين بها رأسها أثناء الرقص ، فارتأت ان تتزين بأغصان الاسل البري ذات الاوراق المنقبضة والحبوب الحمراء . فيا هي تفكر بذلك اذا بها تسمع غالوب شوبين يقول بحماسة بالغة :

— قد اخطيء الهدف اذا ما سددت فوهة بندقيتي على عصفور ، ولكني لن اخطيء قط اذا سدتها على الزرق ...

تفحصت ماري بانتباه وجه دليلها فوجدته لا يختلف بشيء عن سائر الوجوه التي شاهدها في ذلك الحفل ، فقد غمرت وجنتيه وجبينه موجة من الفرح وهو يتطلع الى بندقيته بعد ان باركها الاب غودن ، إلا ان نغمة دينية خالطت فرحه فصبغته يتعصب فاجر على وجهه منكرات المدينة الحديثة .

وكان الموكب قد وصل الى قرية صغيرة فيها خمسة مساكن من نوع مسكن غالوب شوبين الآنف الذكر ، حيث وصل الناعقون المهندون حديثاً قبل ان تنتهي الأنسة دو فرنوي من وجبة طعامها المكونة من قطعة خبز وزبدة وحليب وجبنة . وكان هذا الفريق اللانظامي بقيادة مرشد يحمل بيده صليباً ضخماً تحول الى راية للرعية . وقد وجدت ماري نفسها ، مرغمة ، مع هذا الفريق المتجه ، مثلها ، الى سان جيمس والذي حماها ، تلقائياً ، ضد أي نوع من الخطر ، ثم

تجراً غالب شوبين وقال لرئيس الفريق ان الحسنة التي معه هي صديقة « الغار » .
وصل المسافرون الثلاثة الى سان جيمس عند الغروب وهي مدينة صغيرة
ومرد اسمها يعود الى الانكليز الذين بنوها في القرن الرابع عشر ابان سيطرتهم
على بريطانيا .

قبل دخولها الى المدينة شهدت الآنسة دو فرنوي مشهداً حروبياً لم تعره
التفاتاً خوفاً من اقتضاح امرها . وهذا الخوف جعلها تحت الخطى ، فقد رأت
حوالي ستة آلاف فلاح نجيمين في حقل ، وبذلاتهم الشبيهة ببذلات فلاحى البرلين
المساقين للتجنيد تنفي عنهم كل صفة حربية ، وكان لا بد للناظر من الانتباه
الشديد ليكتشف ان هؤلاء البريتونيين كانوا مسلحين لأن الجلود المفصلة بأشكال
مختلفة كانت تحفي القسم الاكبر من البندقية ، والسلاح الظاهر كان سلاحاً مزوراً
أظهره بعضهم بقصد ابداله بأسلحة صالحة أصلية .

كان البعض منهم يشربون الخمر ويأكلون ، والبعض الآخر يتضاربون
ويختصمون بصوت عال ، إلا ان معظمهم كانوا نائمين على الارض بلا ترتيب ولا
انضباط ومن بينهم ضابط بالبدلة الحمراء حسبته ماري من جماعة الانكليز ،
وبقربه ضابطان آخران يدربان بعض الناعقين على استعمال مدفعين هما ، على ما
يبدو نواة مدفعية الجيش الملكي العتيق .

بفضل الضوضاء التي نتجت عن وصول ابناء مارينيه ، استطاعت الآنسة
دو فرنوي ان تجتاز المكان وتدخل المدينة بسلام . هناك نزلت في فندق صغير
قريب من المنزل الذي تقام فيه الحفلة . كانت المدينة تمج بالوافدين فلم تحصل ،
رغم كل الجهود ، الا على غرفة صغيرة في ذلك الفندق . اما غالب شوبين ،
فبعد ان سلم فرانسيس العلب المحتوية على ادوات زينة سيدتها ، وقف وقفة انتظار
وحيرة الى ان اخذت الآنسة دو فرنوي من حقيبتها اربعة دنائير من فئة الستة
فرنكات وقدمتها له قائلة :

— خذها . وسأكون عظيمة الامتنان لو عدت في الحال الى فوجير دون ان
تمر في اللحم ودون ان تذوق الخمر .

دهش الناعق لكرم الآنسة دو فرنوي ، وبعد ان نظر ملياً الى الدنانير ،
اقت بجرمة من يدها فتواري .. عندها قالت فرانسين لسيدتها :
- كيف تستغنين عنه ؟ أما رأيت حالة المدينة وكيف نعود الى فوجير ؟
ومن يحميننا ؟

- بسلامة شفيك .. قالت الآنسة دو فرنوي ذلك وصفرت بقوة على
طريقة مارش آتير وهي تقلد حركاته . فاحمر وجه فرانسين خجلاً وهي تبسم
بكآبة لجدل سيدتها ومرحها . وسألتها :
- وأنت ، أين هو شفيك ؟

جواباً على هذا السؤال ، استلت ماري خنجرها وعرضته على نظر فرانسين
فتراجعت الصبية الى الوراء مرتعبة وسألتها بتوسل :
- ترى عن اي شيء جئت تبحثين هنا ؟

تشاغلت الآنسة دو فرنوي عن الجواب باحاطة بأسها باغصان الآس وقالت :
- ترى كيف تبدو هذه الأغصان على شعري ، اجيلة هي ؟ وهل يستطيع
وجه بوضاءة وجهي ان يتحمل تسريحة ثقيلة كهذه ؟ ما رأيك يا فرانسين ؟
مثل هذه التساؤلات وغيرها ، دلت على سجية هذه الفتاة الفريدة من
نوعها . فالذي يراها وهي تكيف زينتها ، يصعب عليه ان يقدر خطورة تلك
اللحظات في حياتها .

ارتدت فستاناً من الموسلين الهندي على امتداد قامتها ، مظهرأ تكاوين
جسمها بدقة ، ثم لبست فوقه معطفاً احمر كثير الكسرات طويلاً ومخضوراً
يحدد خصرأ انيقاً مياساً ، انها ملابس كاهنة وثنية كانت تسمح ازياء تلك الأيام
للنساء بارتدائها ولو كانت اقل حشمة من سائر الازياء ، ولكي تخفف من اباحية
ثوبها هذا ، غطت كتفيها العاريين بقماش ابيض شفاف . وقتلت جدائل شعرها
بطريقة تجعلها تشكل وراء رأسها قبعاً مخروط الشكل يضيفي على الوجه روعة
بعض التماثيل القديمة ، مع خصل معقربة بشكل خواتم على الجبين ربطت بعضها
وأرسلتها برشاقة على جانبي الوجه .

وبعد انتهائها من صنع هذه التسريحة التي يعجز عن صنع مثلها امهر المزيين وضعت على رأسها اكليل الآس - الذي تنسجم حباته الحمراء مع معطفها الأحمر . وتطلعت في المرآة متأملة بمجموعة زينتها ومقدرة تأثيرها ، ثم هتفت بفرور ودلال كأنها محاطة بالمعجبين :

- يالي من قبلة هذا المساء ! ابدو وكأنني تمثال الحرية .
ووضعت خنجرها في عيبها تاركة قبضته المرصعة بالياقوت ظاهرة لتجتذب بانعكاساتها الحمراء الاعين الى ثديها اللذين دنستها عدوتها بصفاقة ولؤم في وقت غير بعيد .

وفرانسين ، تلك الخادمة الأمينة لم تشأ ان تترك سيدتها تذهب بمفردها الى الحفلة ، واذ رأتها تتجه نحو الباب ، وجدت الحجة لمراقبتها : لترفع عنها معطفها ، لتزغ من قدميها الحذاء الملوث بوحل الطريق ، ولترفع طرحة الشاش التي أخفت رأسها عن أعين الناقلين الشرهة ، ولقد كان عدد الحضور كبيراً فسارتا وسط سياجين من البشر .

واذ وصلت الى المنزل ، لم تحاول فرانسين بعد ان أدت لها الخدمات اللازمة ، ان تقبها ، بل بقيت في الساحة تراقبها بعين ساهرة لتتمكن من نجدها عند الحاجة لأن البريتونية الوفية لم تكن تتوقع سوى المصائب .

فما كانت ماري متجهة الى صالة الحفلة ، حصل في شقة مونتوران حادث غريب ، فما كاد المركز ينتهي من ارتداء ملابسه الرسمية ويضع الوشاح الذي يميزه ويدل الناس على انه هو الشخصية الاولى في هذا الحفل ، حتى دخل عليه الاب غودن مذعوراً وقال له :

- يا سيدي المركز ، اسرع .. انت وحدك تستطيع ان تهدى العاصفة .
الرؤساء في غليان . انهم يهددون بالاستقالة من خدمة الملك ، في ظني ان ذلك الشيطان « ريفويل » هو السبب ، وكل هذه الخصومات نتجت عن حماقة ارتكبتها مدام دو غوا ، فقد أنبت الرجل على مجيئه الى الحفلة بزي غير أنيق .
- انها مجنونة ، حقاً هذه السيدة ! قال المركز .

واردف الاب غودن قائلاً :

– ان الشيفالييه دو فيسار يطالب بالمال الذي 'وعد به باسم الملك ، ويزعم انه لو كان تسلمه ل ...

– كفى ، كفى ، ايها المحترم ، لقد فهمت الآن ، انك تؤيد هذا الخصام وانت سفير المطالبين ...

– أما من جهتي يا سيدي المركزي فانا مستعد ان ادعمك بكل قواي آملاً ان تأخذ بعين الاعتبار بان مسألة اعادة بناء كنائسنا في فرنسا واعادة الملك الى عرش آبائه هي ، بالنسبة لي اعمال متواضعة اهم بكثير من أبرشية رين التي ... انقطع الكاهن عن متابعة الكلام تهيئاً عندما لاحظ ان المركزي ابتسم ابتسامة مريرة ارفقها بتقطيب حاجبيه ، وقاد الاب غودن الى الصالة حيث احتدم الجدل وحيث سمع ريفويل يقول :

– انني لا اعترف بسلطة احد هنا .. فرد عليه المركزي ببرود :

– لعلك تعترف بسلطة التروي .

لزم الشيفالييه دو فيسار المعروف باسم « ريفويل » الصمت امام القائد الاعلى .
وقفرس « الغار » في وجوه الحاضرين وسألهم عما جرى .
ارتبك احد كبار المهربين ، كما يرتبك اي رجل من الشعب امام احد كبار السادة ثم يعود فلا يرى فيه أي ميزة عندما يتجاوز الحدود التي تفصله عنه فقال :

– الذي جرى يا سيدي المركزي هو انك اتيت بالوقت المناسب ، انني لا احسن تنميق الكلام ولذلك اتكلم على سجيبي . لقد قدت خمسمائة رجل طوال الحرب الأخيرة . ومنذ ان حملت السلاح استطعت ان اجد لخدمة الملك الف رجل بالف رأس عنيد كراسي . وها قد مضت سبع سنوات وانا اخاطر بحياتي من اجل القضية الكبرى . انا لا امن ، انما كل تضحية تستحق اجرا .
ولذلك اطالب ، في البداية ، برتبة كولونيل والا فساساوم القنصل الاول على خضوعي له . اننا يا حضرة المركزي ، رجالي وانا ، رازحون تحت سلطة سلطان لا يرحم ، الا وهو البطن .

حاول المريكيز ان يتملص من الجواب فسأل مدام دو غوا بلهجة ساخرة :
– هل اقبل عازفو الكمان ؟

غير ان المهرب كان قد أثار قضية على جانب كبير من الخطورة على مسمع من زملائه الذين كان لهم مطالب يعرضونها ويتوقعون تحقيقها . واذ لاحظ الشفاليه الشاب ان فونتوران يحاول الانسحاب ، انتصب امامه وامسك بيده ليجبره على البقاء وقال له :

– انتبه يا سيدي المريكيز ، انك تعامل باستخفاف الرجال الذين لهم بعض الفضل على ذلك الذي تمثله هنا . اننا نعلم ان صاحب الجلالة اعطاك سلطة مطلقة في تقدير خدماتنا التي ينبغي ان تلاقى جزاء في هذا العالم او في الآخرة . ان المقصلة معدة لنا دائماً ، اما فيما يخصني فاني اعرف ان رتبة المارشالية ..
– تقصد ان تقول رتبة كولونيل ...

– كلا ، يا سيدي المريكيز ، لقد اطلق « شاريت » علي لقب كولونيل ، اما الرتبة التي تكلمت عنها فلا يمكن ان أألفها ، انني لا ارفع الآن لنفسي ، بل لجميع زملائي في السلاح الذين يجب النظر في خدماتهم ، يكفيهم اليوم توقيعك على وعود ... اعتقد انهم يكتفون بالقليل منها : الرحمة لعائلاتهم ، ومخصصات لأراملهم ، وإعادة ممتلكاتهم المصادرة .. وبذلك يا حضرة المريكيز لا تكون الخدمات التي أدوها قد ذهبت سدى .. انني لا اتحدى الملك على الاطلاق ، ولكنني أتحدى وزراءه وعملاءه الذين يسرون في أذنيه اعتبارات شتى عن الصالح العام ، وعن شرف فرنسا ومصالح التاج الخ .. ثم يهزأون ببن قائده الموالي او بناعق نشيط عندنا يشيخ ويضعف دون ان يستفيد شيئاً من القضية التي كرس حياته من اجلها ، أترانا مخطئين يا سيدي المريكيز ؟

– انك تحسن الكلام يا سيد دوفيسار ، ولكنك تستبق الوقت .

وقال الكونت « دو بوفان » بصوت هادىء :

– في رأيي ان المسيو ريفول مهتد بتوطئة حسنة لأمر مهمة ، انك متأكد من ان الملك يصغي اليك مهاقلت له ، اما نحن فلا نرى سيد البلاد إلا من بعيد ، واني

اصارحك القول بانني ، اذا لم تقطع لي وعداً صادقاً بتسليمي الادارة العامة لشؤون المياه والأحراج سأمتنع عن القيام باي تضحية. ان انزعاج النورماندي للملك ليس بالأمر الهين . آمل ان انا من اجل ذلك رتبة ... ثم وقت للتفكير في هذا الشأن ، ارجو ان تتحدث عني امام الملك وتقول له ما سمعته مني الآن . وهكذا اخذ كل رئيس يعرض على المريكز مطالبه ، لقاء خدماته للملك . احدهم طلب ، بتواضع رئاسة حكومة بريطانيا وآخر طلب بارونية . هذا يريد رتبة كذا ، وذاك قيادة كذا.. الجميع طالبوا بمخصصات ، ما عدا البارون دو غونيك فالتفت نحوه المريكز وساله :

– وانت يا بارون ، ألا تطلب شيئاً ؟

– لم يترك لي هؤلاء السادة شيئاً اطالب به سوى تاج فرنسا ...

وخاطب الاب غودن الرؤساء ، بصوت هادر ، بقوله :

– ان كنتم ، أيها السادة مستعجلين الى هذا الحد ، فانكم تفسدون كل شيء

في يوم النصر .. يومذاك ، ألا يكون الملك مجبراً تجاه التحريرين بمنحهم بعض الامتيازات وتحقيق شيء من مطالبهم ؟ فأجابه ريفويل بنزق :

– مطالب للثوريين اليعاقبة ! آه ! لو ان الملك يطلق يدي لاستخدمت

الألف رجل الذين معي لشنق « اليعاقبة » فنتخلص منهم .

وقال المريكز مخاطباً دو فديسار :

– أرى بعض الاشخاص المدعويين يدخلون ، وعلي ان اهتم بهم وأوليهم

الكثير من رعايتي لأحملهم على التعاون معنا في قضيتنا المقدسة ، وأنتم تعلمون ان الوقت ليس للنظر في مطالبكم وان كانت عادلة .

قال المريكز ذلك وانطلق نحو الباب ، إلا ان المهرب الجريء تصدى له وقال بأدب :

– كلا ، كلا يا حضرة المريكز ، ارجو المذرة عما بدر مني ولكن اليعاقبة علمونا سنة ١٧٩٣ مثلاً يقول : ان الحاصد لا يأكل الكعكة ، وعليه وقع هذه الورقة وغداً آتيك بألف وخمسة رجل ، وإلا تعاملت مع القنصل الاول .
نظر المريكز حوله بكبر فلاحظ ان جرأة الانصار التي بلغت حد الجد

نالت موافقة جميع الذين حضروا المناقشة .. رأى في احدى الزوايا الميجور بريغو ، الرجل الوحيد الذي لم يشترك في هذا النقاش ، يعبى غليونه بعصبية تم عن احتقار زائد للمتكلمين فقال له المريكز :

- وانت ، ماذا تطلب ؟

- عودة الملك .. هذا ما يسرني .

- اما من طلب آخر ؟

- آه ! سيدي .. يسرني ان اراك ضاحكاً .

صافح المريكز يد هذا البريتوني وقال لمدام دو غوا :

- قد يمكن ان أموت قبل ان أتمكن من تقديم تقرير عادل للملك عن جيوشه الكاثوليكية في بريتانيا، فاذا أتيتك ان تشهدي عودة الملك فلا تنسي هذا الرجل الشهم ولا البارون دو غونيك ، انها اشد اخلاصاً للقضية من جميع هؤلاء الناس .. قال ذلك وهو يشير الى الرؤساء الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ان يلي المريكز طلباتهم ، وكل منهم يحمل ورقة تتضمن اشادة بالخدمات التي أدوها في الحروب السابقة من قبل القادة الملكيين . والجميع يتذمرون . وفي وسطهم الاب غودن والكونت دو بوفان والبارون دو غونيك يقشاورون في مساعدة المريكز على كبح جماح الطلبات المبالغ فيها . وذلك بعد ان لاحظوا حرج موقف الرئيس الشاب . وفجأة ، تطلع المريكز في المجتمعين وقال بصوت جلي :

- ايها السادة ، لست أعلم اذا كانت السلطات التي منحنيها الملك تخولني حق تلبية طلباتكم ، لعل الملك لم يتوقع منكم كل هذا الاخلاص وكل هذه الفيرة ، سأعرض عليكم صلاحياتي ، فلعلي استطيع ان أتمتها .

ثم غاب لحظة ليعود وفي يده ورقة مفتوحة عليها خاتم الملك وتوقيعه وقال :
- هاكم الرقيم الملكي الذي يفرض عليكم اطاعتي . وهو يخولني حق الحكم على كل من مقاطعات بريتانيا ونورمانديا ومايان ولنجو ، باسم الملك ، وحق التنويه بخدمات الضباط الذين يبرزون في جيوشه .

وهنا حصلت حركة رضى وابتهاج وتقدم الناعقون نحو المريكز وتحلقوا

حواله معلقين ابصارهم في توقيع الملك ، وفي اللحظة القى المركز اوراقه في النار فالتهمتها . وقال :

— لم اعد اريد الرئاسة الاعلى الذين يرون في الملكِ الملكِ ذاته وليس فريسة لابتلاعها .. أيها السادة . انتم احرار في ان تتخلوا عني .
عندئذ تحمس كل من مدام دو غوا والأب غودن والميجور بريغو والشفاليه دو فيسار ، فهتفوا : « عاش الملك » اما الباكون فقد ترددوا قليلاً قبل ان يكرروا هذا الهتاف ، الا انهم تأثروا بحركة المركز النبيلة فتوسلوا اليه ان ينسى ما بدر منهم مؤكداً له انهم يعتبرونه رئيساً عليهم بدون اوراق اعتماد . وخاطب الكونت دو بوفان بقوله :

— فلنرخص ايها السادة وليكن ما يكون ، من الافضل لنا ان نتوجه بمطالبنا الى الله قبل قديسيه ، لنقاتل اولاً وسنرى ما يكون .. وقال بريغو لغونيك :

— « الحق معه . لا تطلب اجرة النهار في الصباح .

وتفرق الحضور في الصالونات حيث تجمع بعض الاشخاص . وعبثاً حاول المركز ان يتخلص من العبوس الذي علا وجهه . كما ان الرؤساء لاحظوا الاثر السيء الذي تركه تصرفهم على شاب يخالط اخلاصه ووقاؤه للملك احلام الشباب الغض فخرجوا من نفوسهم .

وساد المرح ذلك الاجتماع المؤلف من اشد الاشخاص طموحاً في الحزب الملكي ، من الذين لم يسبق لهم ان شهدوا ، في مقاطعة عاصية ، احداث الثورة ، والذين كانوا يعتقدون اطيب الآمال على الوقائع . فالمعارك الجريئة التي بدأها مونتوران باسمه وبثروته وقدرته ألهبت النفوس وسببت غلياناً سياسياً لا مثيل له ، لا ينطفىء إلا في طوفان من الدم المسفوك بلا فائدة . فالثورة ، بالنسبة للأشخاص المجتمعين ، ليست أكثر من اضطراب عابر في مملكة فرنسا ، حيث لم يتغير شيء بالنسبة اليهم . فالأرياف الفرنسية ما برحت تناحر آل بوربون ، والملكيون ما برحوا مسيطرين كما كانوا منذ اربع سنوات . وما حصل عليه « هوش » هو هدنة لا

سلم دائم، والنبلاء يستخفون بالثورة. ويونابرت هو بالنسبة لهم «مارسو» آخر، أوفر حظاً من سلفه.. ثمّة بضعة رؤساء فقط كانوا قد قادوا المعارك ضد الزرق، كانوا يعرفون خطورة الموقف القائم، إنما يأبون ان يحدثوا رفاقهم عن قوة القنصل الاول واتساع نفوذه علماً منهم بأنهم لن ينالوا أذناً مصغية من الجميع.. هؤلاء كانوا يتحدثون وهم يتطلعون في النساء ببرود اللواتي ينتقمن من الثورة بانتقاد بعضهن البعض... في حين كانت مدام دو غوا تحاول ان تخفف ضجر المدعوات بتوجيه عبارات الاطراء المعهودة لكل منهن باستمرار.

وبعد لحظة، اذا بآلات الموسيقى تصدح بألحان متوازنة في موسيقى صاخبة، واذا بالمركيز يطل وعلى وجهه أثر من الكآبة. فاستقبلته مدام دو غوا بقولها: - في اعتقادي ان الخلاف العادي بينك وبين هؤلاء السادة لا يدعوا الى كل هذا الحزن.

لم يرد المركيز عليها بكلمة.. فقد كان مستغرقاً في تفكيره، مستخلصاً مما جرى بعضاً من الاسباب التي من اجلها طلبت منه ماري في فيفتير ان يتخلى عن هذه الحرب الوخيمة العواقب، إلا انه، وهو الشاب الابي النفس القوي الايمان، قرر الاستمرار في مهمته بشجاعة رغم كل العراقيل، ورفع رأسه بآباء، ليسمع مدام دو غوا تقول له:

- لا بد ان تكون افكارك قد شردت الى فوجير في هذه اللحظة.
آه يا سيدي. اضحي بدمي بين يديك لاراك سعيداً «معها».

- لماذا، اذن، اطلقت عليها الرصاص؟

- لانني اردتها اما ميتة او بين ذراعيك، أجل يا سيدي، لقد احببتك يوم كنت اعتقد انك بطل. أما الآن، فلا تربطني بك سوى صداقة اليمّة، لا سيما بعد ان رأيتك تكفر بالامجاد من أجل قلب فتاة من فتيات الاوبرا، فقال:

- انك تسيئين فهمي، فاذا احببت هذه الفتاة فهذا لا يعني انني رغبت فيها لنفسي، ولو لم تكلميني عنها الآن لما خطرت في بالي.
- ها هي!.. صرخت مدام دو غوا.

التفت المركيز بلهفة أثارت استياء تلك المرأة المسكينة التي راحت تراقب على ضوء الشموع الساطع اقل التغييرات التي تطرأ على وجه الشاب المحبوب بعنف على أمل ان تكتشف شيئاً من الأمل لعودته اليها. واذ مال المركيز برأسه نحو الفتاة ، اطلقت مدام دو غوا ضحكة عالية فسألها الكونت دو بوفان عن سبب ضحكها فقالت :

- اضحك على فقاعة صابون تبخرت ! فالركيز يشعر الآن بالندم ويلوم قلبه لانه اخفق امام بنت تدعي انها الآنسة دو فرنوي .
- بنت ؟! صاح الكونت دو بوفان بلهجة معاتبة واستأذن قائلاً : على مرتكب هذا الخطأ ان يصححه . اقسام بشرفي انها فعلاً ابنة الدوق دو فرنوي .
وهنا تصدى له المركيز قائلاً بصوت متهدج :

- اي قسم نصدقه ؟ قسمك في سان جيمس ام قسمك في فيفتير ؟
ارتفع صوت يعلن قدوم الآنسة دو فرنوي فانطلق الكونت نحو الباب ، اعطى يده للقادمة الحسنة باحترام زائد . واخذ يعرف عليها الجمهور الذي دهش لجمالها. واذ اصبح واياها امام المركيز ومام دو غوا قال للرئيس الشاب جواباً على سؤاله .

- لا تصدق سوى قسمي هنا في سان جيمس ..

امتقع وجه مدام دو غوا بلون التراب لدى رؤيتها تلك الفتاة المشؤومة التي ظلت واقفة تجيل النظر في المهتممين باحنةً بينهم عن ضيوف فيفتير ومتوقعة تحية قسرية من عدوتها اللدودة . ثم ، دون ان تلتفت نحو المركيز ، مشت الى جانب الكونت دو بوفان فأجلسها بالقرب من مدام دو غوا التي أدت لها تحية باردة من قبيل الوقاية، واتخذت حياها مظهرأ ودياً مرحاً . اما سائر الموجودين في الحفلة ، فقد انتابهم الدهول امام جمالها الصارخ وأناقته الفائقة الوصف الى حد ان المركيز ومام دو غوا ، عندما التفتا نحو ضيوف فيفتير وجداهم في موقف فيه اعجاب وخشوع لا تكلف فيه . كل واحد من هؤلاء كان يبحث عن وسيلة للتقرب من الباريسية الحسنة .

بدأت مدام دو غوا الحديث مع ماري بالعبارة التالية :

– انه لمن السحر يا آنسة : ليس غيرك في العالم من يجروء على مفاجأة الناس بهذا الشكل ، كيف جئت الى هنا وحدك ؟

– اجل ، وحدي اتيت هذه المرة ، بذلك لا تجدين من تقتلين سواي ..

– رحماك . انك لا تستطيعين ان تتصورى كم قاسيت من ذكرى اخطائي نحوك ، ولطالما بحثت عن وسيلة لاصلاح ما بدر مني ، وانني لسعيدة جداً برؤيتك ثانية ..

– من جهة اخطائك ، يا سيدتي ، فاني أغفرما لحق بشخصي منها بسهولة . انما الذي يتقل على قلبي هو موت الزرق الذين قتلت .. ايه ! لا بأس ، اغفر لك كل شيء من اجل الخدمة التي اديت لي .

قالت ماري ذلك ومدت يدها مصافحة عدوتها بابتسامة مريرة جعلت مدام دو غوا حقيرة تجاه نفسها ، والمركز الذي بقي حتى هذه اللحظة جامداً في مكانه ، ضغط على ذراع الكونت وقال له :

– لقد خدعتني بنذالة وطعننتني في شرفي ، فإلى المبارزة ، اما ان تقتلني او اقتلك .

– سيدي المركز ، انني على استعداد لأوضح لك كل شيء .

انسحب الرجلان الى غرفة مجاورة للتفاهم ، واستأنفت مدام دو غوا حديثها مع ماري ، فقالت وهي تكظم غيظها :

– اي خدمة خطيرة حصل لي الشرف ان أؤديها لك يا آنسة ؟

– يكفي انك اهديتني الى حقيقة اخلاق المركز دو مونتوران ، ذلك الرجل المقيت الذي اسلمني للموت . انني اتركه لك بلاء ارادتي .

– عمّ جئت تبحثين هنا ، اذن ؟

– جئت ابحت عن التقدير والاعتبار اللذين سلبتني في فيفتير ، اما ما تبقى فاطمئني .. فاذا رأيت المركز يعود الي فاعلمي ان العودة ليست عودة حب .

سرت مدام دو غوا لدى سماعها هذا الكلام فاخذت بيد الآنسة دو فرنوي

وبلطف زائد ولهجة ودية قالت لها :

– احسنت يا صغيرتي ، يسرني ان اراك عاقلة.. وازافت قائلة وهي تضغط على يدها وبودها لو سحقتها :

– « ادبت لك خدمة قاسية واحب الآن ان اكملها ، فاسمعي يا آنسة : ان التركيز كان يحدعك ، فهو لا يريد الزواج ، أو بالأحرى لا يستطيع . – آه!؟!

– أجل يا آنسة . انه لم يتعهد بمسؤوليته الخطرة الا ليستحق يد الآنسة دو كسيل . هو زواج مصلحة ، وعد الملك بتأييد التركيز ان تحقق .

أطلقت الآنسة دو فرنوي صيحة الدهشة :

– آه ! دون ان تزيد عليه كلمة واحدة . وكان الشاب الجميل دو فيسار يتحين الفرصة للتعويض عن مزاحه في فيفتير الذي ادى الى بدء الاهداءات . فاقترب من الحسنة ودعاها باحترام الى مراقصته فمدت له يدها وانطلقت لترقص في المربع الذي تظهر فيه مدام دو غوا ، وفي هذه اللحظة عاد التركيز والكونت الى قاعة الرقص ، ومرا من وراء الآنسة دو فرنوي فلم تلتفت اليها. انما عرفت بوجودها وراءها من المرأة الموجودة امامها . وحتى لو لم تكن تلك المرأة موجودة لعرفت ذلك من هيئة مدام دو غوا التي لم تحسن اخفاء تضجرها من طول انتظار اصطدام توقعته حصوله عاجلاً أم آجلاً بين الحبيبين . اما التركيز ، فقد استطاع وهو يتحدث مع الكونت ومع شخصين آخرين ، ان يسمع ما يدور بين الراقصين والراقصات من الاحاديث عن الآنسة دو فرنوي. قال احدهم :

– أي نعم يا سيدي ، لقد جاءت بمفردها .

– ينبغي ان تكون جريئة الى حد كبير .

– لو كنت لابسة ثيابها لاعتقدت انني عارية .

– ليس في ثوبها شيء من الحشمة إنما هي جميلة ، والثوب يناسبها .

– انني استحي عنها في تأدية رقصتها . الا توافق بانها بنت اوبرا بحق ؟

- اتظن انها جاءت لتفاوض باسم القنصل الأول ؟
- هراء .

- ليس في وجودها هنا أي قصد بريء .
وهنا التفت المريكيز فجأة ليرى تلك المرأة التي سمحت لنفسها باطلاق هذه
الكلمة اللاذعة فاغتنمتها مدام دو غوا فرصة لتنظر اليه نظرة من يقول :

- ارأيت ما هو رأيهم فيها ؟

قال المريكيز ضاحكاً :

- لا تأتيها الاهانة الا من النساء !

غفر المريكيز ، ضمناً ، للكونت جميع اخطائه .. ولما خاطر بالقاء نظرة
على حبيبته المتألقة تحت اضواء الشموع الساطعة ، ادارت له ظهرها وهي
عائدة الى مكانها وراحت تتحدث مع مراقصها متمعدة ايصال صوتها الى
اذني المريكيز .

قال لها رفيقها في الرقص :

- ان القنصل الاول يرسل لنا سفراء خطرين ! فأجابت :

- قيل مثل هذا الكلام في فيفتير .

- ما اقوى ذاكرتك يا آنسة !

- على الذي يغفر ان يتمتع بذاكرة قوية .

وهنا سأها المريكيز :

- وهل نحن جميعاً مشمولون بهذا العفو يا آنسة ؟

لم ترد عليه ، بل انطلقت ترقص بحماسة الاطفال ، تاركة المريكيز في حيرة
لاحظت انه يتأملها وعلى وجهه مسحة من الكآبة فأحنت رأسها بظرف ودلال ،
على قدر ما سمحت به قبة معطفها ، ولم تبخل بأي حركة من حركات الاغراء
وهي تتأيل بقدها المياس . لقد كانت تجذب كالأمل وتهرب كالذكري ، ومن
يراهم هكذا يود امتلاكها بأي ثمن . لقد كانت تعرف ذلك ويقينها بسحر جمالها
أضفى على وجهها جاذبية فوق الوصف ..

وشر المرکيز في قلبه بعاصفة من الحب والهياج والجنون فضنط على يد الكونت وابتعد .

– أتراه ذهب ؟ سألت الآنسة دو فرنوي الكونت فدخل الغرفة المجاورة في الحال ليعود به إليها .

وقالت ماري في نفسها وهي تتأمل المرکيز في المرآة المواجهة لها وقد تهلل وجهه ببأرقة أمل : « انه لي .. » .

استقبلت المرکيز دون ان تنطق بكلمة ، إلا انها لم تلبث ان ابتعدت وهي تبسم له . لقد رأته متفوقاً الى حد جعلها تتباهى باذلاله وصمت ان تهب له بضع كلمات عذبة لتفرض عليه الثمن الغالي .

انتهت دورة الرقص وعاد نبله فيفتير الى التحلق حول ماري وكل منهم يتوسل لغفران اساءته بكلمات التحجب والاطراء ، غير ان الذي أرادت ان تراه مرتباً على قدميها لم يقترب ، فقالت في نفسها :
– يظن انني ما زلت أحبه ، ولذلك يأبى ان يختلط بالدخلاء .

في دورة الرقص الثانية رفضت باديء ذي بدء ان ترقص ، وكأن الحفلة أقيمت على شرفها ، اخذت تنتقل من مربع الى مربع متكئة على ذراع الكونت دو بوفان وقد شاقه ان ترفع الكلفة بينه وبينها .

وفي هذه الأثناء كانت مدام دو غوا تروي حادث فيفتير للجميع آملة ان تضع صعوبة أخرى في وجه زواج المرکيز وماري ، وبذلك سلطت انظار الجميع على الحبيبين ، ولم يكن مونتوران يجرؤ على التطلع الى ماري لشوره باخطائه نحوها ولحبه العنيف لها ، وماري ، من جهتها ، كانت تسترق النظرات الى وجه المرکيز وهي تتظاهر بأنها تتفرج على الراقصين . وقالت لمراقصها الكونت دو بوفان ان الحر شديد ، وطلبت منه ان يجلسها في مكان رطب لتستنشق الهواء ، وبمركه من رأسها دلته على الغرفة المجاورة حيث كان بعض اللاعبين . لحق المرکيز بحبيبه وقد فهم مرادها في تحريك شفيتها وامل ألا تكون قد ابتعدت عن الجمهور إلا بقصد الاجتماع به وعلى هذا الاعتقاد اضطرم غرامه عنيماً . وطاب

للآنسة دو فرنوي ان تتلاعب بعواطف الرئيس الشاب فحولت بصرها عن الكونت لتغرق نظراتها في عيني مونتوران ، فصعق وبذل جهداً كبيراً ليقول :
- ألا تسامحيني ؟ فقالت ببرود :

- الحب ، اما ان يغفر كل شيء ، او لا يغفر شيئاً .. المهم ان يكون هناك حب ...

قالت ذلك وعادت الى التعلق بذراع الكونت لتنتقل به الى صالة اللعب حيث لحق بها المريكيز وقال لها :
- هل تريدن الاصفاء اليّ ؟

- انك تثير الاعتقاد بأني جثث من اجلك وليس لاسترداد اعتباري أيها السيد ، فاذا لم تكف عن ملاحظتك لي انسحبت من هنا في الحال .
- دعيني اكلمك بقدر ما تتحمل يدي هذه الجمره الملتهبة .

قال ذلك وانحنى ليلتقط جمره من الموقد ضغط عليها بعنف فامتقع وجهه الآنسة دو فرنوي وبسرعة تخلصت من ذراع الكونت وتطلعت في المريكيز مذعوره . واذ ذاك انسحب الكونت تاركاً الحبيبين وحدهما .
العمل الجنوني الذي اقدم عليه المريكيز انتفض له قلب ماري ، وقالت له وهي تحاول انتزاع الجمره من يده :

- انك تبرهن بعملك هذا على انك مستعد لأن تسلمني الى أفسى العذاب ، وانك متطرف في كل شيء ، فقد ارتبت بي انا التي خلصتك من الموت وكان بإمكانني ان ابيعك ، وكل ذلك بناء على قسم معتوه وأكاذيب امرأه حقوده ..
فتبسم قائلاً :

- أجل ، كنت فظيماً بحقك ولكن حاولي ان تنسي ذلك ، اما انا فلن انسى اساءتي نحوك ما حييت ، اصفي الي : لقد خدعت بصفاقة . لكن ظروفنا عديدة تجمعت ضدك في ذلك اليوم المشؤوم .

- تلك الظروف . هل كانت كافية لاطفاء حبك ؟

واذ تردد في الاجابة عن هذا السؤال ، اتت بحركة تم عن الاحتقار ونهضت ،
فهتف المركيز قائلاً :

- آه يا ماري ، لم اعد اصدق بانك ...

- الق النار من يدك ، أجنون انت ، افتح يدك . سالتك ان تفتح كفك .
طاب للرئيس ان يبذل بعض المقاومة لجهود عشيقته في محاولتها فتح يده
بالقوة رغبة منه في المزيد من الاستمتاع بضغط اناملها الناعمة على يده ، الا انها
استطاعت اخيراً ان تفتح تلك اليد التي ودت لو تقبلها . وكان الدم قد اطفأ
الجمرة .. وقالت :

- ماذا افادك كل ذلك ؟ . ثم اخذت منديلها وربطت به الجرح ثم غطاه
المركيز بقفازه .

وفي هذا الوقت وصلت مدام دو غوا على مهل الى صالة اللعب . فالقت نظرة
خاطفة على الحبيبين وانسحبت قبل ان يراها احد ، الا انها لم تعرف محور
الحديث بينهما .

قالت الآنسة دو فرنوي :

- « اذا كان كل ما قيل لك عني صحيحاً ، اعترف الآن بانك تأخذ بشاري .

- باي نية اتيت الى هنا ؟

- يا طفلي العزيز ، هل تظن ان اهانة امرأة مثلي سهلة بهذا المقدار ؟ لقد

جئت الى هنا من اجلك ومن اجلي .

وتابعت ماري حديثها :

- انك ما زلت تحبني . وفي الحماقة التي ارتكبتها الآن دليل على ذلك ، لقد

عدت كما شئت ان اكون . وسارحل وأنا سعيدة . حسي اني ما زلت محبوبة

واني استعدت اعتبار من احب وتقدير الرجل الذي يمثل العالم بامرءه في نظري ،

الآن بإمكانني ان اموت . هنا هتف المركيز :

- اذن فانت تحبيني ؟

- هل قلت لك ذلك ؟ اما اقتضى علي ان ابذل التضحيات للمجيء الى

هنا ؟ لقد خلصت الكونت دو بوفان من الموت ، فكان اكثر برأ بي منك اذ قدم لي ، لقاء ذلك ، حمايته وثروته واسمه . وانت لم تفكر بشيء من ذلك .
اثارت هذه الكلمات المركز لكنك كظم غيظه وكبح جماح الغضب العنيف الذي احتدم في نفسه وظن ان الكونت خدعه ، فلم يجر جواباً . فقطعت
الآنسة دو فرنوي مجرى تفكيره بقولها وهي تبسم .

- اراك تفكر في الموضوع ، فاجابها :

- ارتيابك بي يبرر ارتيابي بالكونت .

في هذه اللحظة لمحت ماري طرف فستان مدام دو غوا ، فنهضت طالبة من المركز الخروج من المكان ، الا ان رغبتها في تعذيب عدوتها جعلتها تتردد في الذهاب وقد ضغط المركز على يدها قائلاً :

- اتريد ان تلقيني في جحيم من العذاب ؟ فاجابته على الفور :

- وانت ، الم تفعل بي مثل ذلك منذ خمسة ايام ؟ والآن ، الا تتركني في

حماة الشكوك حول اخلاصك ليك ؟

- ولكنني لا اعلم هل كان انتقامك يدفعك الى حد الاستيلاء على حياتي

كلياً بدلاً من قتلي .

وهنا احتدمت ماري غضباً وقالت والدموع تترقرق في عينيها :

- « انك لا تجبني ما دمت تفكر بنفسك لا بي .

لقد عرفت الحسناء ، مدى قوة عينيها عندما تكونان مبتلتين بالدموع ! فقد

هتف المركز وقد جن جنونه :

- حياتي ملك يديك ، كفكفي دموعك !

- آه ! يا حيي العظيم . تلك هي الألفاظ التي انتظرتها لاثرت سعادتك على

سعادتي ! ولكن ، يا سيدي ، اطلب منك برهاناً اخيراً على حبك . لا

اريد البقاء هنا اكثر من الوقت اللازم لتعلن انك لي . انني لا اشرب حتى جرعة

ماء في بيت تقيم فيه امرأة حاولت قتلي مرتين . ولعلها تتأمر الآن ضدنا . وما

هي تصفي الى حديثنا باهتمام .

قالت ذلك وهي تشير باصبعها الى طيات فستان مدام دو غوا، ثم ، مسحت
دموعها ومالت برأسها الى اذن المركيز الذي ابتهج بدغدغة نفسها المناسب في
اذنيه اذ قالت له :

- أعدد كل شيء لرحيلنا ، سترافقني الى فوجير . هناك فقط تعرف هل
كنت أحبك ام لا . للمرة الثانية اضع ثقتي فيك فهل تثق بي انت مرة اخرى ؟
- آه يا ماري ! لقد وصلت بي الى نقطة لم اعد اعرف معها ماذا افعل ، لقد
خدرتني بكلامك وبنظراتك وبك كليا ، انني مستعد لتلبية طلبك .
- آه ! اعد لي السعادة لمدة وجيزة ، دعني أستمتع بالنصر الذي رجوت ،
أريد ان اتنفس الصعداء كما أشاء في حياة طالما حملت بها ، اريد ان اتحسس
الآمال التي عقدتها قبل ان تتبدد ، هيا ، تعال نرقص معا .

وعادا الى صالة الرقص .. وعادت الآنسة دو فرنوي الى غموضها وتكتمها،
وقد غمر قلبها بالرضا وأشبع غرورها ، إلا ان عذوبة نظراتها وابتسامتها نغرها
ورشاقتها في تأدية الرقص كانت تحمل في طياتها سرّ ماجرى بينها وبين
حبيبها .

حين تهادت بين ذراعي حبيبها أطلق الحضور هتاف الاعجاب والتكبير
لوضع الحميم البادي في تمايلها ، فقد كانا متلاصقين يتبادلان النظرات العاطفية
المعبرة عن اقصى الرغبات في تحقيق حلم التلاقي الكامل .

وهنا التفتت مدام دو غوا نحو الكونت دو بوفان وقالت له :

- اذهب في الحال وابحث في المعسكر عن بيل ميش واحضره اليّ على عجل ،
لقاء هذه الخدمة البسيطة تراني مستعدة ان اهب لك ما تشاء، حتى يدي .
واذ ابتمد الكونت ، قالت تخاطب نفسها : « ان انتقامي سيكلفني غالبا
ولكن ، لن اخطيء الهدف هذه المرة » .

بعد لحظات كانت الآنسة دو فرنوي والمركيز داخل عربة باربعة جياد
قوية ومعهما فرانسيس التي راعها ان ترى هذين الشخصين المتخاصمين يدا في يد
وعلى احسن ما يكون الوفاق . ولم تجرؤ على التساؤل ، هل كانت سيدتها تضمّر

الحب ام تراءى فيه .

بفضل السكون وظلام الليل لم يلحظ المركيز اضطراب الآنسة دو فرنوي وهي تقترب من فوجير ، حتى انها ، لدى رؤيتها صخرة سان ليونارد قالت في نفسها سأموت لا ريب ! وكذلك فعل المركيز لدى وصولهما الى الربوة حيث ترجلا من العربة وقطعا مسافة مشياً على الأقدام كتذكار للقائهما الأول . وقد شكرت ماري الشاب لانه احترم صمتها . ثم ، بوصولهما الى قمة المنبسط حيث ظهرت لهما مدينة فوجير خرجت ماري من حلمها وقالت للمركيز :
- الى هنا ، وكفى ، قد لا ينقذك نفوذى من الزرق اليوم .

ابدى مونتوران بعض الاضطراب ، فابتسمت وامرته ان يجلس على الصخرة وبقيت هي واقفة تغمر وجهها سحابة من الكآبة ، لم يعد بإمكانها اخفاؤها ، وبعد ان القت نظرة موجعة على حبيبها ، انطلق لسانها بهذه الاعترافات الأليمة :

- كل ما ساورك من شكوك بشأنى صحيح ، ارجو ان تصغي الي بانقباه دون ان تقاطعني . اني ، فعلاً ، ابنة الدوق دو فرنوي ولكنني ابنته الطبيعية غير الشرعية . ووالدي ، وهي آنسة من كاستوران ، دخلت الدير بثوب الراهبة لتنجو من التنكيل الذي اعدده لها افراد عائلتها ، وقد كفرت عن ذاتها بخمسة عشر عاماً قضتها بالعذاب والدموع . ثم ماتت في « سيز » ، وعلى فراش الموت فقط ذكرت بي تلك الراهبة الغالية الرجل الذي خدعها وتحلى عنها وطلبت منه حمايتي وكانت تعلم اننى بلا اصدقاء ولا ثروة ولا مستقبل . وذلك الرجل الذي كان ما برج يعيش تحت سقف والده فرانسيس التي اعتنت بي يوم ولادتي تناساني طفلة ولكنه عاد فاعترف بي لأنني جميلة او ربما لانه كان يرى فيّ شبايه . على كل ، انه والدي ، ولن اضيف شيئاً على ما ذكرت ، انما ارجو ان تدعني اوضح لك كيف ان حياة باريس كادت ان تفسد نفسي . فاجتمع والدي بالذات والمجتمع الذي ادخلني فيه ، كانا مأخوذين بتلك الفلسفة الهازئة التي انتشرت في فرنسا بفضل بلاغة الذين بشروا بها ، فلسفة قامت على المرييات وعلى الاحتقار الضمني لكل ما يمت الى الدين والى الحقيقة بصلة ، اتباعها يهزأون بالمشاعر الحقيقية

ويتظاهرون بمشاعر لا يحسونها ، يعربون عنها بتعابير لاذعة ليس فيها شيء من طيبة النفس او سلامة الطوية ويأخذون الكلمة على غير مبنائها الحقيقي ويننون عليها قصصاً وحكايات كاذبة . ويتعبون النساء بممارستهم الحب كفن لا كفضية قلب .

لقد كانت مقاومتي لهذا التيار ضعيفة في حين كانت نفسي الشغوفة اعجز من ان تدرك ان العقل المزعوم قد جرد القلوب من كل عاطفة ، غير ان الحياة التي عشتها اسفرت عن كفاح مستمر بين عواطفني الطبيعية وبين العادات المعيبة التي مارستها .

ثم اناس متفوقون راقهم ان ينموا في الروح التحررية واحتقار الرأي العام القائل بالزام المرأة حدود الحشمة والحياء حتى لا تفقد جمالها وجاذبيتها وانوثتها . وتنهدت الانسة دو فرنوي من اعماق قلبها وتابعت حديثها :

- ومات الدوق دو فرنوي بعد ان اعترف بي . وزودني بوصية انقصت كثيراً من ثروة شقيقي ، ابنه الشرعي ، وبعد وفاته وجدت نفسي بلا مأوى وبلا حماية . وقد اعترض شقيقي على الوصية التي صيرتني ثرية .

الثلاث سنوات التي امضيتها مع عائلة ثرية كانت كافية لتنمية روح الغرور في نفسي ، ووالدي ، بتلبيته جميع طلباتي ، جعلني اعيش حياة الترف وامارس عادات لم تكن نفسي الفتية البريئة تقدر اخطارها وويلاتها .

ثم صديق لوالدي عمره سبعون سنة يدعى المرشال دوق دو ليننكور عرض علي وصايته فقبلت ، وهكذا وجدت نفسي بعد بضعة ايام على بدء تلك الدعوى البغيضة التي اقامها شقيقي ضد وصية والدي لي ، في منزل فخيم استمتعت فيه بكل ما حرمني منه شقيقي بفظاظة . وكان المرشال العجوز يأتي كل مساء ويمضي معي بضع ساعات يسمعي خلالها كلمات التعزية والملاطفة . كان يحنو علي كأب وكنت ، بدوري أعطف عليه وأعتبر نفسي ابنته ، وكنت أقبل منه الملابس الثمينة التي يقدمها لي ، ولم أكن اخفي عنه أي رغبة من رغباتي طالما كان يجد في تلبيتها مسرته ومرضاته .

ذات مساء علمت ان كل باريس تحسبني عشيقة لذلك العجوز المسكين ،
وثبت لدي انني اعجز من ان ازيل هذه التهمة الفظيعة عني .
هذا الرجل الذي استخدم براءتي ليخدعني لم يكن بإمكانه ان يكون لي
عشيقاً ولا اراد ان يكون زوجي ، فني عشية اليوم المحدد لزواجنا ، اذ ارتضيت
بجمل اسمه فقط كتعويض عن سمعتي المشوهة ، تركني وفرّ هارباً الى كوبلنز .
فطردت من البيت الذي لم يكن ملكه وانا مهانة مردولة .

الى هنا قلت لك الحقيقة كما لو كنت في حضرة الله ، اما الآن فلا تطلب مني
حساباً عن الآلام الدفينة في ذاكرتي . فذات يوم ، يا سيدي ، وجدت نفسي زوجة
لدانتون .. وبعد بضعة ايام اقتلعت اعاصير الثورة تلك السنديانة الضخمة التي
كنت اطوقها بذراعي واجد الحماية فيها . واذ رأيتني غارقة في بحر من البؤس ،
صممت على الانتحار ، ولكن ، لست ادري لماذا امتنعت . احباً بالحياة ام
أملاً في تذليل المتاعب والعثور في لججها على سعادة خفية ، ام لأنني اخذت
بنصيحة شاب من « فاندوم » تعلق بي منذ سنتين كما تتعلق الافعى بجذع شجرة
معتقداً ان أي مصيبة عظمى تلحق بي كفيلاً بأن ترميني بين يديه . واخيراً ، لست
ادري كيف قبلت ، لقاء ٣٠٠ ألف فرنك من الذهب ، ان اذهب في مهمة بغيضة
قضت بأن اسلم مجهولاً احبني ، هو انت يا سيدي . لقد رأيتك وعرفتك بحاسة
لا تتخدع قط ، ومع ذلك خامرني الشك .. اذ ، بقدر ما احببتك رأيت الحقيقة
موجعة . ففي انقاضي حياتك من يدي هولوا ، تنكرت لمهمتي وصممت ان اخذع
الجلادين بدلاً من خداع ضحيتهم ، لقد ارتكبت خطأ بتلاعي هكذا بالرجال ،
بجياتهم ، بسياستهم وبنفسي انا الفتاة التي لا ترى في العالم سوى العواطف . لقد
حسبتني محبوبة وذهبت في عواطفي الى حد الامل بتقويم حياتي من جديد ،
ولكن ، كل شيء ، حتى نفسي ، كشف عن خلل حياتي الماضية ، فقد كدت انت
بالذات تتنكر لفتاة عاطفية مثلي ، ويلاه ، من ذا الذي يشفع مجي وبمراءاتي ؟ اجل ،
يا سيدي ، يبدو لي انني استيقظت ، على كابوس موجع ، وبيقظتي وجدنتني وكأنني
عدت كما كنت في السادسة عشرة من عمري . خيل الي ان بإمكان الحب ان يعمدني بالبراءة

وحسبت نفسي لبعض الوقت ، عذراء طالما اني لم احبب احداً بعد ، غير اني
عرفت مساء امس صدق حبك لي ، فلم أشأ ان اخدعك .

واردفت قائلة بلهجة توسل مزوج بالكبرياء :

- اعلم يا سيدي انني فتاة مثلومة الشرف غير جديرة بك . هاأنذني في هذه اللحظة
عائدة الى ممارسة دور البنات الضائعات ، لقد تعبتُ من تمثيل دور امرأة نعتها
بكل ألقاب القداسة ، الفضيلة هي عبء عليّ واني احتقرك اذا بلغ بك الضعف
حد الزواج مني ، ان ذلك حماقة قد يرتكبها الكونت دو بوفان ، اما انت
يا سيدي ... فكن جديراً بمستقبلك ومركزك ودعني وشأني بلا اسف . المرأة
المستباحة تطلب كثيراً، وحبها لك يختلف عن حب فتاة بسيطة بريئة استمتعت
لفترة من الزمن بأمل عذب هو ان تكون رفيقتك وان تجعلك سعيداً ، ان ترفع
شأنك ، ان تصبح نبيلة ، ان ترتفع الى مستواك ، ان تكون زوجة عظيمة . الى
ان استخلصت من هذه العاطفة الجراءة على ابراز طبيعتها السيئة لتضع فاصلاً ابدياً
بينك وبينها ، انني اضحي من اجلك بالشرف والثروة وأكتفي من هذه التضحية
بالذكرى في تعاسي وبؤسي . لن اسلمك قط ، سأعود الى باريس حيث احيا
بذكرك ، اما انت ، فستنساني ، الوداع ..

قالت ذلك وانطلقت في طريق وادي سان سولبيس وتوارت قبل ان
يتمكن المركيز من النهوض لامساکها ، الا انها رجعت على اعقابها لتختبئ في
فجوة صخرة وتراقب المركيز دون ان يراها فرأته يسير بخطى ثقيلة وعلى غير
هدى كرجل مثقل بالهموم ، واذا ابتعد عن المكان تساءلت :

- اتراه يلين ؟ اتراه يفهمني ؟ ثم ارتعشت ومشت بخطى واسعة نحو فوجير .
واذا اجتمعت بفرانسين سألتها عما قال لها المركيز ، فأجابتها بقولها :
- الحقيقة يا ماري لقد احزنني ، انتن السيدات تقتلن الرجال بحد اللسان .
- كيف كانت هيئته وهو يتجاوزك ؟
- وهل تطلع الي ! آه يا ماري ! انه يحبك .
- آه ! سواء احبني أم لا . كلمتان منه هما بالنسبة لي النعيم او الجحيم وبين

هاتين النهائيتين لا اجد مكاناً اضع فيه قدمي .

وهكذا بعد ان اكملت ماري اعترافها الرهيب وحددت مصيرها استسلمت للحزن الشديد ، وبعد ان كان وجهها يطفح ببسبات العواطف المختلفة اربد بسرعة وفقدت معالم جمالها ونضارتها .

ولما كان هولو وكورنتان على عجل لمعرفة نتيجة عملها الجنوني ، جاء اليها بعد وصولها الى منزلها بقليل فاستقبلتها ببشاشة وبادرت القائد هولو اذ لاحظت على وجهه علامة استفهام عريضة بقولها :

- سيعود الثعلب الى قرب مرمى بندقيتك ، وستحرز انتصاراً مجيداً .

- حسن . ماذا حصل ؟ سأل كورنتان ببرود وهو يحدج الآنسة دو فرنوي بنظرة ناقبة مألووفة عند الدبلوماسيين الذين يتجسسون على الافكار ، فأجابت :

- ان « الغار » مغرم بي وقد حملته على مرافقتي حتى مدخل فوجير .

- يبدو ان مهمته توقفت عند هذا الحد وان خوف المرکز تجاوز الحب الذي توحينه اليه ، قال كورنتان .

وهنا رمته الآنسة دو فرنوي بنظرة ملؤها الازدراء وقالت :

- انك تحمك عليه بما فيك .

- اذن ، لماذا لم تأت به الى منزلك ؟

اجابت موجهة الكلام الى هولو ، بعد ان رمته بنظرة خبيثة :

- لو كان يجنني حباً حقيقياً لأنقذته بارساله خارج فرنسا .

اقترب القائد المعجوز منها ، اخذ يدها وطبع عليها قبلة ، ثم حذق الى وجهها وقال لها بلهجة صارمة :

- اراك نسيت صديقيّ الاثنين وال ثلاثة وستين رجلاً من الزرق المقتولين .

- لم يكن له ضلع في القضية ، يا حضرة القائدة ، فقد تمت اللعبة بمعرفة امرأة

شريرة هي عشيقة شاريت وبودها لو شربت من دماء الزرق .

اجاب كورنتان :

- كفالك سخرية بالقائد ، انه ليس على مستوى دعاياتك .

- اصمت .. واعلم جيداً ان اليوم الذي تغيظني فيه لا يكون لك بعده غد .
قال هولو :

- على كل حال ، ينبغي ان استعد للقتال .
- ليس بوسعك ذلك ، فقد رأيت ٦٠ ألف رجل في سان جيمس ، فرقاً
نظامية ومدفعية وضباطاً مدربين ، ترى ماذا يحل بهؤلاء بدونه ؟ اعتقد ان
رأسه هو الكل في الكل .

- حسن ، متى يكون لنا رأسه ؟ سأل كورنتان .
- لست أدري .

قال هولو بغضب شديد :

- اذن ، فهناك ضباط انكليز !... كان ينقصه هذا ليكون زعيم عصابة
حقيقياً . انا الذي سأتيك بالانكليز ..
وقال موجهاً الكلام لكورنتان :

- يبدو لي ، أيها المواطن الدبلوماسي ان بإمكان هذه الفتاة ان تضللك .
قال ذلك وهما على مسافة خطوات من البيت .

- ذلك شيء طبيعي يا حضرة القائد ، انك لم تفكر من وراء كلامها إلا بالنار .
انكم ، انتم العسكريين تجهلون انه يوجد عدة اساليب للحرب ، كاستخدام
عواطف الرجال او النساء وتحريكها لصالح الدولة . ووضع العجلات في هذه
العربة الكبرى التي نسميها الحكومة و ..

- افعل ما شئت ، اما انا فاني افضل مهنتي على مهنتك ، انني لا اعترف
برئيس علي سوى وزير الحربية . لدي اوامر ، وسأزحف يجنودي الى الريف
ومجابهة العدو الذي تريد اخذه من وراء .

- بإمكانك ان تستعد للزحف ، ولكن . وفقاً لما فهمته من كلام الفتاة ، وان
كان مبهماً ، ستقوم ببعض المناوشات ، في حين أستطيع انا ان اضحك وجهاً
لوجه مع رئيس العصابات .
- كيف يتم ذلك ؟

– ان الآنسة تحب « الغار » ، ولا بد ان يكون هو احبها لذلك ستعمل لحسابه فتتزوج به بدلاً من ان تسلمه لنا ، انها تحاول ان تضللنا ، انما قرأت في عينها بعض التردد . سيكون بين الحبيبين لقاء ولعل موعد هذا اللقاء قد عين ، وعليه سأقبض غداً على الرجل من أذنيه ، لقد ظل حتى الآن في نظري عدواً للجمهورية ، ولكنه اصبح منذ لحظات عدوي الشخصي . ان جميع الذين تدخلوا بيني وبين هذه الفتاة ماتوا على المقصلة .

قال كورنتان ذلك واستسلم لتضارب افكاره بطريقة حرمة من ملاحظة سمات الاشتمزاز العميق التي علت وجهه هولو حين اكتشف سر هذه الحيلة وبعد ، فقد صمم القائد على معاكسة كورنتان في جميع أساليبه بقصد توفير الفرصة للعدو ان يموت ميتة شريفة وهو حامل السلاح بدلاً من تركه يقع فريسة لجلاده الذي يتصرف حياله تصرف الرجل الغيور الحسود . وقال وهو يدير ظهره لكورنتان :

– لو ان القنصل الأول يعمل برأيي لتترك امثال هذا الثعلب يقاتلون الارستوقراطيين فانهم كفء لهم ، ولاستخدم الجنود لأمر آخر .
هذا في حين كان كورنتان يخاطب نفسه بقوله :

– « البس بذلة زرقاء لأمثال هذا الحيوان ، وضع حديدة مدلاة على جنبهم ، تجدهم لا يفقهون من شؤون السياسة سوى قتل الناس بطريقة واحدة » ثم انتفض فجأة وراح يقول لنفسه :

– أي ، نعم . لقد حان الوقت لان احصل على هذه الفتاة ، منذ خمس سنوات ضربت حولها نطاقاً والآن هي في قبضي . بواسطتها اصل ، في الحكومة الى رتبة رفيعة كرتبة فوشه . أي ، نعم . ان فقدت الرجل الذي احبته فسيسلمها لي الأسي جسماً وروحاً . وما علي الا ان اسهر الليل والنهار لاكتشف سرها .
كان نهار اليوم الثاني ، نهار سوق تجارية يخاطر فيه الفلاحون بالجيء الى المدينة ليبيعوا سلعهم . من بين هؤلاء شاهد كورنتان رجلاً متجهماً الوجه ، ملتحفاً بالجلد يحمل على ذراعه سلة متجهاً نحو منزل الآنسة دو فرنوي .

خطر لكورنتان ان يترقب خروج الرجل ولكنه غير رأيه فجأة وقال
في نفسه :

- اذا دخلت المنزل على غير موعد ، ربما استطيع ان اكتشف ، بنظرة ،
اسرار سلة هذا المبعوث . . ذلك لانه كان يعلم حق العلم انه من المستحيل تحقيق أي
نجاح حيال اجوبة البريتونيين والنورمانديين الغامضة .

ما كادت الآنسة دو فرنوي تلمح الرجل قادماً اليها ، حتى صرخت فرحة :
- انه غالوب شوبين ! وقالت لنفسها اتراني محبوبة ؟

وغشى الأمل نفسها فاضفى على وجهها ايهى الألوان وملاً قلبها بالفرح .
ونقل غالوب شوبين نظره في بيت ربة المنزل واذا ابدى الحذر حيال فرانسين ،
طمأنته الآنسة دو فرنوي باشارة محببة . فقال لها :

- في الساعة الثانية يكون عندي في انتظارك :

لشدة انفعالها لم تحر ماري جواباً بغير اشارة ايجابية من رأسها . وفي هذه
اللحظة كانت خطوات كورنتان تدوي في الصالة . ما كان غالوب شوبين ليفطن
الى خطر وجوده لو لم يلمح سمات الاضطراب على وجه الآنسة دو فرنوي . فما
ان اطل الجاسوس بوجهه المحتال حتى رفع الناقع صوته مخاطباً فرانسين بقوله :
- هذه زبدة بريتونية وتلك زبدة بريتونية ، تريدان انت زبدة جيبارية ولا
تدفعين اكثر من ١١ قرشاً بالاوقية . اظن انك لا تريدان الخسارة لي ، انها
لزبدة هذه . كوني عادلة وادفعي قرشاً واحداً علاوة . فقال له كورنتان مقاطعاً :
- أصمت ايها الرجل ، انك لم تأت الى هنا لتبيع الزبدة ، فانت تتعامل مع
سيده لا تعرف المساومة . ان المهنة التي تتعاطاها سوف تلحق بك الأذى . ثم
ربت على كتفه واطاف قائلاً :

- لا يمكن ان تستمر طويلاً في اللعب على الحبلين .

بذل غالوب شوبين جهده ليلجلم حنقه فيمتنع عن دفع هذه التهمة الصحيحة
واكتفى بالقول : ان سيدي يريد المزاح . فحذق اليه كورنتان ملياً واذا
زاد ارتياحه به سأله : اين تسكن يا صديقي العزيز ، اريد ان اشترى منك كمية

من الزبدة . اجاب الناعق :

- جميع الناس في فوجير يعرفون بيتي ، انني اسكن في ...

وهنا قطعت الآنسة دو فرنوي كلام شوبين وانتهرت كورنتان بقولها :

- كفى يا كورنتان . كيف تجرأت على الدخول علي في مثل هذه الساعة

لتفاجئني هكذا شبه عارية ؟ دع هذا الفلاح وشأنه انه لا يفهم احتمالاتك التي لا أرى مبرراً لها ، هيا ايها الرجل النشيط ، اذهب بسلام .

تردد غالوب شوبين في الذهاب متحيراً أياً منها يطيع ، كورنتان ام ماري؟

وتردده هذا ، سواء أكان طبيعياً ام لعبة شيطانية خدع الجاسوس الذي ظل

واقفاً مشدوهاً الى ان تلقى امرأ جازماً من ماري بالذهاب فابتعد بخطى ثقيلة ،

وبقي كورنتان والآنسة دو فرنوي يحذفان الى بعضها بصمت ولم تقو عينا ماري

على تحمل الشر المتطاير من عيني الرجل ، وقد ادركت ان حرباً سرية انفجرت

بينها وبينه وانه يستخدم ضدها كل صلاحيات وظيفته . ولكنها استمدت القوة

من حبها ونفضت عنها مخاوفها وقالت له ملاطفة :

- دعني أرتدي ثيابي واصلح زينتي ، فأجابها :

- ماري ، اجل ، دعيني ادعوك هكذا باسمك المجرد ، حتى الآن انت لا

تعرفيني ، اصفي الي ، أي رجل اقل نباهة مني يكتشف حبك للمركيز دو

مونتوران . لطالما قدمت لك قلبي ولطالما عرضت عليك الزواج ، فلم تجديني

جديراً بك ، ربما كنت على حق ، ولكن مها يكن مركزك رفيعاً ، ومها كنت

جميلة ، بامكاني ان اخفضك الى مستواي . لم تقدرى طموحي ولا اعجببتك تصرفاتي ،

فأنت مخطئة . ان الرجال لا يساوون في الواقع إلا قدر تقديري لهم . وليسوا في

نظري شيئاً يذكر . سأصل الى مركز رفيع يرضي غرورك . ترى أي رجل يستطيع

ان يحبك ، ان يجعلك سيدته المطلقة أكثر مني انا وقد احببتك منذ خمس

سنوات ؟ انني وان كنت أخشى ضياعك فأنا احاول ان اشعرك بنزاهة حبي

العظيم وتجرده . لا تهزي رأسك ، اذا كان المركيز يحبك فتزوجيه ، لكن تأكدي

اولاً من اخلاصه ونزاهته ، اذ يؤلني ان اراك مخدوعة وأوثر سعادتك على سعادي .

قد تدهشين بقراري هذا ، وكل ما ارجوه ألا تنسبني الا لفظنة رجل لم يبلغ من
الغباوة الى حد الاستيلاء على امرأة بالقوة والقسر . ولا ألومك بل ألوم نفسي
فقد أملت ان انالك بكثرة الخضوع والوفاء لأجعلك سعيدة فلم تكافئي جهودي بشيء .

- لقد تحملت قربك مني .

- قولي انك نادمة على ذلك .

- أتريدني ان اشكرك على المهمة المخزية التي اوقعتني فيها ؟

- حين اقترحت عليك المهمة التي لا تخلو من التبكيت للنفوس الورعة المتحررة

من الخطيئة ، ما فعلت ذلك إلا بقصد اسعادك . اما انا، فسواء نجحت او فشلت ،

فأنا استطيع ان استخدم نتيجة عملك مهما كانت لانجاح مقاصدي . فان تزوجت

مونتوران كنت سعيداً بأن اخدم قضية آل بوربون في باريس حيث انا عضو في

نادي كليشي وحيث تواتيني الفرصة للاتصال بالامراء ، فأتخلى عن مصالح

الجمهورية التي تسير في كل منزلق . والجنرال بوناپرت ليس غيباً الى حد عدم

الاحساس باستحالة قدرته على البقاء في المانيا وفي ايطاليا وهنا حيث الثورة الجمهورية

في دور النزاع . انه لم يقصد بإحياء « ٢٨ تشرين الثاني » سوى الحصول من آل

بوربون على اعظم الفوائد بتفاوضه معهم على حساب فرنسا ، انه شاب ذكي

ومقتدر ولكن ، على رجال السياسة ان يدعموه في المسلك الذي سلكه ، ان

خيانة فرنسا شيء حقير نتركه نحن الرجال المتفوقين للاغبياء . لا اخفي عليك

ان لدي الصلاحيات اللازمة لاجراء مفاوضات مع زعماء الناعقين كما لدي صلاحيات

بأن اجرهم الى الهلاك ، ولا يخفك ان فوشه نفسه لعب دوراً مزدوجاً أثناء زمن

الارهاب فكان لروبسيير ولدانتون في الوقت ذاته .

- دانتون الذي خدعته تنكرت له .. !

- هراء .. لقد مات . لندعه جانباً وكلميني بقلب مفتوح كما فعلت انا ،

ان القائد هو ادهى مما يبدو . وجودي هنا لن يكون بلا فائدة اذا شئت تضليله ،

لقد ملأ البطاح بالجنود واكتشف بسرعة مواعيدك ، وعرف بوجود ذلك الناعق

في منزلك .

خاطبها بلهجة رقيقة فيها من الحنان ما طغى على قلب الآنسة دو فرنوي الى حد كادت ان تسلم سرها الى الأفعى التي لبس نعومتها، الا انها عادت ففكرت ان لا شيء يثبت الاخلاص في لهجة كورنتان المصطنعة فصمت ان تضل رقابته . فقالت :

- واخيراً حزرت يا كورنتان ، انني احب المركز الا انه لا يجبني ! انني اخافه ، ويبدو لي ان الموعد الذي عينه لي لا يخلو من مكيدة .
- ولكنك قلت أمس انه رافقك حتى مدخل فوجير .. فلو كان ينوي استعمال العنف معك لما كنت هنا اليوم .

- ان قلبك لصلب يا كورنتان ، انت تستطيع ان تجري مقارنات دامغة عن احداث الحياة البشرية وليس عن احداث الحب .. بما انك ناقب البصر الى هذا الحد، فحاول ان تفهم كيف ان هذا الرجل الذي انفصلت عنه بعنف امس الأول ينتظرنى بفارغ الصبر اليوم على طريق ماين في احد منازل فلوريني قبيل المساء .

امتقع وجه كورنتان لدى سماعه هذا الاقرار الذي اطلقته الآنسة دو فرنوي بلهجة طبيعية لا لبس فيها . الا انهلقى عليها نظرة خاطفة من نظراته الثاقبة التي تستجلي النفس فلم يشبته بشيء من المراوغة .. لقد خدعته باتقان لعبتها فقال لها باشفاق :

- هل تريدن ان اسهر عليك من بعيد ؟ سأخذ معي جنوداً مقنعين ونكون تحت اوامرك .

- رضيت . ولكن ، عدني بشرفك ... كلا ، لست أو من به .. اقسام لي بالله... ولكنك لا تؤمن بالله.. ترى ما هي الضمانة التي تقدمها لي عن امانتك؟ ورغم ذلك فاني اكل اليك امري وأضع بين يديك ما هو أغلى من حياتي ، وحي او ثاري .

اخذ كورنتان يد ضحيته ، فقبلها باحترام عميق ، ثم ابتعد عنها وهو يجيئها تحية لا تخلو من اللباقة والظرف .

بعد مضي ثلاث ساعات على خروج كورنتان خرجت الآنسة دو فرنوي خفية من باب سان ليونار ومشت في طريق ضيقة تؤدي الى وادي نانسون ومن هناك تقدمت نحو كوخ غالوب شوبين حيث كانت على موعد مع السعادة وفي نفسها رغبة شديدة لانقاذ حبيبها من المصير الذي يتهدده.

في ذلك الوقت بالذات كان كورنتان يبحث عن القائد هولو . كاد ينكره حين رآه ، في ساحة صغيرة ، منهمكاً ببعض الاعدادات العسكرية ، والواقع ان القائد النشيط قام بتضحية من الصعب تقديرها بثمن . لقد حلق شاربيه وقص ضفيرته . فصار رأسه كراس راهب جزويتي ، وانتعل حذاءً أضخمًا بنعل حديدي ، ولبس بزة زرقاء ، فوقها جلد المعزى ، وبهذا الزي وقف يستعرض ، مثنين من رجال فوجير ، ألبسهم ثياباً من شأنها ان تخدع بصر امهر الناعقين ، لقد برزت في هذا المشهد الروح العدائية في مدينة فوجير الى جانب الطابع البريتوني. هنا وهناك ، بضع امهات وبضع شقيقات يحملن لأبنائهن وأشقاتهن قرب الماء او المسدسات التي نسوها . والشيوخ يتبينون عدد الخراطوش وسلامتها ، يجعله الحرس الوطني المتخفي بزي فرقة معاكسة للناعقين ، وقد بدوا مرحين كأنهم ذاهبون في رحلة صيد لا في مهمة خطيرة . انهم يتوقون الى رؤية ناعقي المدينة او بروتونيينها يقاتلون بريتونيين الارياف ويفضلون هذا المشهد على مباريات الفرسان في حلبة السباق .

واذ واجه كورنتان القائد الهرم تبسم للتغيير الذي ادخله على شخصه وسأله :

- أي جديد وراءك ؟

- تعال معنا وسترى .

- انا لست من فوجير .

- هذا امر لا يخفى على ذي عينين ... قال له الفتى غودن وقد انطلقت

الضحكات الساخرة من جميع الفرق المحاذية ، فأجابه كورنتان :

- اتظن انه ليس بالامكان خدمة فرنسا إلا بحمل الحراب ؟

قال ذلك وادار ظهره للضحكين ليسأل امرأة عن وجهة هذه البعثة وغايتها

فأجابته بقولها :

- شيء مؤسف ، لقد وصل الناعقون الى فلوريني ! ، ويقال ان عددهم أكثر من ثلاثة آلاف محارب . وهم يزحفون للاستيلاء على فوجير .
اصفر وجه كورنتان حين سمع اسم فلوريني وتذكر موعد لقاء ماري ومونتوران فكرر سؤاله للمرأة :

- هل انت متأكدة ؟ انها فلوريني على طريق مايان ؟

- لا يوجد موضعان باسم فلوريني .

عندئذ خاطب كورنتان القائد قائلاً :

- هل تبحثون عن المريكز ؟

- بعض البحث ، أجاب هولو .

- انه ليس في فلوريني ، أرسل يجيشك وحرصك الوطني الى ذلك المكان

مع عدد من الفرقة المضادة للناعقين وانتظري هنا .

واذ ابتعد كورنتان بخطى واسعة قال هولو :

- انه اخبث من ان يكون مجنوناً .. انه ملك الجواسيس .

في هذا الوقت اعطى هولو جيشه اشارة الرحيل ، فمشى الجنود الجمهوريون بدون طبل صامتين على طول الضاحية المؤدية الى طريق مايان وهم يرسمون خطأ أزرق واحمر عبر الاشجار والمنازل ، يتبعهم الحرس الوطني المتخفي . اما هولو وغودن وعشرون رجلاً من شباب المدينة ، فقد ظلوا في الساحة ينتظرون كورنتان الذي اثار غموضه فضول القائد .

اعلمت فرانسين بذاتها الجاسوس الحكيم بخروج سيدتها ، فتبين صدق ظنونه وسار في الحال لجمع بعض المعلومات عن تلك الهريبة التي باتت بحق موضعاً للشبهة .
واذ علم من جنود الحرس في مركز سان ليونار ان الحساء المجهولة مرت في طريق نيدوكروك هرول بسرعة الى محلة برومناد . ووصل في الوقت المناسب ، لسوء حظ الفتاة ، بحيث كان يرى كل حركاتها . قال في نفسه :

- زعمت انها ذاهبة الى «فلوريني» فذهبت الى مطل جيباري ، لقد خدعتني

الخبثية ولكن ، مهلاً يا صغيرتي فان حيلتي تطالك حيناً كنت .
لقد فطن كورنتان او كاد الى مكان موعد لقاء الحبيين . فهرع الى الساحة
في وقت كان فيه هولو يستعد للالتحاق بجنوده فناداه باسمه وأطلعه على مجريات
الاحداث على حقيقتها فدهش هولو لذلك الدبلوماسي وربت على ذراعه قائلاً :
- يا لصواعق السماء ! انك على حق أيها المواطن ، لقد تجمعت العصابات هناك
للتضليل . ان الفرقتين اللتين أرسلتها لمراقبة الضواحي بين طريق دانتران وطريق
فيتره لم ترجعا بعد ، وهكذا نجد لنا في القرية نجدات مفيدة اذ ان « الغار » ليس
غيباً ليقوم بهذه المخاطرة دون ان يجلب معه ناعقيه المشؤومين .
قال ذلك وطلب من غودن الشاب الفوجيري ان يذهب الى الضابط لوبرين
ويقول له ان بإمكانه ان يتصرف بدونه في مطاردة العصابات ويعود اليه بسرعة
واضاف قائلاً له : انك تعرف المدرب المختارة ، اسرع فأنا بانتظارك لمطاردة النبيل
والثأر لمجزرة فيفتير .

واذ رأى هولو الشاب يختفي كالبرق صرخ قائلاً :

- بحق السماء انظروا كيف يركض هذا الشاب ! لكم كان يحبه جيران !

لدى رجوعه وجد غودن فرقة هولو قد ازدادت بعدة من الجنود الذين
اخذوا من بعض مراكز المدينة ، وقال هولو للشاب الفوجيري ان يختار عدداً
من مواطنيه المدربين على حرب العصابات وان يذهب بهم من مدخل سان
ليونار ويبطئ السير على مقابل جبال سان سوليبس التي تشرف على وادي
كويسنون حيث يقوم كوخ غالوب شوبين ، ثم سار هو على رأس ما تبقى من
جيشه وخرج من باب سان سوليبس ليقطع الجبال من على ، حيث يلتقي ، حسب
الخطّة ، برجال بوبيه الذي تعهد بدعم خط الجنود الذين يقومون بحراسة الصخور
ابتداءً من ضاحية سان سوليبس حتى نيدوكروك .

اما كورنتان ، فبعد ان تأكد انه وضع مصير رئيس الناعقين بين أيدي ألد
أعدائه ، اسرع الى محلة « برومناد » ليكون على اطلاع تام على الاستعدادات الحربية
التي اتخذها هولو ، وسرعان ما شاهد شرذمة غودن تقتحم وادي نانسون في

طريقها الى الصخور المحاذية لوادي كويسنون هذا فيما كان هولو يقطع بدوره طريق قصر فوجير بمتازاً الطريق الضيقة الخطرة التي تؤدي الى قمة احد جبال سان سوليبس . وهكذا سارت فرقتان من الجنود في خطين متقابلين . واذ وصل هولو الى منبسط الصخور فصل من فرقته الجنود المرتدين البزات الرسمية ووزع الباقين في ثلاثة خطوط على ثلاثة مراكز بحيث لا يتمكن « الغار » وجنوده من الافلات من ايديهم وقد سدوا امامه جميع المنافذ .

واذ رأى كورنتان هذه الترتيبات المحكمة ، هتف قائلاً : انه لمحتال كبير هذا الذئب العتيق هولو ، هذه نهاية الـ « غار » . لو ان ماري سلمت المريكيز ، هي وانا مشتركين ، لجمعت بيننا صلة قوية لا فاصم لها ، هي الغدر . . . إلا انها ستكون لي على كل حال . . .

هوذا غودن وشرذمته قد وصلوا الى المقلب المكون من صخور سان سوليبس والذي ينحدر بتلال صغيرة الى وادي جيباري . ترك غودن الطريق وقفز من فوق حاجز اول حقل صادفه وتبعه ستة رجال من مواطنيه ، اما الستة الباقون ، فقد ساروا ، حسب الاوامر ، في الحقل المحاذي للطريق . وانطلق غودن ، مسرعاً الى شجرة تفاح في وسط الغابة . هناك كان بوبيه وسبعة او ثمانية رجال مختبئين وراء أشجار الكستناء .

رفع بوبيه رأسه قبل الجميع ، فصرخ .

– الصمت ! لقد لحقت بنا العصابات ، ولكن ، طالما رجالها هم على مرمى رصاصنا فلن نخطئهم وإلا ، وحق الغليون ، فلسنا مستحقين ان نكون جنوداً للبابا . .

ورقع بصر غودن على بضع فوهات بنادق مصوبة نحو شرذمته وسمع صوتاً يقول : مَنْ هناك ؟ !

وتبع الصوت ثماني طلقات انفجرت حول الفرقة المضادة للناعقين ، فجرح اثنان من افرادها . اما الفوجيريون الخمسة ، فقد أجابوا :

– اصدقاء ! ثم اسرعوا نحو الاعداء قبل ان يتمكنوا من تعبئة بنادقهم

من جديد ، وفي المقابلة وبعد ان تعرف رئيس الفرقة على بزات وقبعات نصف فرقة قال :

- لم نحسن القول لقد تصرفنا كبريتونيين حقيقين فبدأنا الضرب قبل التفاهم .
وقف الجنود الثمانية مصعوقين حين تبينوا غودن . وبأسف شديد صرخ بوبيه
مخاطباً غودن بقوله :

- عجباً يا سيدي الضابط من ذا الذي يراك ولا يظنك من رجال العصابات
وانت متخف يجلد المعزى ؟

- انها لمصيبة حلت بنا ونحن جميعنا ابرياء طالما انكم لم تأخذوا علماً بخروج
المضادين للناعقين ، ولكن ، ما وراءكم ؟ سأل غودن فأجابه بوبيه :

- نحن يا سيدي الضابط ، نسعى في البحث عن بضعة من الناعقين الذين
يتسلون بمداعتنا . نركض كالجراذين المسممة ولكثرة ما قفزنا من فوق السياجات
تعبننا فجلسنا نستريح ، على ظني ان الناعقين اصبحوا الآن في ضواحي ذلك
ذلك الكوخ الكبير حيث تشاهدون تصاعد الدخان . قال غودن :

- حسن ، انتم ، الجنود الثمانية ، وبوبيه ، تتردون الى صخور سان سوليس
عبر الحقول وهناك تدعمون خط الجنود الذي اقامه القائد هولو ، ينبغي الا
تبقوا معنا طالما انكم بالبدلات العادية ، ونحن متخفون بلباس الناعقين ، اننا ،
وحتى الف خرطوشة ، سنقضي على هؤلاء الكلاب بما فيهم « الغار » . هيا ، سيروا
الى اليمين ولا تطلقوا النار على ذوي الجلود من الذين تصادفونهم في الطريق ...
تتعرفون على المضادين للناعقين من عقدة الرقبة المجدولة كالحبل .

ترك غودن جريحيه تحت شجرة التفاح واتجه نحو بيت غالوب شوبين
الذي دله عليه بوبيه ، بينما بدأ الضابط الشاب يتعقب اثر الناعقين . هناك كانت
الفصيلة التي يقودها هولو قد وصلت ، على خط العمليات الحربية ، الى نقطة مقابلة
للنقطة التي وصل اليها غودن . وانحدر المحارب العجوز هولو وهو على رأس
رجال هدهد على امتداد الحواجز بحمية الشباب ، فكان يقفز من فوق السياجات
بخفة ملتقياً نظرات حادة على جميع المرتفعات مصغياً باذن الصياد الى اقل

الحركات . وفي الحقل الثالث الذي دخله رأى امرأة في الثلاثين من عمرها منهكة في فلاحة الأرض تعمل بنشاط وبالقرب منها ولد في نحو السابعة من عمره يحمل منجلاً ينفذ به الجليد عن بعض الاغصان النامية على جزوع الأشجار ليقطعها ويجمعها في حزمة . . . يهبوط هولوا الى الضفة الثانية من السياج احدث هولوا ضجة نهبت الولد وامه فرفعا رأسيهما . واذ ذاك حسب هولوا المرأة عجوزاً لكثرة التجاعيد التي غشت جبينها ورقبتها قبل الاوان . كانت ملتفة يجلد في حالة التلف تحته فستان اصفر متسخ . واذ اقترب منها ناداها بقوله :
- ايتها المعجوز ، اين هو الغار ؟

وفي هذه اللحظة كانت فرقة هولوا المضادة للناعقين قد لحقت بقائدها الى الحقل ، وبعد ان القت المرأة نظرة حذر وارتباب على الفرقة ، اجابت على سؤال هولوا بقولها :

- لكي تصلوا الى الغار يجب عليكم ان تعودوا من حيث أتيتم .
- وهل سألتك عن طريق ضاحية الغار في فوجير ايتها المعجوز اللعينة
وحق حنة القديسة ، هل مر الغار من هنا ؟
- لا افهم ماذا تقول .
- ان الغار في خطر . هل تريد ان يبتلعنا الزرق الذين يتعقبوننا ؟
سمعت المرأة هذا الكلام فرفعت رأسها والقت نظرة حذرة اخرى على المضادين للناعقين واجابتهم :

- كيف يستطيع الزرق ان يقتفوا اثركم ؟ لقد رأيت ثمانية منهم ذاهبين الى فوجير من الطريق السفلى .
- ألا يبدو كأنها تريد ان تعضنا بأنفها ، قال هولوا ، ثم لفت نظرها بإشارة من اصبعه الى مسافة خمسين خطوة الى الورا حيث ظهر اربعة جنود بيزات وبنادق لا تخفى هويتها وقال :

- انظري أيتها العنزة المعجوز ، أتريد ان يذبح اولئك الزرق اخواننا الذين أرسلهم مارش آتير لنجدة « الغار » ، وهو يوشك ان يقع في ايدي الفوجيريين ؟

- المعذرة يا سيدي، فما أسهل ان يُخدع المرء في هذه الايام!.. من أي منطقة
أنتم؟ فأجابها بعضهم بأصوات لا تخفى لهجتها المحلية .
- نحن من سان جورج .. ونحن نموت من الجوع .
- حسناً ، اليكم الخبر اليقين ، أترون هذا الدخان المتصاعد هناك ، انه بيتي ،
تأخذون الطريق على اليمين ، ولعلمكم تجدون زوجي غالب شوبين في الطريق ،
فهو يتجسس ليحذر « الغار » الذين يزورنا اليوم .
- شكراً أيتها المرأة . قال هولوا ذلك والتفت نحو رجاله قائلاً :
- هلموا الى الامام ، لقد أمسكناه وحق الرب !
ولحقت الفصيلة بقائدها مهرولةً ، واذ سمعت المرأة الكلمة البذيئة التي تلفظ
بها المتكرر بزي ناعق ، اصفر وجهها ، وجلست على الارض مطوقة ابنها بذراعيها
وقالت له :

- ليرأف القديس لابر وعذراء اوراي القديسة بنا ، ان هؤلاء ليسوا من
رجالنا .. احذيتهم بلا مسامير .. اسرع يا ولدي في الطريق السفلى وأنذر
والدك ، فالخطر يتهدده .

وبسرعة البرق ركض الولد عبر الادغال والاشواك .
نعود الى الآنسة دو فرنوي ، فهي لم تصادف في طريقها احداً من الزرق او
من الناعقين الذين كانوا يتعقبون بعضهم البعض في الحقول والغابات ، حول كوخ
غالب شوبين ، وحين رأت عموداً من الدخان يتصاعد من داخل ذلك البيت
الكثيب خفق قلبها وتصاعدت دقاته القوية . توقفت واسندت يدها الى غصن
شجرة . تأملت طويلاً في الدخان الذي يستخدم كمنارة لأصدقاء الرئيس الشاب ،
او لأعدائه . وما شعرت قط بانفعال ساحق كهذا الذي شعرت به في تلك
اللحظة . قالت تخاطب ذاتها واليأس مطبق عليها :

- لكم احبه ! آه ! لن أتمالك زمام امري امامه اليوم ، وفجأة اجتازت
المجال الذي يفصلها عن الكوخ لتجد نفسها في الساحة حيث هجم عليها الكلب
فأسكته غالب شوبين . بدخولها الكوخ تلفتت حولها كمن يبحث عن شيء ..

لم يكن التركيز هناك فتنفست الصعداء . علمت بارتياح ان الناعق اضطر الى تنظيف غرفته الوحيدة . وحل غالوب شوبين بندقيته . أدى لضيقه التحية بصمت وخرج مع كلبه . تبعته ماري الى العتبة فرأته يسير في طريق تبندىء من يمين الكوخ حيث يوجد مدخل امامه شجرة كبيرة يابسة تكون حاجزاً شبه متهدم . من هنا استطاعت ماري ان ترى سلسلة من الحقول سياجاتها تمثل للنظر سلسلة من المداخل والمخارج ، فالأشجار العارية والحواجز تسمح برؤية اقل مشهد يجري في الحقول .. وحين اختفت قبعة غالوب شوبين الواسعة عن النظر ، عادت ماري الى ناحية الشمال فشاهدت كنيسة فوجير ، غير ان بناء الزريبة اخفى معالمها .. سرحت بصرها في ارجاء وادي كويسنون فبدت لها ابسطة ناعمة ، بياضها يزيد في اكفهرار السماء الملبدة بالغيوم ، كان السكون عميقاً فشعرت بانقباض شديد للظروف التي اضافت الى توجساتها حزناً يكاد يكون جسدياً .

واخيراً شاهدت شاباً يقفز من فوق السياجات كالغزال ، ويركض بسرعة مذهشة .. « انه هو ! » كذلك قالت في سرها وكان مرتدياً ملابس بسيطة كملابس الناعق .

بعد قليل كان الشاب على بعد خطوتين منها امام المدفأة حيث تنوهج النار . كلاهما عجز عن النطق وتعاقت نظراتهما ، يوحدما أمل واحد ويفصلها ريب واحد . واخيراً قالت ماري :

- حرضي على سلامتك حملتي على الجيء الى هنا .

- على سلامتي !?

- اجل ، طالما انا في فوجير حياتك في خطر . لشدة حيي لك لم ارحل هذا

المساء . ارجوك لا تبحث عني بعد اليوم !

- اتذهبين يا ملاكي ! سألحق بك .

- تلحق بي ؟ اتظن ؟ والزرق ؟

- ما شأن الزرق مجنبا ؟

- يبدو لي انه من الصعب ان تبقى في فرنسا ، كما انه من الصعب ان

تتركها معي .

- وهل في الحب شيء غير ممكن ؟

- الحق معك ، كل شيء في الحب ممكن ، انما تجرأت انا فتخلت عنك من أجلك ؟

- ماذا ؟ اترك رضىت بمخلوق دنيء لا تحببته ثم ترفضين رجلاً يحبك حتى العبادة ، ويقسم انه لا يحب سواك وانك سوف تكونين ملء حياته ..؟
يا ماري ؟ - أجل .

- اذن ، كوني لي .

- انسيت اني عدت الى لعب دور امرأة فاجرة وانه ينبغي ان تكون انت لي ؟ اذا رأيتني اهرب منك ، فذلك حتى انقذك من الاحتقار الذي اعانيه ، ولولا هذا الخوف ..

- ولكن ، اذا كنت لا اتيب شيئاً ؟!

وكيف اضمن ؟ اني مرتابة ، شأن كل امرأة في مثل وضعي ، اذا كان حبنا لا يدوم طويلاً ، فليكن كاملاً على الأقل ، ماذا تراك فعلت من اجلي ؟ انك تشتهين ، اتظن انك بذلك تسمو على جميع الذين رأوني حتى الآن ؟ هل من اجل ساعة لذة خاطرت بناعيقك دون ان يخطر ببالك اني قلقة على الزرق الذين هلكوا فخرت كل شيء ؟

ترى ماذا عساک تفعل لو طلبت منك ان تتخلي عن جميع مبادئك ، وعن جميع آمالك ، ان تتخلي عن الذين قد يهزأون بك لو هلكت من أجلهم بينما أموت انا من أجلك ؟ ماذا عساک تقول لو طلبت منك ان تخضع للقنصل الأول حتى تتمكن من اللحاق بي الى باريس ؟ ماذا انت فاعل لو طلبت ان نرحل الى أميركا ونعيش في عالم كله غرور لتؤكد لي انك تحبني من اجلي بالذات كما احبك الآن ؟ وبكلمة موجزة ، ماذا تقول لو سألتك ان تنخفض الى مستواي ؟

- كفى ياماري ، كفاك تجنياً واتهاماً لنفسك ! لقد فهمتك ، ان كنت في بادىء الأمر قد رغبت فيك بدافع الشهوة ، فاعلمي ان هذه الشهوة انقلبت الى حب عظيم .

انت يا اخت روحي ، ان روحك لاسمى من اسمك واغلى من جمالك . ان اسمي لنبيل بما فيه الكفاية . واشعر بانى جدير بان افرضك على العالم . الأني اتوخى فيك اللذة الصارخة البريئة ؟ ام لأني آمل ان اجد في روحك اغلى الفضائل التي تحبيننا بالمرأة ؟ انني اجهل السبب ، غير ان حبي لا حدود له ، ويبدو لي انني اصبحت لا اطيق العيش بدونك ، وحياتي ستكون منفرة ان لم تكوني بقربي .
- بقربك ؟ وكيف ؟

- آه ! يا ماري اما آن لك ان تفهمي ألفونس ، اسير حبك ؟

- اتظن انك تعريني بمنحي اسمك ويدك ؟ هل عرفت ماذا يحل بي لو احببتني لمدة ستة أشهر ؟ ، كلا ، كلا ، ان العشيقة هي المرأة الوحيدة التي تتأكد من المشاعر التي يظهرها لها الرجل . وذلك لأن الواجبات والقوانين والأولاد ليسوا روابط صادقة ، واذا كانت تدوم مدة اطول فذلك لأن المرأة تجدد في غرورها سعادة تجعلها تتحمل جميع الأشجان ، ماذا ؟ أأكون زوجتك واصبح عباً ثقيلاً عليك يوماً ما ؟ هذا الخوف يجملني افضل الحب العابر ، الحب الصحيح ، ولو كان في نهايته البؤس والموت . أي نعم ، استطيع ان أكون امأً فاضلة وزوجاً مخلصاً ، ولكن ، للحصول على مثل هذه المشاعر في نفس امرأة لا يجوز للرجل ان يتزوجها تحت تأثير الشهوة . ومن جهة اخرى ، من يدري اذا كنت انا نفسي سأظل راغبة فيك غداً ؟ كلا ، لا اريد ان اكون سبباً لشقائك ، سأترك بريطانيا لاعود الى فوجير ولن تأتي للبحث عني هناك ...

- حسن ، بعد غد ، صباحاً ، اذا رأيت الدخان يتصاعد من صخور سان سولبيس ، فاعلمي اني سأكون في المساء عندك ، عشيقاً أو زوجاً . سأقتحم كل شيء في سبيل ان اكون احد هذين ، والخيار لك .

- ولكن يا الفونس . أتجنبي الى حد المخاطرة بحياتك قبل ان تمنحنيها ؟
لم يجر جواباً ، تطلع فيها وخفض عينيه ، الا انه قرأ على وجه حبيته ذهولاً يضاهي ذهوله . وبسط لها ذراعيه . اعترى ماري ضرب من الجنون فالقت برأسها على كتفه بجنان وكادت تستسلم له لتجعل من هذه الغلظة سعادتها الكبرى

ولو كان فيها الخطر على مستقبلها كله . وسمعت حركة في الخارج ، فانفلتت من بين ذراعيه كأنها استيقظت من حلم ، وهرعت الى خارج الكوخ حيث استطاعت ان تستعيد رباطة جأشها وان تفكر بوضعها :

– لو فعلت لقبلي الآن وقد يسخر بي غداً ، لو صدق ظني هذا لاقتلته ، ولكن ، ليس الآن . قالت ذلك وهي تشاهد بوبيه فأشارت اشارة فهمها الجندي بوضوح فارتد بسرعة وعاد على اعقابيه كأنه لم ير شيئاً . وفجأة دخلت الأنسة دو فرنوي الى الغرفة وطلبت من المريكيز ان يلزم الصمت التام قائلة بذعر شديد وبصوت مكبوت :

– انهم هنا ...

– من ؟

– الزرق .

– آه ! لن اموت بدون ...

– أجل خذها ..

وبسرعة اخذها ، وهي باردة الأطراف . لا تمتنع ولا تقاوم ويبرود وبلا سلاح فاقتطف من شفتيها قبلة كلها هول ومتمعة ، ولعلها القبلة الأولى والاخيرة . ثم اتجها معاً نحو العتبة حيث اخرجها رأسها معاً من الباب ليطمئنا الى خلو الساحة فرأى المريكيز غودن على رأس عشرة من الرجال متمركزين في وادي كويسنون . التفت نحو الحقول فلمح تحت الشجرة اليابسة سبعة جنود آخرين ، صعد الى سطح غرفة الحمر وثقبه ليقفز منه الى التلة ، لكنه سرعان ما خبأ رأسه اذ رأى هولوا متمركزاً مع جنوده يقطع عليه طريق فوجير . فالتفت الى عشيقته فصاحت بيأس الميم . فقد سمعت اصوات ثلاث فصائل من الزرق تطوق المنزل . فقال لها المريكيز :

– اخرجي انت اولاً فتحميني .

حين سمعت هذه الكلمة ، الرائعة بالنسبة الى قلبها المحب ، تقدمت الى الباب وحجبت المداخل بحجبتها وهي سعيدة ، فرحة ، بينما كان المريكيز يحشو بندقيته .

وبعد ان قدر المسافة ما بين عتبة الكوخ وجذع الشجرة الكبيرة ، القى بنفسه امام الرجال السبعة الزرق . وامطروهم بنار بندقيته فاتحاً لنفسه طريقاً بينهم . وقبل ان يتمكن رجال الفصائل الثلاث من تطويق السياج الذي قفز من فوقه . كانت قدما المركيز قد سبقتا الريح . وصرخ هولو بصوت اشبه بالرعد :
- اطلقوا النار ، النار ، النار ، وحق الشيطان ! اليس في عروقكم دم فرنسي ؟ اطلقوا النار عليه !..

مع هذا الكلام فتح رجال هولو ورجال غودن النار معاً على الهارب . الا انهم اخطأوه ولم يعرفوا كيف اتجه . وكان المركيز قد وصل الى السياج بنهاية الحقل الأول وشعر بدنو غودن الذي انطلق في اثره بعنف ، فضاعف سرعته ، لكن غودن جاره في الركض فوصل الاثنان الى السياج الثاني معاً ، عندئذ اشرع مونتوران بندقيته وضرب بها رأس غودن فعجز عن اللحاق به .

لا يمكن القلم ان يصف القلق الذي ساور ماري والاهتمام الذي ابداه هولو وجنوده ازاء المشهد ، كان كل منهم يتتبع بنفسه مكتوم وحسب مصلحته حركات الراكضين . فقد وصل الغار وغودن معاً الى ستار الصقيع الأبيض في الغابة ، غير ان الضابط غودن تقهقر فجأة وانطلق وراء شجرة التفاح حيث امطره بالرصاص العشرون ناعقاً الذين كانوا قد احجموا عن اطلاق النار اولاً خوفاً من ان يصيبوا رئيسهم . وعندئذ هرع رجال هولو بسرعة ليخلصوا غودن الذي راح ، وهو بدون سلاح ، يتنقل من شجرة الى اخرى مغتنماً فرصة انصراف الناعقين الى حشو بنادقهم بالرصاص . لم يدم هلهه طويلاً ، فقد هرع هولو على رأس فرقته الى المكان الذي طرح فيه المركيز بندقيته ودعموه . وفي تلك اللحظة رأى غودن خصمه يجلس ، منهكاً ، تحت شجرة في الغابة ، فترك رفاقه يناوشون الناعقين المتمركزين وراء الحاجز واتجه هو نحو المركيز بشراسة الحيوان المفترس . واذ رأى قناصو الملك هذه المناورة ، اطلقوا صرخات رهيبه لتحذير رئيسهم ، ثم بعد ان اطلقوا الرصاص على خصومهم ، حاولوا الصمود لهجماتهم ، غير ان هؤلاء استبسولوا في اختراق الحاجز وانقضوا على الناعقين لانتقام دامٍ

رهيب انسحب الناعقون الى المرتفع الذي ارتكب هولوا غلطة كبيرة بتركه بدون حامية. وقبل ان يتمكن الزرق من التعرف الى بعضهم، كان الناعقون قد اتخذوا من فيجوات الصخور نقاط تركز حصينة. وكان بوسعهم ان يضربوا منها جنود هولوا لو ظهر انهم ينوون متابعة الهجوم على الناعقين.

وفيما كان هولوا وجنوده يسرون على مهل في الغابة الصغيرة باحثين عن غودن، كان الفوجيريون الزرق يعرون قتلى الناعقين ويجهزون على الاحياء منهم. في هذه المعركة الحامية الوطيس لم يقع اسرى من الفريقين، ذلك لان العادة جرت ان يجهز على الجرحى والاسرى معاً.

نجح المرئيين وترك الناعقون والزرق بعضهم، حيناً، ليتعرفوا على قوة حصانة مراكزهم. وعرف كل منهم عدم جدوى القتال بعد نجاة المرئيين ولم يعد كل من الفريقين يتمنى سوى الانسحاب من المعركة.

سرح القائد بصره في ارجاء الغابة بانتباه وقال:

— ان فقدت هذا، فلن يكون لي بعد اليوم صديق.

وهنا قال احد شبان فوجير وهو منهمك بتعوية الأموات:

— هوذا طائر بريش اصفر. قال ذلك وعرض على رفاقه محفظة مليئة بقطع

نقد ذهبية وجدها في جيب قتيل يرتدي قفطاناً اسود. وسحب آخر كتاباً من

جبة الميت، واذ عرف انه كتاب صلوات طرحه ارضاً وقال:

— هذا كاهن!. وقال ثالث لم يجد في جيب قتيل آخر كان يعريه سوى دينارين

من فئة ستة فرنكات: هذا الناعق اللص افلسنا فدراهمه قليلة. فأجابه رفيق له:

— ولكنه يحتذي حذاءً جديداً ومتيناً. وراح الاثنان يختصمان على الحذاء

وهما ينتزعانه من قدمي الميت.

تسلم احد الفوجيرين الأموال السلبية ليوزعها على جنود البعثة عندما

يجمعون. وعندما عاد هولوا ومعه الضابط الشاب غودن من دورية فاشلة للقبض

على « الغار »، وجد عشرين رجلاً من جنوده وثلاثين من الناعقين المضادين امام

احد عشر قتيلاً من الناعقين طرحت جثثهم في حفرة وراء الحاجز. خاطب

هولو جنوده بصوت صارم قائلاً :

- ايها الجنود ، امنعكم منعاً باتاً من اقتسام هذه الامتعة فيما بينكم ،
انتظموا في صفوفكم بسرعة . فأجابه جندي وهو يلقت نظره الى حذائه وقد
ظهرت منه اصابع قدميه :

- سيدي القائد ، لا بأس اذا لم نتقاسم المال ولكن ، هذا الحذاء ... انه
يناسبني تماماً .

- اتضع قدميك في حذاء انكليزي ؟ قال هولو . فأجابه الجندي :

- سيدي القائد اننا ما برحنا منذ بداية الحرب نتبادل مع الاعداء الامتعة
المتروكة .

- اذن ، لن امنعكم من مزاوله عاداتكم ، افعلوا ما شئتم .

وهنا اعطى الجندي المحفظة بما فيها لغودن من اجل جهوده وبسالته وهو
يقول له :

- خذها فان رئيسك لن يعترض .

وتطلع هولو الى غودن من طرف خفي فرأى سحابة من الأصفرار تغمر وجهه
حين صرخ قائلاً :

- انها محفظة عمي ..

وعلى الرغم من تعبته الشديد ، خطا بضع خطوات نحو الجثث وكانت اولها
جثة عمه ، ما كاد بصره يقع على وجهه المخضب ببقع زرقاء وذراعيه المتصلبتين
وجرحه المميت حتى صرخ :

- فلنذهب من هذا المكان يا سيدي القائد .

وسارت فرقة الزرق في طريقها والقائد هولو يسند بذراعه الضابط غودن
وقد قال له :

- يا للصاعقة . لا تبتئس . فأجابه غودن :

- لقد مات ، مات يا سيدي القائد ، كان قريبي الوحيد . وعلى الرغم من
لعناته ، كان يحبني . ولو عاد الملك لطالب الجميع برأسني ، الا هو . فإنه جدير

باخفائي تحت جيبته .

تم توزيع الأمتعة فانضم الناعقون - المضادون الى طابور الجنود الزرق وساروا في طريقهم .

قلق رهيب تسرب مع هبوط الليل الى كوخ غالوب شوبين فقد عادت باربيت وابنها من الحقل الى الكوخ في ساعة العشاء ، هي تحمل حزمة من الحطب والولد يحمل العشب للمواشي ، بدخولها بحثاً عن غالوب شوبين فلم يجدها ، كانت الغرفة شبه فارغة ، وليس من نار تدفئ البيت ، السكون والظلمة مخيان وكل شيء ينبيء بكارثة حلت بهذا المنزل .. اشعلت النور وملأت زجاجتين بالخمر وهي فريسة هواجس عميقة تصفي لأقل حركة في الخارج . عدة مرات حدثت الى ولدها ولكنها عجزت عن مكالمته . بعد لحظات علقت عينا الطفل بالوتدين في الحائط حيث اعتاد والده ان يعلق سلاحه فرآهما فارغين وقد ارتجفت امه لدى هذا المشهد .

لم يكن يقطع السكون سوى خوار البقرات ووقع نقط الخمر المتساقطة من البرميل ، وقد انتعشت المرأة التعسة ، حين جهزت مقدار ثلاث كاسات من الفخار مما يشبه الحساء المركب من الحليب وقطع الفطائر والكستناء المشوية ، وقال الطفل لأمه :

- لقد جرت معركة في حقل الـ « بيروديير » .

- اذهب وانظر ..

ركض الصبي وتعرف في ضوء القمر على كومة الجثث ، واذ لم تكن بينها جثة والده رجع مسروراً وهو يصفر بعد ان التقط بضغ قطع من فنة المثة فلس مدوسة بأرجل المنتصرين او منسية في الوحل . برجوعه وجد امه منهمة بقتل خيطان القنب قرب النار فأعطاها اشارة سلبية ، لكنها لم تجرؤ على التفاوض .

دقت ساعة كنيسة « سان ليونار » العاشرة فرقد الصبي بعد ان تتم بصلاة لعذراء اوراي المقدسة . وفي الصباح ، أطلقت باربيت هتاف الابتهاج حين سمعت وقع حذاء مسمر في الخارج عرفت انه حذاء غالوب شوبين الذي اطل بوجه عابس ،

فابتدرته زوجته بقولها :

- بعناية القديس « لابر » الذي نذرت له شمعة جميلة فقد نجنا « الغار » !..
لا تنسَ اننا مدينون لهذا القديس بثلاث شمعات !
لم ينبس غالوب شوبين ببنت شفة بل اخذ زجاجة خمر وشربها دفعة واحدة ،
وبعد ان احضرت له الحساء وتناولت منه أسلحته ، وبعد ان جلس قرب
النار سألها :

- كيف جاء الزرق والناعقون المضادون الى هنا ؟ لقد كانوا يتقاتلون في
فلوريني ، فأبي شيطان أنبأهم بأن « الغار » عندنا ؟ لم يعلم احد بأمره سوى الآنسة
دو فرنوي ونحن الثلاثة ، فمن ذا الذي وشى ؟
امتقع وجه المرأة وقالت وهي ترتجف :
- أكد لي الناعقون المضادون انهم من أهالي سان جورج فأخبرتهم بأن
« الغار » موجود عندنا .

تحول وجه غالوب شوبين الى لون التراب وترك صحفته على حافة الطاولة .
واردفت زوجته قائلة وهي على أشد ما يكون من الذعر :
- لقد ارسلت ولدنا ليحذرك ولكنه لم يجده .
نهض الناعق وانهمال بالضرب على المرأة ، فسقطت على السرير ، صفراء
كالأموات ، وصاح زوجها :

- أيتها الساقطة الملعونة ، لقد قتلتني ، ثم اخذ زوجته بين ذراعيه وهو
يصرخ : باربيت ! يا باربيت !.. ايتها العذراء القديسة لقد جرت عليها ، فارحميني .
واذ فتحت باربيت عينيها سألت زوجها بقلق :
- اتظن ان مارش آتير عرف بالأمر ؟
- « الغار » هو الذي سأل من أين اتت هذه الحيانة ؟
- وهل اخبر مارش آتير ؟
- كان مارش آتير وبيل ميش في فلوريني
تنفست باربيت الصعداء وقالت :

- اذا مسّ شعرة واحدة من رأسك لأستنزلن عليها غضب السماء .
- آه ! لم يعد لي شهية للطعام .

وضعت امامه زجاجة اخرى من الخمر ، فلم ينتبه اليها ، جرت دمعتان كبيرتان على خدي باربيت فبللتا تجاعيد وجهها الكامد . وقال لها زوجها :
- اسمعي يا زوجتي ، اذهبي صباح غد الى غابة « سان ليونار » واجمعي بعض الحطب على احدي الصخور واشعلي فيها النار ، تلك اشارة متفق عليها بين « الغار » وبين مرشد رعية سان جورج الذي يأتي ليقوم بمراسم القداس .
- سيذهب اذن الى فوجير ؟

- اجل ، الى بيت حسنايه ، سأقضي هذا اليوم ساعياً لهذا الغرض ، اظن انه سيتزوجها ثم يخطفها ، فقد طلب مني ان أستأجر له جوادين اربطها على طريق سان مالو .

بعد ذلك نام غالوب شوبين بضع ساعات ثم انطلق في سبيله ، وفي صباح اليوم التالي عاد الى بيته بعد ان قام بالمهمات التي عهد بها اليه المريكيز . اما زوجته ، وقد تبدد شيء من مخاوفها حين علمت ان بيل ميش ومارش آتير لم يحضرا ، فقد ذهبت شبه مطمئنة الى صخور سان سوليس ممسكة بيد ابنتها الذي حمل بعض الجمرات في فردة قبقاب عتيق لاشعال النار في الحطب حسب التعليمات .

ما كادت الزوجة والابن يتواريان حتى سمع غالوب شوبين رجلين يقفزان آخر سياج من سلسلة سياجات الحقول ، ومن خلال ضيابة كثيفة اخذ شخصاهما يتضحان للنظر شيئاً فشيئاً .

- « انها بيل ميش ومارش آتير ! » فكر غالوب شوبين مرتعداً . وسرعان ما اطل الرجلان بوجهها العبوسين في ساحة الكوخ . وابتدره مارش آتير بصوت صارم :

- نهارك سعيد يا غالوب شوبين .

- نهارك سعيد يا سيدي مارش آتير ، هل لكما بالدخول لتناول كأسين من الخمر ؟ لدي كعك طيب وزبدة طازجة .

- لن نرفض لك طلباً يا ابن العم ، قال بيل ميش .
 ودخل الناعقان . الى هنا لم يبدر منها ما يروع رب المنزل الذي أسرع في
 احضار زجاجة خمر كبرى ملاً منها ثلاث كؤوس فيما كان مارش آتير وبيل ميش
 جالسين على طرفي الطاولة يقطعان الكعك ، ثم يغمسانه في الزبدة ويأكلان .
 وضع غالوب شوبين الاقداح الثلاثة مترعة تملوها الرغوة امام ضيفيه وجلس
 معهما للطعام ، إلا ان رب المنزل كان من وقت الى آخر يلقي نظرة خفية على
 مارش آتير وهو يحاول ان يرضيه بالشراب .
 ادعى بيل ميش انه يشعر بالبرد فنهض وأقفل الجزء الاعلى من الباب ،
 فأظلمت الغرفة ، غير ان النار المشتعلة ظلت ترسل بعض وميضها الاحمر في ارجاء
 الغرفة . وفي هذه اللحظة كان غالوب شوبين قد أعاد تعبئة الاقداح الثلاثة ، غير
 ان ضيفيه رفضا الشرب ، ثم ألقيا قبعتيهما على الطاولة واتخذوا موقفاً جدياً .
 وبدرت منها حركات ونظرات رجف لها غالوب شوبين فقد خيل اليه انه يرى
 الدم تحت قلعسوتيهما المرابين . قال له مارش آتير :
 - احضر ساطورك .

- ولكن ، يا سيدي مارش آتير ، ماذا تريد ان تفعل به ؟
 - هيا يا ابن العم ، انت تعرف السبب .. لقد حوكت .
 ونهض الناعقان معاً وهما يستلان بندقيتيهما . فقال المضيف :
 - ولكن يا سيدي مارش آتير . لم اقل شيئاً عن « الغار » . وفي نفس الوقت
 ارتطم غالوب شوبين التمس بنخشة سرير ابنه فسقطت على الارض ثلاث قطع
 نقدية من فئة المئة فلس فالتقطها بيل ميش وقال لمارش آتير .
 - ارأيت ؟ لقد اعطاه الزرق هذه القطع الجديدة .
 - اقسام لكما بالقديس لابر انني لم اقل شيئاً عن « الغار » ، انها زوجتي التي
 حسبت الناعقين - المضادين من اهالي سان جورج ، هذه هي الحقيقة . فانتهره
 مارش آتير بقوله :
 ولماذا تحدثت عن هذه الشؤون مع زوجك ؟ على كل حال نحن لا نطلب
 منك تبريراً ، انما نطلب ساطورك ، لقد صدر الحكم عليك بالموت .

واشترك الناعقان في امساك غالوب شوبين الذي فقد كل قوة للمقاومة فسقط على ركبتيه ورفع نحو جلاديه يديه متوسلاً بياس :
- يا صديقي ، يا ابن عمي ، ماذا سيحل بابني ؟
- سأتعهد ، اجاب مارش آتير .

- يارفيقي العزيزين ، لست مستعداً للموت . هل تدعاني اموت بدون اعتراف؟ لكما الحق ان تقتلا جسدي ، اما روحي فلا يحق لكما ان تحرماها من آخره مرضية .

- كلام معقول ، قال مارش آتير وهو يتطلع الى بيل ميش .
وبقي الناعقان فترة ما في حيرة كبرى دون ان يجدا حلاً لهذه المسألة الوجدانية ، وغالوب شوبين يتعلق بجبال الهواء مترقباً بارقة من أمل . وفجأة اخذ بيل ميش المحكوم من ذراعه ، وقاده الى الزاوية وقال له :
- اعترف لي بكل خطاياك وانا انقلها الى الكاهن فيحلني منها جميعاً بالنيابة عنك . واذا كان لا بد من جزاء يفرض عليك للفقران فانا انفذه عنك ومن اجلك .
استغرق غالوب شوبين من الوقت فترة غير قصيرة لسرد خطاياها ، ولكن على الرغم من تعدد جرائمه وظروفها فقد اتى على آخر سبخته وقال لمعرفه :
- ومع ذلك يا ابن العم ، وبما اني اخاطبك بصفتك معرفي الآن فاقسم لك باسم الله العظيم انه ليس هناك ما الام عليه سوى انني حشوت لقمي بكثير من الزبدة ...
استشهد القديس « لابر » الذي ترون صورته فوق المدفئة ، انني لم اقل شيئاً عن « الغار » . كلا يا صديقي العزيزين انني لم اخن .

- حسن ، انهض يا ابن العم سوف تتفاهم عن كل ذلك مع ربك .
.. اتركاني اودع زوجتي بكلمة . فأجابه مارش آتير :
- هيا ، استعد ، تصرفاً بريتونيا وانتهِ بسلام .
امسك الناعقان مجدداً بغالوب شوبين ، والقياه على المقعد وهو مستسلم لا يأتي باي مقاومة . لكنه اطلق بضع صيحات غامضة حين هوى الساطور على عنقه ، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد ، فحمله مارش آتير من

شعره ، وخرج به من الكوخ . واذ وجد مساراً كبيراً في الباب ، جدل الشعر وعقده ثم علق الرأس الدامي دون ان يطبق عينيه .

غسل الناعقان أيديها يهدوء في وعاء كبير مليء بالماء ، ثم اخذا قبعتيهما وبندقيتيهما واجتازا السياج وهما يصفران لحناً بلدياً معروفاً .
وفيما كان بيل ميش يغني بعض مقاطع من أغنية شعبية قصيرة سمعت باربيت الغناء من بعيد :

ألبسها العاشق	ثوبها الابيض	في البلدة الاولى
ألبسها العاشق	من فضة وذهب	في البلدة الاخرى
مدت لها الشفوف	في ملتقى العسكر	جميلة فتانة

وراحت بدورها تغني المقاطع الباقية من الاغنية وهي في طريقها الى بيتها :

هيا بنا نرحل	هيا الى الحرب	قد حانت الساعة
يا ضابطي الأمثل	أرجوك لا تزعل	بنيتي راحت
ليست على الارض	ليست على البحر	ان شئت فاخطبها
تعال يا بنيتي	تجردي حالاً	للم ألقيك
والضابط الشامر	سبحاً تلقاها	والموت نجها
هيا الى الحرب	يا بهجة القلب	قد حانت الساعة
في البلدة الاولى	النخ ...	

وما كادت تصل الى ساحة المنزل حتى جمد لسانها ، جمدت في مكانها لحظات ثم انفجرت من أعماقها صرخة أليمة ، قطعها ابنها بقوله :

— ماذا جرى يا امي الحبيبة .

سحبت يدها من يد ابنها بشراسة ودفعته الى الأمام قائلة :

— وحدك في الحياة ، لم يبق لك اب ولا ام !.

تطلع الولد باكياً الى الباب فرأى رأس والده معلقاً . فتح عينيه وتأمل طويلاً هذا الرأس الحبيب وهو مشدود لا يعرف أي شيء يقول . وفجأة عادت باربيت

فأخذت بيد الطفل، فضغطت عليها بعنف وقادته بخطى خاطفة الى داخل المنزل.
اول شيء وقع بصرها عليه هو فردة حذاء زوجها مليئة بالدم اذ كانت تحت
المقعد الذي ألقى مارش آتير وبيل ميش غالوب شوبين عليه ليقطعا رأسه ،
وقالت للصبي :

– اخلع حذاءك ، ضع قدمك في هذا الحذاء .. حسن ، تذكر دائماً حذاء
ابيك ، لا تضع قدميك في أي حذاء بعد اليوم دون ان تتذكر الحذاء الذي
وجدته مليئاً بدم سفكه الناعقون . انتقم لأبيك ، اقتل الناعقين .
قالت ذلك وهزت رأسها بجرحة عصبية ، واستأنفت قائلة وقد اتخذ وجهها
شكلاً مربعاً :

– أستشهد القديس «لابر» بأني نذرتك يا ولدي للزرق . سوف تكون جندياً
لتنقم لأبيك .. اقتل ، اقتل الناعقين ، افعل كما افعل انا ، آه ! لقد قطعوا
رأس زوجي ، لأسلمن رأس الغار للزرق !.

وقفزت عن السرير كالمجنونة . تناولت كيس النقود من مخبئه . أمسكت
بيد ابنها المذعور وجرته قبل ان يتمكن من احتذاء مدهاسه وسارت به في طريق
فوجير غير ملتفتة الى الكوخ الذي قررت ان تهجره . وحين وصلت الى قمة
صخور سان سوليس أشعلت النار في الحطب يساعدها ابنها في ذر العيدان
الحضراء المحملة بالجليد على الحطب ليزيد في هيب النار ، وقالت باربيت لابنها
وهي تشير الى النار :

– ان هذه النار ستدوم أكثر من ابيك واكثر مني ومن « الغار » .

بينما كانت الثاكل وابنها يوقدان النار ، كانت الآنسة دو فرنوي معلقة عينها
في تلك الصخرة ، محاولة ، عبثاً ، اكتشاف الاشارة التي أعطاها المركيز ، فقد
كان الضباب الكثيف يغطي المنطقة ويحجب حتى أقرب الأمكنة من المدينة .
كانت تتأمل المناظر حولها باهتمام زائد ، والافكار تتوالب في رأسها ولما لم تر
النار على رأس الصخرة في سان سوليس ، استرسلت في التفكير : لعلي تماديت
في دلالي عليه !؟ حسبي انني عرفت مقدار حبه لي . آه يا فرانسين ، لقد تحققت

الحلم ، هذا المساء سأصبح المركيزة دو مونتوران ، ترى أي شيء عملت لأستحق هذه السعادة الكاملة ؟ آه ، لقد احببتك ، والحب وحده يدفع عن الحب .

– هذا المساء تصبحين المركيزة دو مونتوران يا ماري ؟ أكاد لا اصدق ، ترى من ذا الذي اخبره عن شمالك ؟

– أي يا بنيتي ، ليست عيناه جميلتين فحسب ، انه صاحب نفس هالية ، آه لو رأيتك في ساعة الخطر ! لا بد ان يكون رائعاً في الحب بقدر ما هو رائع في شجاعته .

– ان كنت تحبينه كل هذا الحب ، فلماذا اذن ترضين بعجيبته الى فوجير ؟ – وهل وجدنا الوقت الكافي لنقول كلمة عندما فوجئنا ؟ ومع هذا ، اليس

في ذلك دليل حب ؟ .. بانتظار مجيئه ، سرحي شعري .

اكثر من مئة مرة خربت تسريحة شعرها بمحركاتها المكهربة وبتلاحم افكارها المتهبجة بانافتها . مع كل عقصة لشعرها ومع كل جديدة تلقيها الى اعلى ظهرها

تساؤل مراتب :

– لتراه يحدعني !! وفيما هي تسائل المرأة عن وقع نظرة جانبية او ابتسامة رقيقة أو طية على جبينها أو أثر من غضب أو غنجة أو ازدراء ، كانت تبحث في الوقت نفسه عن حيلة جديدة تأسر بهما ، وحتى آخر لحظة ، قلب الزعيم الشاب . قالت لفرانسين :

– الحق معك ! انا على رأيك ، اريد ان يتم الزواج ، هذا هو آخر يوم من الأيام القليلة . يوم فيه موتي أو سعادتنا . و اردفت قائلة وهي تسرح بصرها فوق

قم صنور سان سوليبس المغطاة بالضباب :

– انه لضباب مقيت هذا الذي يجذب المناظر عن العيون . وراحت تنزل الستائر الحريرية التي تزين النوافذ متمعدة خنق النور لتضفي

على الغرفة ظلمة خفيفة فيها كثير من الفتنة .

ونادت فرانسين لتقول لها :

– ازيلي عن المدفأة كل ما عليها من الطرّف ولا تتركها عليها سوى المنبه والاناين من بورسلين ساكس . سأضع فيها بنفسني ازهار الشتاء التي احضرها

لي كورنتان ... اخرجي جميع الكراسي ، لا اريد ان ارى هنا سوى الكنبه
ومقعد واحد. وعندما تنتهين ، نظفي السجادة بحيث تصبح الوانها زاهية ، ثم
اجعلي الشموع على جناحي المدفأة وفي المشاعل .

انعمت ماري النظر في السجاجيد المعلقة على الحائط، ويتذوق رفيع تبينت
الألوان التي تربط بين هذه التحف الأثرية وبين اثاث المخدع بانسجام الألوان أو
تعاكسها . وبنفس النهج رتبت الأزهار في الآنية التي تزين الغرفة . ثم وضعت
الكنبة قرب النار . وعلى كل من الطاولتين المذهبتين على جانبي السرير المقابل
للمدفأة وضعت اناء من بورسلين ساكس مليئاً بالازهار التي تضوع منها أطيب
العطور . ولقد اختلجت اكثر من مرة وهي ترتب طيات الستارة الخضراء
التبازجة فوق السرير وتلقي المسه الاخيرة على الغطاء الصيني البديع .

تلك ترتيبات لا تخلو من سر من اسرار السعادة غير المحدودة عند المرأة اذ
تولد فيها اندفاعاً محبباً وتنسيها كما انست الآنسة دو فرنوي جميع شكوكها
ومخاوفها. ان مثل هذه العناية والدقة لنوع من التعبير العميق لمخلوق غائب
حبيب قد يمنح ، فيما بعد ، ابتسامه رضى قدسية ترى فيها المرأة خير مكافأة
لها على حسن ذوقها واتاقتها . واذ ذاك فهي تستسلم ، مسبقاً للحب . فليس في
النساء من لا تردد في نفسها في مثل هذا الموقف ما تمتت الآنسة دو فرنوي :

- هذا المساء سأكون سعيدة !.. اطهر فتاة بين النساء ترسم هذا الأمل على
تموجات الحرير والموسلين ثم ، بصورة لا شعورية ، يأتي الأنسجام الذي اضعته
حولها فيدمغ كل شيء بطابع الحب . وفي وسط هذا الجو الغرامي تصبح
الاشياء شهوداً حية تشارك معها بجميع مسرات المستقبل ، فهي تسترق المستقبل
في كل حركة وفي كل فكرة . ثم دهمها القلق وجفاها الصبر ففي كل حركة
حدس جديد . الشك يقبض على صدرها بيد خشنة ، انها تحترق ، تضطرم
وتتمزق لفكرة عابرة تلسع كقوة مجسدة ، وكل ما حولها ضائع بين النصر
والفشل واللذة والعذاب . ولو لا فسحة الأمل لما قدرت على الاحتمال .

مرات لا تعد رفعت الستائر وهي ترجو ان تشاهد عمود الدخان يرتفع فوق

الصخور ، ولكن الضباب كان يتكاثف اكثر فاكثر . فنتوهم ان كارثة ما ستقع .
واخيراً عيل صبرها فاسدلت الستارة وقررت الاتعود الى رفعها مرة اخرى .
تأملت فرانسين سيدتها برهة ثم هتفت :

— ما أجلك !

— يا لنا من مجنونات نحن النساء ! اليس الحبيب هو دوماً بهي زينتنا !
غادرت فرانسين الغرفة تاركة سيدتها لحواطرها وقد استلقت باسترخاء ناعم
فوق الاربيكة . وقد تأكد للفتاة ان سيدتها لن تقدم على التخلي عن المركز لأي
سبب كان .

التقى الجنرال هولو وكورنتان بباربيت وجرى بينهما الحديث التالي :

— هل انت متأكدة مما قلته ؟

— انظر: بعينيك الى هناك ، الى صخور سان سولبيس في غابة سان ليونار .
التفت كورنتان نحو القمة باتجاه المكان الذي اشارت اليه باربيت باصبعها .
فرأى ، وقد تبدد الضباب ، عموداً من الدخان الرمادي الذي تكلمت عنه
زوجة غالوب شوبين وسألها :

— متى يحضر ؟ أهذا المساء ام في هذا الليل ؟

— لست ادري .

— لماذا تخونين حزبك ؟

— آه ! يا سيدي الجنرال ، انظر الى قدم ولدي ، انها مخضبة بدم زوجي الذي
ذبحه الناعقون كما تذبح النعاج وذلك ثمناً للكلمات القليلة التي انتزعت مني امس
الاول . خذ ولدي .. خذه . بما انك كنت السبب في حرمانه من ابيه ومن
امه ، فأجعل منه ازرق حقيقياً ايها الرجل الكريم ، وليقتل الكثير من الناعقين .
هذه مئتا دينار ، احتفظ بها لولدي ، انها جني ابيه في مدى اثني عشر عاماً .
نظر هولو بدهش الى هذه القروية الشاحبة المغضنة الوجه ، وقال لها :

— وانت ؟ ماذا سيحل بك ؟ الافضل ان تحتفظي بالمبلغ لنفسك .

— لنفسي ؟ وهزت رأسها أسفاً وهي تستأنف قائلة : ولكنني لم أعد بحاجة

الى شيء ! لو خبأتني في برج قصر فوجير فلا بد ان يصل الناعقون إلي لقتلي .
قالت هذا وقبلت ولدها قبة أليمة ، ثم نظرت اليه ملياً والدموع تهمر من
عينها ، ثم اخذت طريقها وتوارت !..

هنا خاطب كورنتان القائد بقوله :

- هذه فرصة ثمينة ينبغي ، للاستفادة منها ، تفكير رجلين لا رجل واحد .
ان حاصرنا بيت الآنسة دو فرنوي ، كلانا ، حملناها على الوقوف ضدنا ،
ولسنا نحن وجميع جنودنا بقادرين ان نقف في وجه هذه المرأة لو شاءت ان تنقذ
الرجل ، ان المريكز هو ربيب البلاط ولا بد ان يكون واسع الحيلة ، انه شاب
صلب العود ، ولا يمكن ان نقف بانتظاره على مدخل فوجير ، اذ ربما قد دخلها .
ولا فائدة من مداومة المنازل لأن في ذلك تنسياً للسكان او ازعاجاً لهم . فقال هولوا :
- سأطلب من حارس مركز سان ليونار ان يزيد على دورته ثلاث خطوات
فيصل قبالة منزل الآنسة دو فرنوي ، وفي نفس الوقت اتفق مع الحراس على
اشارة ادرك بها ان شاباً ما دخل المنزل فأكون على رأس فريق من الحرس الوطني
هناك .

فقاطعه كورنتان بقوله :

- واذا لم يكن ذلك الشاب هو المريكز بعينه ؟ واذا كان المريكز لا يدخل
المنزل من الباب ؟ واذا كان الآن موجوداً في المنزل ؟ واذا واذا واذا ..
كان كورنتان يخاطب القائد وفي لهجته شيء من التعالي ومن السخرية
فثارت كبرياء القائد وصاح محنقاً : اليك عني يا مواطن ، الى جهنم .. ان وقعت
الطريدة بين يدي رجالي فسأقتلها وان علمت ان الرجل في منزل ما ذهبت
لمحاصرته واعتقال المطارد واطلاق النار عليه ، ثم تقيم في وجهي الصعوبات انت !
- يا سيدي ، ان رقيم الوزراء الثلاثة يأمرك باطاعة الآنسة دو فرنوي .
- لتأت هي بنفسها الي وعندئذ يكون لكل حادث حديث .
- انها لن تلبث ان تقول لك بذاتها متى يأتي النبيل . قد تغضب وتثور لو
رأتك تضع عليها الحراسة وتحاصر منزلها ..

— هذا الرجل هو الشيطان بعينه ، قال القائد المعجوز في نفسه وهو يشاهد كورنتان يصعد بخطى واسعة درج رين حيث جرى هذا الحوار ويأخذ طريقه الى مدخل سان ليونار . وعاد القائد يخاطب نفسه قائلاً :

— سيسلني مونتوران مقيماً بالسلاسل فأضطر الى تروؤس مجلس حربي لمحاكمته .. لا بأس ! ان « الغار » هو عدو الجمهورية وقاتل صديقي جيرار ، فلينقص عدد النبلاء واحداً ، والى الجحيم ...
ثم استدار على عقبه وراح يزور مراكز المدينة وهو يصفر لحن المارسيليز نشيد الجمهورية الوطني .

وفي هذا الوقت ، كانت قدما كورنتان تطآن صالة الآنسة دو فرنوي التي كانت غارقة في احلامها المتقلبة . واذا واجهته قال لها ضاحكاً :

— ايتها المحتالة الصغيرة ، اما زلت تخادعيني ؟ ماري ، يا ماري ! انك تلعبين دوراً خطراً جداً ما دمت لا تشركينني باللعبة وتتصرفين دون استشارتي . ان نجا المريكيز يجلبه ... فقاطعته بقولها :

— لن تكون انت المسؤول .. ثم بأي حق تدخل بيتي ؟

— بيتك ؟ قالها بلهجة ساخرة . فأجابته بكبر :

— انك تذكرني بانني لست في بيتي ، لملك اخترت لي هذا البيت لتكون في حرز حرز عند ارتكاب جرائمك ، سأخرج من هذا البيت . سأذهب لاعيش في الصحراء حتى لا ارى .. فأجابها مقاطعاً :

— حتى لا ترى الجواسيس .. لكن هذا البيت ليس لي ولا لك ، انه للحكومة . وخرجك منه لا يفيدك بشيء .

امتعضت الآنسة دو فرنوي من لهجته ونظرتة التهكية فنهضت عن مقعدها وتقدمت بضع خطوات ولكنها توقفت فجأة حين رأت كورنتان يرفع ستارة النافذة ويدعوعا للوقوف الى جانبه وهو يقول لها بهدوء :

— ارأيت عمود الدخان هناك ؟

— ما شأن هذا العمود برحيلي من هنا ؟

- لماذا تغيرت نبرة صوتك؟ يا مسكينة انني عارف بكل شيء، ان الماركيز سيحضر اليوم الى فوجير . وليس بقصد تسليمه الينا اقمت كل هذه الزينات ، في هذا المهدع ، من ازهار وشموع .

شعب وجه الأنتسة دو فرنوي وهي ترى مصرع الماركيز في عيني هذا الوحش البشري . واحست بعاطفة حب نحو حبيبها تقرب من الهديان ، في منبت كل شعرة في رأسها احست بوخزة أليمة ، حتى لم يعد بإمكانها ان تقف على رجلها فسقطت على الاربيكة منهارة القوى . اما كورنتان ، فقد وقف هنيهة مكتوف الذراعين ، فرحاً وحزيناً في نفس الوقت ، فرحاً لأنه وجد في تعذيبها انتقاماً له ، وحزيناً لأنه ما برح يستطيع حمل نيرها معها كان ثقيلاً ، وقال بصوت مسموع :
- انها تحبه ! فصرخت قائلة :

- احبه فقط ؟ انه حياتي . انه نفسي ، انه الهواء الذي انشق .. وانظرحت على قدميه قائلة :

- يا ذا القلب الرخيص ، والنفس الوضيعة ! احب الي ان اهون في سبيل انقاذه من ان اهون من اجل هلاكه ، سأفتديه بدمي .. تكلم ايها الرجل ، ماذا يعوزك ؟

- جئت لأتلقى اوامرك يا ماري . قالها مرتجفاً وبصوت حنون . ورفعها عن الأرض بتوءدة وادب ثم اردف قائلاً :

- اجل يا ماري ، ان اهاناتك لي لا تمنعني من اكون لك بكلي على ان لا تخدعيني فيما بعد .

- ان كنت تريدني عل احبك ، فساعدني على انقاذه .

- حسن . في أي وقت يجيء الماركيز ؟

- آسفة ، لست ادري .

وراح الاثنان يتبادلان النظر فقالت ماري في نفسها :

- لقد وضعت ! .. وقال هو في نفسه :

- انها تخدعني ، وخاطبها بقوله :

- لدي ، يا ماري ، مبدآن . المبدأ الاول هو ألا اصدق كلمة مما تقوله النساء . والثاني ان ابحت دائماً عن المصلحة التي تسعى اليها المرأة والتي تتنافى تماماً مع الكلمات التي تلتفظ بها شفتها ... اعتقد اننا متفاهمان الآن ، اليس كذلك ؟

- كل التفاهم . لا ريب انك تطلب البرهان ولكنني احتفظ بهذا البرهان الى ان تثبت لي حسن نيتك .

- الوداع يا آنستي ، قالها كورنتان بكثير من الجفاء وهو يهم بالانصراف .
- ابق هنا ، اجلس على هذا المقعد ، ومهلاً بعض هذا الدلال والجرد ، وإلا فاني أستطيع ان استغني عنك في انقاذ المركيز ، اما من جهة الـ ٣٠٠ ألف فرنك التي تراها مفروشة امامك فاني ابدلها لك ذهباً في أي لحظة يصبح فيها المركيز بأمان .

- نهض كورنتان وتراجع بضع خطوات الى الورا وهو يقول لها : لقد أصبحت ثرية بمدة وجيزة .

- بإمكان مونتوران ان يدفع لك ضعف هذا المبلغ فدية عن حياته .
فأثبت لي ان لديك الوسائل الكافية لابعاد الخطر عنه .

- الا تستطيعين ان تهربيه ساعة وصوله ما دام هولويجهل ساعة اللقاء و ..
توقف فجأة عن الكلام كأنه يلوم نفسه واستدرك قائلاً :

- أنت تطلبين مني حيلة ?? اصفي الي يا ماري . انني متأكد من ولائك ،
عديني انك تعوضين علي كل ما اخسره في سبيلك ، هدئي القائد حتى يتمكن
المركيز من التنزه في فوجير وكأنه في سان جيمس .

- انني اعدك بما طلبت .

- لا ، ليس هكذا ، اقصي لي بامك .

ارتعشت الآنسة دو فرنوي وهي ترفع يدها . وأدت القسم كما طلب الرجل
الذي تغيرت لهجته تماماً حين قال :

- تستطيعين الاعتماد علي ، لا تخدعيني ولسوف تباركين يدي هذا المساء .

- لقد صدقتك .

وودعته باحناء رأسها وبابتسامة هي مزيج من التحنن والدهش ولا سيما حين طفت على وجهه موجة من الحنان الكئيب .

« ما اروعها مخلوقة ! » هتف كورنتان وهو يبتعد عنها ، ليتني احوزها لتكون مصدر ثروتي ولاستمتع بها في نفس الوقت . اهي التي جئت امامي حقاً ؟ .. آه ! ذلك لأن المركيز في خطر . اذا كنت لا استطيع الوصول اليها الا بعد اغراقها في حمأة من الوحل فسأغرقها حتى تكون لي في النهاية . وكانت قدماه قد قادناه الى الساحة دون علم منه حين وصل في تفكيره الى القول :

- على كل حال ، لعلها لم تعد ترتاب بي ، ٣٠٠ الف دينار ذهب تدفعها في الحال ! .. تحسبني محباً للمال ، بخيلاً . هذه حيلة ولعلها تزوجت المركيز من حيث لا ادري .. ترى من أين جاءت بالمال ؟ وتضعف فكره فلم يجرؤ على اتخاذ أي قرار حاسم .

الضباب الذي كان قد تبدد في اواسط النهار ، عاد يتكاثف حتى حجب عن عيني كورنتان اقرب الأشجار اليه . « تلك مصيبة اخرى » قال في نفسه وهو يبحث الخطى الى منزله . وكان من المحال رؤية شيء على بعد ست خطوات منه . بين الصخور العالية ، عثر كورنتان بفلام يتسلق الصخور فقبض على ذراعه وقال :

- من الحي ؟

فأجاب الغريب بصوت طفل بريء :

- انا ، يا سيدي .

- آه ! انت الصبي ذو القدم الحمراء . الا تريد ان تثار لوالدك ؟

- أجل .

- حسن ، هل تعرف « الغار » ؟

- نعم ، اعرفه .

- شيء عظيم ، عليك ان تلازميني وافعل ما اقول لك بدقة . وهكذا تكمل المهمة التي بدأتها امك وتكسب مبلغاً كبيراً من الفلوس ، هل تحب الفلوس ؟
- أجل .

- اذن فانت تحب الفلوس المستديرة الكبيرة وتريد ان تقتل « الغار » .. سأعنتي بك . وخاطب كورنتان نفسه قائلاً :

- ايه ! ماري ! ستسلميننا المريكيز بنفسك .. انها في حالة من الهياج لا تسمح لها بتمييز الضربة التي سأسدها لها . فضلاً عن ان العاشقين لا يدققون في الأمور ، فان هذه لا تعرف خط حبيبها المريكيز ، وهذا هو الوقت المناسب لمكيدة تحطم كبرياءها . لكن لا بد لي من هولولو لكي اضمن النجاح لحياتي . فلأذهب اليه .

في الوقت نفسه كانت الآنسة دو فرنوي وفرانسين تبجثان الوسائل الممكنة اتباعها لانقاذ المريكيز من كرم كورنتان المريب ومن حراب هولولو . فارتأت الخادمة ان تذهب بنفسها لتخبر « الغار » بالواقع . فلم يعجب هذا الرأي ماري لاستحالة العثور به او معرفة الطريق التي يسلكها ، وبعد ان استعرضتا عدة مشاريع خيالية ارتأت الآنسة دو فرنوي ترك الامور تجري في أعتتها الى ان يحضر المريكيز فان رأت أنه في خطر عملت بوحى الساعة .

وفيا هي فريسة للهواجس ، فهي متشائمة تارة ، وطوراً متفائلة ، اذا هي تسمع طلقات ارسلتها اثنتا عشرة بندقية دفعة واحدة في الخارج ، فشدت على يد فرانسين قائلة : اني أموت .. لقد قتلوا خطيبي .

وبعد قليل سمعت وقع أقدام ثقيلة في الصالون فنهضت فرانسين على رغبها ، وأدخلت الى مخدع سيدتها جندياً جمهورياً أدى للآنسة دو فرنوي التحية العسكرية وقدم لها رسالتين في ورقة قليلة النظافة ، واذ لم يتلق جواباً : قال انها من قبل القائد هولولو وانسحب .

قرأت ماري الرسالة الاولى بامضاء هولولو وقد جاء فيها ما يلي :
حضرة الآنسة .

لقد قبض رجالي على احد مبعوثي « الفار » فقتلوه . من بين الاوراق التي
عثروا بها معه رسالة أبعث بها اليك لعلها تفيدك بشيء .. الخ ..
ألقت رسالة هولولو في النار وهي تشكر الله لأنه لم يكن حبيبها هو القتل .
تنفست بارتياح وقرأت باهتمام زائد الرسالة الاخرى وكانت من التركيز موجهة
الى مدام دو غوا . وقد ورد فيها ما يلي :

... كلا ، يا ملاكي ، لن أذهب هذا المساء الى فيفتيير ، ستخسرين هذا
المساء رهانك مع الكونت ، اما انا فسأقهر الجمهورية بشخص تلك الفتاة اللذيذة
التي تساوي حتماً ليلة واحدة . وأظنك توافقيني على صحة تقديري ، ذلك هو
الريح الوحيد الذي سأحرزه من هذه الحملة الحربية ، اذ ان مقاطعة « فاندو »
استسلمت ، ولم يعد لي أي عمل في فرنسا . وسنرحل معاً وبدون شك الى انكلترا .
فالي الغد ..

سقطت الرسالة من يدها وأطبقت عينها في صمت عميق . لم تتحرك في مكانها
بل بقيت كما هي ماثلة الى الورا ، ورأسها مسند الى وسادة . وبعد قليل فتحت
عينها وتطلعت الى المنبه فاذا الساعة قد قاربت الرابعة . وبسخرية قاسية
قالت : وفوق ذلك فحضرته يأبى إلا ان يحضر متأخراً لينتظره الناس .
قالت فرانسين : ليته لا يأتي ..

– اذا لم يحضر ، ذهبت انا اليه ، ولكنه ان يلبث ان يكون هنا ، أنا جميلة
يا فرانسين ؟

– اراك صاحبة الوجه .

– انظري هذه الغرفة المعطرة ، هذه الازهار ، هذه الانوار ، أتسرى كل
شيء هنا يمكن ان يغطي فكرة عن حياة اللجنة لذلك الذي سأغرقه هذه الليلة
في لذة الحب .

– ماذا حدث يا سيدتي ؟

– الذي حدث هو انني ضحية خيانة ومخادعة ورياء ، لقد خسرت كل
شيء . وسأقتله حتماً ، سأمزقه تمزيقاً وانكل به تنكيلاً .. أي نعم ، كان في

حركاته وتصرفاته احتقار لا يحسن اخفائه ولم أشأ أن أستبينه . آه ! انني اموت ، لكم انا بلهاء ، سيحضر .. وفي هذه الليلة سأعلمه ان الرجل الذي نالني ، سواء أ كان زوجي او عشيقتي لا يمكنه قطعاً ان يتركني ، سأفصل انتقامي على قياس الاهانة ، وسيموت مقطوع الرجاء . كنت أتوسم فيه الشهامة والاباء ، ولكنه ، ولا شك ، من نسل نادل حقير لا من نسل امير خطير . لقد خدعني بمهارة حتى أبيت ان اصدق ان الرجل الذي سلمني لليل ميش بدون شفقة يمكن ان ينحط الى مخاتلات ومداجاة تليق بالرعا . أن يلعب على امرأة أحبته فذلك جبن ما بعده جبن ، ان يقتلني فلا بأس ، اما ان يكذب ! هو الذي رفعته في عيني ! الى المقصلة ، الى المقصلة وليتدحرج رأسه عن جسمه بلا أسف ، أتراني عاتية ؟ سأتركه يموت مغموراً بمداعبات وقبلات تكلفه عشرين عاماً من حياته .

بصوت عذب ملائكي هتفت فرانسيس مخاطبة سيدتها بقولها : كوني ضحية خطيبك ولكن لا تكوني عشيقته وجلاده ، احفظي صورتك في عمق قلبك متجنباً لا حانقاً ، لو لم يكن لنا في الحب اليائس أية مسرة فماذا يحل بنا نحن النساء التعمسات ؟ الله وحده يا ماري ، الله الذي لا تفكرين به مطلقاً ، هو الذي سيجزينا جزاء خضوعنا لحكمه علينا : حب واوجاع !

— يا لك من قطة ناعمة وما احبك الي من واعظة ! قالت لها الآنسة دو فرنوي وهي تلامس يدها ، وأضافت : في صوتك عذوبة وسحر ! وان الحكمة لتغدو عذبة على لسانك ، سأعمل بمشورتك ...

— أتسأحينه ولا تسلمينه ؟

— اصمتي ولا تعودي الى ذكر هذا الرجل ، لقد أصبح كورنتان بالنسبة اليه مخلوقاً شريفاً ، أفهمت .

قالت هذا ونهضت مصطنعة هدوءاً رهيباً ، وهي تكتم تضعضاً جارفاً وتعطشاً مريراً للانتقام . في مشيتها البطيئة المترننة تصم دفين يعلم الله على أي شيء انطوى . واتجهت نحو مركز حراسة مدخل سان ليونار لتسأل عن مقر القائد هولو . وما كادت تخرج من منزلها حتى دخله كورنتان فابتدرته فرانسيس بقولها :

- اواه ! يا سيدي . اذا كان يهملك أمر المريكز الشاب فانقذه . لقد قررت
الآنسة دو فرنوي ان تسلمه بسبب تلك الرسالة المشؤومة التي خربت كل شيء .
ببرود اخذ كورنتان الرسالة وسأل :

- الى اين ذهبت ؟

- لست ادري .

- انا ذاهب لانقذها من ياسها .

توارى حاملاً معه الرسالة . اجتاز المنزل بسرعة وسأل الصبي الذي كان
يلعب أمام الباب :

- في أي طريق سارت السيدة التي خرجت من هنا ؟

مشى ابن غالوب شوبين بضع خطوات مع كورنتان ليدله على الطريق
المنحدر الذي يؤدي الى مدخل سان ليونار .

في هذا الوقت دخل منزل الآنسة دو فرنوي اربعة رجال متنكرين لم
يرهم احد .

وقال كورنتان للصبي :

- عد الى حيث كنت ، وتظاهر بانك تتسلى بتحريك مزلاج الشباك وانتبه
جيداً ، تطلع في كل مكان حتى فوق السطوح .

وانطلق كورنتان مسرعاً في الاتجاه الذي اشار اليه الصبي ، متصوراً انه
يرى الآنسة دو فرنوي وسط الضباب ، ولحق بها لدى وصولها الى مركز سان
ليونار . فقال لها ، وهو يقدم لها ذراعه لتستند اليها :

- الى اين؟ انك صفراء اللون، ماذا جرى؟ هل يلقى بك ان تخرجي وحدك؟

اليك ذراعي .

ما كادت تنهي سؤالها عن مقر القائد حتى سمعت حركة استقبال عسكرية
رسمية خارج مدخل سان ليونار واستطاعت ان تميز صوت هولولو وسط الجلبة
وهو يقول :

- يا لصاعقة السماء ، في حياتي لم اقم بدورية في مثل هذا الضباب المشؤوم ،

لقد تحمك ذلك النيبيل بالوقت ، فالرياح تجري كما يحلو له .
اقتربت الآنسة دو فرنوي من القائد . وبعد ان ضغطت على ذراعه
خاطبته بقولها :

– من أي شيء تدمر ؟ هذا الضباب يخفي الانتقام كما يخفي الخيانة . المهم ان
تشارك معي في اتخاذ أضمن التدابير بحيث لا يتمكن الغار من الهرب اليوم .
– أهو عندك الآن ؟

– كلا ، لكنك ستعطيني رجل ثقة ارسله اليك ساعة وصول المركيز . وهنا
تدخل كورنتان :

– ماذا انت فاعلة؟ وجود جندي في منزلك سوف يخيفه ، اما وجود طفل
فلا يوحى بالارتياب ، وساجد لك هذا الطفل .

اردفت الآنسة دو فرنوي قائلة للقائد : بفضل هذا الضباب الذي تلعنه ،
تستطيع منذ الآن ان تطوف حول منزلي ، ضع جنودك في كل مكان . اقم الحراسة في
كنيسة سان ليونار لتراقب الساحة التي تطل عليها نوافذ صالتي . اقم معسكراً في
ساحة برومناد . ان نوافذ غرفتي ولو ارتفعت عشرين متراً عن الأرض فقد يحد
اليأس قدرة على القفز منها . اصغ الي ، ربما اخرجت ذلك الرجل من باب بيتي ،
فعليه لا تمهد بهمة مراقبته الا لرجل شجاع . اذ لا يمكن ان تنكر جرأة الغار ،
فهو ، لا بد سيدافع عن نفسه .

نادى القائد هولوا على الضابط غودن الذي حضر في الحال وقال له بصوت خفيض:
– اسمع يا ولدي . ان هذه الفتاة الصاعقة تريد ان تسلمنا الغار ولا اعرف
السبب ، ، وليس من شأني ان اعرف . خذ معك عشرة رجال وتمركز بحيث
ترى كل شيء ولا يراك احد .

– حاضر ، يا سيدي القائد ، انني اعرف هذه الديار .

– حسن ، يابني ، سأرسل اليك بوييه يندرك من قبلي بالوقت المناسب لتلعب
لعبتك ، احرص ان تلحق بالمركيز . اقله ان استطعت حتى لا اضطر الى قتله
بنفسي بعد المحاكمة ، فان كان قتله على يدك رفعتك الى رتبة ملازم والا لا

يكون اسمي هولو . وقال موجهاً الكلام الى الآنسة دو فرنوي :

- هذا ارنب لا يتراجع . سيؤمن الحراسة أمام منزلك . حتى اذا دخل
النبيل أو خرج فلن يخطئه .

ذهب غودن مع العشرة الرجال وما كاد يتوارى حتى التفت كورنتان نحو
ماري وقال لها بصوت خفيض :

- اتعرفين ماذا تفعلين ؟

لم ترد عليه بل استمرت تنظر بشيء من الرضى الى الذاهبين بقيادة غودن
ليتمركزوا في محلة برومناد . واستدارت لتقول للقائد :

- يوجد منازل ملتصقة بمنزلي . حاصرها هي الأخرى اذ لسنا مستعدين ان
ندم على اي تهاون في الوقاية .

قال هولو :

- انها متهيجة . فأسرّ كورنتان في اذنه قائلاً :

- الست نبياً انا ؟ اما الذي سأضعه في خدمتها فهو الصبي ذو القدم
الحمراء وبذلك ...

وقبل ان يكمل كلمته ، رأى الآنسة دو فرنوي قد انطلقت فجأة نحو
منزها ، فلحق بها وهو يصفر كالرجل السعيد الى ان وصلت الى مدخل المنزل
حيث كان ابن غالوب شوبين في انتظاره ، فقال لماري :

- ادخلي معك هذا الولد . لن تجدي احداً في مثل براءته وسرعته ،
وقال للصبي :

- عندما ترى الغار يدخل المنزل وتسمع اي كلمة تقال لك ، اهرب وتعال
الي تجديني في قيادة الحرس الوطني . سأقدم لك ما يكفيك من الفطائر
طوال حياتك .

ضغط الطفل على يد كورنتان تحبباً ولحق بالآنسة دو فرنوي .

ولما أغلق الباب تتم كورنتان بينه وبين نفسه قائلاً : والآن يا صاحبي تقاهما
قدر ما تشتهيان . اما انت يا مركيزي الصغير فان شئت ان تحب فسيكون
ذلك في نمشك !..

غير انه لم يشأ ان يحول نظره عن المنزل المشؤوم ، فتوجه الى محلة البرومناد حيث رأى القائد يوزع أوامره .

خيم الظلام وانقضت ساعتان دون ان يلحظ الحراس المنتشرون على مسافات متقاربة أي شيء يبعث الارتياح او يدل على ان المركز قد اخترق الحصار المثلث حول المنافذ الثلاثة الى برج باينغو .

وتنقل كورنتان بين البرومناد وقيادة الحرس الوطني مرات عديدة بغير جدوى ، فلم يشعر بمركبة مريبة ولا جاءه الصبي . وبأفكار مشوشة سار الى البرومناد بخطى بطيئة وهو يعاني أنواعاً من العذاب ، دوافعها ثلاثة : الحب والطمع والطموح .

دقت الساعة الثامنة ولم يطلع القمر ، فالظلمة والضباب غيمان على الأمكنة التي ينتظر ان تكون مسرحاً للمأساة التي يعدها هولو . لقد فرض عليه مفوض البوليس الاعلى الصمت التام فصمت وشبك يديه على صدره معلقاً بصره بالنافذة المرتفعة وقد بدت كشيخ مضيء فوق البرج ، وحين قادته قدماء جهة الوادي ، راح يراقب الضباب الموشح بأشعة صفراء تضيئها أضواء المنازل المبعثرة في المدينة والضواحي ، ولم يكن يعكر السكون سوى وقع أقدام الحراس او قعقة السلاح بين ساعة واخرى حين يبدل الحراس . كل شيء بدا في تلك الليلة ، شديد الوطأة ، صارماً ، الطبيعة والبشر .

في هذا الوقت بالذات كانت فرقة من الناعقين تزحف على البطن في الوادي السحيق ، يتقدمها مارش آتير وبيبل ميش . ولدى اقتراب الاخير من منزل الآنسة دو فرنوي قال بيل ميش : الظلام حالك كأننا في حلق ذئب . فأجابه مارش آتير : تابع زحفك والزم الصمت والسكينة التامة . اجاب الناعق :

– أكاد لا أجروء على ترديد أنفاسي .

– ان أراد ذلك الذي دحرج الحجر بقدمه ان يجعل قلبه غمداً لخنجيري

فليعد الكرة !

– انا من دحرج الحجر من غير قصد .

— قلت لك أيها الكيس العتيق ان تزحف على بطنك كحية السياج وإلا أصبحنا جثثاً قبل ان يؤون الاوان .
غير ان بيل ميش استمر زاحفاً نحو خط رفيقه مستعيناً بيديه للزحف على بطنه ، واذ حاذاه همس في أذنه بصوت خافت جداً قائلاً :
— ان صدقت الست الكبيرة فسجد في فوجير غنيمة مشبعة ، فهل تريد ان نكون شريكين ؟ .

توقف مارش آتير عن الزحف فاقتدى به جميع الناعقين الزاحفين وراه وقد أرمهم الزحف بين صخور الوادي الشاهقة ، وقال لبيل ميش : اصغ الي جيداً ، عرفتك محباً للغنائم كما عرفتك في المعركة تسدد الضربات أكثر مما تتلقى ، ولكننا لم نأت الي هنا لنحتذي أحذية الاموات . إننا أبالسة ضد أبالسة ، والويل لمن قصرت غالبه . ان الست الكبيرة (دو غوا) أرسلتنا لننقذ الغار ، وما هو هنا ، ارفع أنفك وانظر تلك النافذة فوق البرج .

انتصف الليل وطلع القمر فأضفى على الضباب لونا ابيض . فضغط بيل ميش بعنف على ذراع مارش آتير وهو يشير بصمت الي حراب مشهورة على ارتفاع عشرة اقدام فوقهم وقال : لقد تمركز الزرق وليس لدينا القوات الكافية لمجاهبتهم .
— صبراً ، لقد تحريت الأمكنة في الصباح فوجدت في اسفل البرج بين الحواجز والبرومناد مكاناً صغيراً يطرحون فيه القمامة ، ويمكننا ان نسقط فيه كما نسقط على السرير ، قال بيل ميش : لو شاء القديس «لابر» ان يحيل الدماء التي ستسفك خراً لوجد الفوجيريون غداً مؤونة كافية لسنة كاملة .

اطبق مارش آتير براحة يده العريضة فم صديقه ، ثم قال كلمة انتقلت من فم الي فم حتى آخر الناعقين المعلقين في الهواء بنواتيء الصخور .

كان لكورنتان سمع كسمع الخلد ، وبصر حاد يكاد لا يفوته شيء ، فاعتم ان سمع تحرك الحجارة تحت البطون الزاحفة ورأى اهتزاز الاشجار لدى مرور الناعقين . ويبدو انه كان لمارش آتير ، هو الآخر ، عينان اعتادتا الرؤية في الظلام وحواس متيقظة كحواس الحيوانات البرية ، فقد استطاع ان يتبين كورنتان

كما يتبين الكلب المدرب وجود الآخرين بالشم او بالحدس . لكن كورنتان بالرغم من تحريه السكون وتحديقه الى جدار الصخور الساكنة لم يكتشف شيئاً . فان اتاح له انقشاع الضباب العابر رؤية بعض الناعقين ، حسبهم من جلاميد الصخور لدقة مجاراتهم للطبيعة في الصمت والجمود . لكن لم يلبث الخطر الذي كان يهدد هذه الجماعة ان زال ، فقد استأثرت بكورنتان جلبة واضحة في الطرف الآخر من البرومناد ، في النقطة التي ينتهي عندها جدار الارتكاز ويبدأ المحدار الصخور ، وفي اللحظة التي وصل فيها كورنتان الى ذلك المكان ، انتصب امام ناظريه وجه آدمي ، فمد يده ليقبض على الخلق الوهمي او الحقيقي فاحس بحجم مستدير طري لا يكون عادة إلا في اجسام النساء . فانتهرها بقوله : خزاك الشيطان ! لو لم تكن وقعتك معي لاخترق الرصاص رأسك ... من أين جئت ، وأين تذهبين في مثل هذه الساعة ؟ ام انت خرساء ؟

علمت المرأة ان في سكوتها ما يثير الريب فأجابت بصوت ينم عن خوف عظيم :
- آه يا سيدي ، انا عائدة من سهرة .

- حسناً . اذهبي من هنا ايتها الساهرة ، من هنا الى اليسار ان اردت النجاة .
قال لها ذلك وظل جامداً في مكانه . الا انه حين رأى مدام دو غوا متجهة نحو برج بابيغو تتبعها من بعيد بمهارة شيطانية وقد تبين له انها تلك المرأة التي ادعت انها ام المركيز وتركها تذهب لترى أي شيء ستفعل . واثناء هذه المقابلة المشؤومة ، كان الناعقون قد تمركزوا فوق القمامة التي قادم اليها مارش آتير . وكالذب المدرب على الوقوف على قدميه انتصب مارش آتير على حائط البرج .
فاذا رأى مدام دو غوا اشعرها بوجوده مع رفاقه فقالت له :

- لو استطعت ان تجد سماً في هذا المنزل الذي تؤدي حديقته الى مسافة ست اقدام من المزیلة لنجا المركيز . اترى النور المنبعث من المدخ فوق ؟ انها غرفة التواليت المتصلة بالصالة ، الى هذا المكان ينبغي ان تصل بالسلم . هذه الجهة هي الجهة الوحيدة غير المحاصرة ، الجوادان جاهزان ، واذا كنت قد امنت ممراً في نانسون استطعنا في ظرف ربع ساعة ان نضعه في مأمن من الخطر على الرغم من جنونه . الا ان تلك الساقطة سثلحق به ، فان حاولت ذلك فاطعننا بخنجرك .

لاحظ كورنتان ان تلك الاشكال التي حسبها حجارة اخذت تتحرك فذهب
توأ الى مركز سان ليونار حيث وجد هولوا نائماً . فأيقظه واخبره بوجود الناعقين
في البرومناد . استغرب القائد وكاد ينكر ما يسمع ولكنه قال وهو شبه نائم :
- خير خير ، فالمعركة باتت قريبة .

وحين وصل هولوا الى البرومناد اراه كورنتان المركز الفريد الذي يشغاه
الناعقون ، فانتفض القائد وقال :

- لا بد انهم خنقوا حراسنا على طريقهم او خدعواهم . لكن ، صبراً ،
سأرسل الى اسفل الصخرة خمسين رجلاً بقيادة ضابط من ضباطنا الاشداء .
فليس من الحكمة مهاجمتهم في هذا المكان . لان هؤلاء الحيوانات ذوو اجسام
مدربة فبوسعهم ان يتدحرجوا الى اسفل الوادي كالحجارة دون ان يصابوا بأذى .
كانت الساعة تدق الثانية بعد نصف الليل حين رجع هولوا الى البرومناد بعد
ان اتخذ الاحتياطات العسكرية الصارمة ليواجه الناعقين وقائدهم مارش آتير .
وهكذا ضعفت عدد حراس جميع المراكز واصبح منزل الأنسة دو فرنوي
مركزاً لجيش صغير . ووجد كورنتان شاخصاً بعينيه الى النافذة التي تشرف
على برج بابيفو فقال له :

- اظن ان النبيل يتعمد ازعاجنا ، فحتى الآن لم يظهر شيء . فاجابه
كورنتان بان المريكيز حضر وانه رأى ظل رجل على الستارة وقال :

- انني قلق على الصبي الصغير ، فلعلمهم قتلوه او اغروه . وانها كذلك اذ
بجخال رجل يتحرك خلف النافذة فدعا كورنتان القائد لكبس البيت فابى هولوان
يقبض على المريكيز وهو في السرير وقال :

- كما دخل فسيخرج واذا ذاك نصطاده . هنا كرر كورنتان الطلب وأمره
باسم القانون ان يبدأ الزحف على المنزل ، فسخر منه هولوا بقوله :

- انك ما زلت اصغر من ان تصدر الأوامر .

وببرود ، ودون ان يعبأ بغضب القائد ، قال كورنتان :

- ستطيعني بموجب هذا الأمر الموقع بامضاء وزير الحربية ، ام انك تظن
اننا بسطاء الى حد ترك هذه الأنسة تتصرف على هواها ؟ انها الحرب المدنية ،

ونتائجها العظيمة تبرر الوسائط الحقيرة .

- اسمح لنفسي ايها المواطن ان .. أتفهمني؟ كفى . اغرب عن وجهي اسرع .

- ولكن ، اقرأ الأمر .. قال كورنتان .

- لا تزعجني بوظائفك ! صاح هولو في وجه كورنتان ، ورفض ان يتلقى

الاورامر من مخلوق يحتقره .

في هذه اللحظة ظهر ابن غالوب شوبين وسط الرجلين كجزء خرج من

الارض . وقال : - « الغار » آت في الطريق .

- من أي جهة ؟

- من طريق سان ليونار .

وهنا نادى هولو على بوييه وكان قريباً منه فطلب منه ان يسرع في تحذير

رئيسه الملازم ليتقدم نحو المنزل ويقم نطاقاً من الجنود حوله .

* * *

نعود الى الكلام عن الآنسة دو فرنوي وما حل بها بعد مقابلتها لهولو

وتحريضها إياه ، تحت وطأة الغضب الشديد ، على اتخاذ أقصى التدابير لاعتقال

المرکيز . فما كادت تقترب من منزلها وتشاهد رماح الجنود تطوقه بشكل محكم

حتى دهمتها موجة من الندم . أدانت نفسها بنفسها واعترفت انها ارتكبت جريمة

لا تغتفر . وانطلقت مسرعة نحو عتبة البيت حيث وقفت بعض الوقت جامدة

كالمثال ، محاولة عبثاً إيجاد أي سبب يبرر عملها . لقد ضاعت عليها معاني

حركاتها وما اقدمت عليه حتى انها غدت تتساءل وهي واقفة داخل الباب

وبيدها ولد مجهول . كان أمامها الوف من الشرارات تسبح في الفضاء كألسنة من

نار ، راحت تتمشى جيئة وذهاباً لتنفض عنها ثقل الهواجس التي غشيتها ، لكنها

كانت أشبه بالنائم لا ترى أي شيء على حقيقته ، ضغطت يد الصبي بشدة لم

يألفها من قبل ، وقادته بخطى سريعة أشبه بالمجنونة ، ولم تكن ترى شيئاً مما في

الصالة حين اجتازت عتبتها ، مع ان ثلاثة رجال أدوا لها التحية وانفصلوا عن

بعضهم ليفسحوا لها مجال المرور ، قال احدم :

- ما هي قد أقبلت . وقال الكاهن :

- انها جميلة . وردد الاول : حقاً انها جميلة ولكن .. انها شاحبة اللون منفعلة .

- وشاردة الفكر الى حد انها لا ترانا : قال ثالثهم .

على باب الغرفة لمحت الآنسة دو فرنوي وجه فرانسيس اللطيف المرح اذ اقتربت من اذنها وممست : انه هنا يا ماري ! هنا تنبته الآنسة دو فرنوي واستعادت وعيها ، تفرست ملياً في الطفل فعرفته وقالت لفرانسيس : ان اردت لي الحياة فعخذي هذا الولد فاحبسيه لديك واحرصي ألا يهرب .

وفيا هي تتلفظ بهذا الكلام ركزت بصرها على باب غرفتها وبقيت برهة محدقة ، لا يطرף لها جفن كأنها ترى أمامها ضحيتها من خلال الستارة السميكة ، دفعت الباب بهدوء ثم أقفلته دون ان تدبر ظهرها لأنها لمحت المريكز واقفاً امام المدفأة . كان مرتدياً بدلة العرس وقد بدا أنيقاً وجذاباً . لدى هذا المشهد ، استعادت الآنسة دو فرنوي كامل وعيها فعلت شفيتها ابتسامة صفراء ومشت ببطء نحو الشاب ولقمت نظره باشارة من اصبعها الى المنبه وقالت :

- الرجل الجدير بالحب ، جدير بنا ان ننتظره .

وما كادت تنهي كلمتها حتى هوت على المقعد تحت ضربات الضمير القاسية . جلس المريكز الى جانبها وراح يداعب يدها ويلطفها راجياً ان تمنحه نظرةً ضمنت بها . وقال لها : ما اروعك في غضبك ، يا ماري . انا واثق من انك ستندمين بعد لحظة لانك حولت وجهك عن زوجك السعيد . لدى سماعها هذه الكلمة التفتت نحوه فجأة وحدجت عينيه بنظرة فاحصة عميقة دون ان تقول شيئاً . فقال باسمًا وملاطفاً :

- ما معنى هذه النظرة الرهيبه؟ وما هذه الحرارة في يدك يا غرامي؟ - غرامك؟ - اجل ، يا غرامي ، انا لك مدى الحياة . قال ذلك وهو جاث على ركبتيه امامها ، يفرق يديها بقبلاته . لكنها دفعته بمحنق وراحت تضحك كالجنانين وهي تقول : - انك لا تصدق ولو بكلمة ايها الرجل المخاتل المختال .

ثم نهضت واستلت خنجرها من قرب اثناء الزهر . وقربت شفرته البراقعة من صدر المريكز مهددة . لكنها سرعان ما لقت الخنجر جانباً وهي تتلفظ بهذه العبارات القاسية :

- انك احقر من ان اقتلك بيدي . حتى الجندي ذاته أرفع من ان يدنس

سيفه بدمك ، لا ارى احداً يليق بقتلك سوى الجلاد .

بصعوبة كانت تتلفظ بهذه الالفاظ وترقص قدميها كالطفل المدلل . واذ اقترب المريكيز منها ليمسك يدها نفرت منه وهي تتمهره صائحة : لا تقريني .
- انك لمجنونة .

- اجل ، مجنونة ولكن ليس الى حد امكنتك فيه ان تجعلني العوبة بين يديك . اغفر لك كل شيء في الحب ولكن لا اسمح لك ان تمتلكني بدون الحب كما كتبت تقول لتلك ال... - لمن كتبت ؟
- الى تلك المرأة التقية التي تمنى قتلي .

اصفر وجه المريكيز واسند ظهره على المقعد وصرخ قائلاً :

- ان تجرأت مدام دو غوا على مثل هذه النذالة ...

بحث الآنسة دو فرنوي عن الرسالة ، ولما لم تجدها سألت فرانسين عنها . فاجابتها ان كورنتان اخذها ، وهنا ادركت ماري الحقيقة وقالت :

- كورنتان ! لقد كتب الرسالة وخدعني . يا له من شيطان ماكر . واطلقت

صيحة مريرة وسقطت منهارة القوى على المقعد وفيض من الدموع ينهمر من عينيها ، فالشك مروّع كاليقين . وانطرح المريكيز على قدمي حبيبتيه . ضمها الى صدره وهو يردد : لم البكاء يا ملاكي ! اين الخطأ ، شتائمك مليئة بالحب . لا تبكي ، لا تبكي ، احبك ، احبك دائماً والى الأبد . - اما زلت تحبني ؟

- وهل تشكين في ذلك ؟! وكان صوته حزيناً خافتاً .

افلقت فجأة من بين ذراعيه وابتعدت عنه مسافة خطوتين ، وقالت :

- ان كنت اشك ؟..

كان جواب المريكيز ابتسامة عذبة كلها مرح وحبور فاسلست له قيادها حين اخذها الى عتبة الباب حيث رأت في آخر الصالة مذبحاً اقيم اثناء غيابها . وكان الكاهن لابساً بذلة القديس ، والشموع مضاءة .. وعرفت من بين الرجال الثلاثة الذين حيوها لدى دخولها الكونت دو بوفان والبارون دو غونيك وهما الشاهدان اللذان اختارهما المريكيز دو مونتوران لزاوجه .

وبصوت خافت سألتها المريكيز : اما زلت ترفضيني ؟

امام هذا المشهد، تراجع فجأة لتذهب الى غرفتها حيث ارتمت على ركبتيها ورفعت يديها نحو المريكز قائلة : آه ! ساحني ، ساحني ، ساحني !
انطفأ صوتها والتوى رأسها الى خلف مطبقة العينين بين اذرع المريكز وفرانسين كأنها تلفظ الروح. فاذا فتحت عينيها التقى نظرها بنظر الرئيس الشاب وهو يتطلع اليها بحنان وعطف وسمعه يقول :

- صبراً يا ماري .. هذه العاصفة هي الاخيرة ... - الاخيرة ؟

تبادل المريكز وفرانسين نظرات الدهشة الا انها فرضت عليها الصمت بحركة من يدها . ثم قالت : احضرا الكاهن واتركاني معه .
جاء الكاهن فاختلت به وقالت :

- يا أبتي ، في طفولتي رجل عجوز ، شعره ابيض كشعرك . كان يقول لي دائماً : بالايمان الصحيح ينال المرء كل شيء .. فهل هذا صحيح ؟
- اجل صحيح .. كل شيء ممكن للذي خلق كل شيء .

وهنا جثت الآنسة دو فرنوي وهتفت بجملة : يا إلهي ، ان ايماني بك يعادل حبي للمريكز ، اهدني يا إلهي الى ما فيه خيرنا ، اصنع معجزة او خذ حياتي ،
تمم الكاهن قائلاً : دعاؤك مستجاب يا بنيتي .

مستندة الى ذراع الكاهن العجوز ، دخلت الآنسة دو فرنوي الى الصالة وفي قلبها عاطفة عميقة غامضة أسلمتها الى حب حبيبها بكل ما في روحها من شوق وحرارة . بدا وجهها مشرقاً سعيداً، كأن هالة من النور السماوي احاطت به، ومدت يدها الى المريكز. فاقتربا معاً نحو المذبح حيث جثا الحبيبان وبارك الكاهن زواجهما بطريقة مخالفة للتشريع الجمهوري الجديد. وقبل ان يبدأ الكاهن الورع مراسم التكريس سأل عن اسم الخطيبة فأجابت : ماري نتالي ، ابنة الآنسة بلانش دو كاستيران المتوفاة وهي رئيسة لدير سيدة سيز ، وابنة فكتور اميدي دوق دو فرنوي . مولودة في شاستيري ، بالقرب من ألسون .

وكان اسم المريكز وألقابه قد دونت مسبقاً فوق الزوجان والشاهدان وثيقة الزواج. وبدأت الحفلة. وفي هذه اللحظة سمعت ماري قرعة بنادق ومشية عسكرية ثقيلة ونظامية لجنود خمنت انهم جاؤوا ليردفوا حراسة الزرق الذين كانت

او عزت بتمر كزهم في الكنيسة . فارتعشت ورفعت عينيها نحو الصليب على المذبح .
تمتت فرانسين : انها الآن قديسة .

فقال الكونت بصوت خافت : لو مُنحت قديسات امثال هذه القديسة
لأصبحت من اعظم الاتقياء .

وحين وجه الكاهن للآنسة دو فرنوي السؤال التقليدي اجابت بـ « نعم »
مع زفرة عميقة . ومالت الى اذن زوجها لتقول له : بعد قليل ستعرف لماذا
حنثتُ بقسمي القديم ألا تزوجك ابداً .

بعد انتهاء حفلة الزواج ، وبعد ان دخل الحضور الى صالة الطعام وجلسوا
حول المائدة وصل جيريمي مدعوراً ، فنهضت العروس التمسة تتبعها فرانسين
لمواجهة القادم بعد ان اختلقت بعض الاعذار وطلبت من الماركيز ان يتأس حفلة
المائدة . ثم قادت الخادم قبل ان يلفظ كلمة تدل على شيء من حقيقة الخبر المشؤوم
الذي يحمل أنباءه .

— آه ! يا فرانسين ، أحس الموت يسري في جسمي وانا لا اجرؤ ان اقول :
اني اموت .

قالت ماري هذا ، ثم لم تعد الى المائدة .

كان لغياب العروس ما يبرره في حفلة كهذه الحفلة التي أقيمت لزواجها .
وبعد انتهاء الطعام ، وبعد ان بلغ قلق الماركيز حده الاقصى عادت ماري في اجمل
وأبهى بدلة من بدلات الزواج . كان وجهها طروباً هادئاً ، اما وجه فرانسين
فكان ينبض في جميع قسماته بالخوف والهلع . ورأى الضيوف في هذين الوجهين
اللوحة الغريبة الفريدة للموت والحياة متماسكين بالأيدي كما كان يمكن لسلفاتور
روزا ان يخلدهما بألوانه الغريبة الاطوار .

قالت العروس للضيوف وللکاهن :

— ستكونون جميعكم ضيوفي في هذه الليلة لأن في خروجكم من فوجير في مثل
هذا الوقت خطراً على حياتكم ، وستقود هذه الفتاة الطيبة كلاً منكم الى مخدعه .
واذ حاول الكاهن ان يرفع صوته بالاعتذار أسكتته ماري بقولها :
— لا تثر يا سيدي الكاهن ، لا اظنك ستختبج رجاء عروس في ليلة عرسها .

بعد ساعة واحدة اختلت العروس بجيبها في الغرفة الشبية التي أتقنت
اعدادها . ووصل الاثنان الى ذلك السرير المشؤوم كالقبر ، حيث تدوب الآمال
ويموت الحب الوليد مع الصباح .

وتطلعت ماري الى المنبه وقالت لنفسها: لم يبق لنا سوى ست ساعات نحياها.
وفي الساعة الثانية صباحاً استيقظت العروس واستغربت كيف استطاعت
ان تنام . وراحت تتأمل المريكيز وهو نائم . كان رأسه مسنداً الى احدى يديه
كالطفل ويده الاخرى ممسكة بيد زوجته وهو مبتسم نصف ابتسامة كأنه نام
على قبلة شبية .

هزته بلطف فاستيقظ وختم ابتسامته ليقبل اليد المسك بها . وتطلع في
هذه المرأه التعسة بعينين شرهتين لم تستطع تحمل اللذة الناضحة منها فحولت
عينها عنه لتمنع نفسها من تحديق خطر .

لاحظت موجة من الكآبة تغمر وجهها فسألها بصوت خنون :

— لم هذه الظلال الكئيبية على وجهك يا حبيبي ؟

— مسكين انت يا الفونس الى اين تعتقد اني وصلت بك ؟

— الى السعادة . — بل الى الموت .

قالت هذا وهبت واقفة وهي ترتجف من الرعب . ونهض بدوره ولحق بها
الى قرب النافذة . ابدت ماري حركة من نوع الهذيان ثم رفعت ستائر الزجاج
وأرته باصبعها العشرين جندياً المتمركزين في الساحة . لقد كان ضوء القمر قد
بدد الضباب فظهرت ملابس الجنود وبنادقهم كما ظهر كورنتان الخفيف يروح
ويجيء كشمس يترقب فريسته ، وظهر كذلك القائد هولو جامداً مشبوك الذراعين ،
أنفه في الهواء وشفته مصرومتان ، متيقظاً وحزيناً .

— دعيمهم وشأنهم يا ماري وتعالى الى ..

— لماذا تضحك يا ألفونس . انا التي وضعتهم هنا ..

— أتهدين ؟ — كلا .

تبادلا النظرات فأدرك المريكيز كل شيء ، ومع ذلك طوقها بذراعيه وقال :

أحبك دائماً .

سكنت لحظة و اردفت قائلة : هل من أمل ؟

وفي هذه اللحظة سمعا نعيم البومة وخرجت فرانسين من غرفة الزينة لتقول بفرح يقرب من الهديان :

- لقد جاء بيار (مارش آتير) .

ساعدت فرانسين المركيزة في إلباس مونتوران بذلة ناعق بسرعة لا يتقنها سوى النساء . واذ رأت المركيزة زوجها يتمنطق بالاسلحة التي جاءت به فرانسين أعطت اشارة خفية الى البريتونية الامينة فقادت المركيز الى غرفة الزينة المتصلة حيث شاهد كمية كبيرة من الحرامات المشدودة الى بعضها والتي أعدتها فرانسين لخداع الجنود الرابضين في الساحة .

قال المركيز حين رأى ضيق الكوة :

- يستحيل علي ان أمر من هنا .

في هذه اللحظة أطل من الكوة وجه ضخم أسود وسمع صوت أجش عرفته فرانسين ، وقال بهدوء : اسرع يا سيدي . ان الزرق بدأوا يتحركون .

وضع المركيز قدميه على سلم النجاة . وكان جزء من جسمه لا يزال في الكوة حين أحس ان زوجته تلتصق به بحنان يائس . فاذا نظر اليها وجدها مرتدية ثيابه . ففطن الى قصدها ، وصاح محاولاً ان يأخذها معه لكنها انتشرت منه فاضطر الى الهبوط وحده ، وما كاد يصل الى اسفل السلم حتى انطلق صوت هولوي يأمر جنوده باطلاق الرصاص . ومن اعماق الوادي حتى أعلى البرج توالى طلقات الناعقين جواباً على رصاص الزرق . كان الضحايا يتساقطون دون ان يحدثوا حساً واستمر اطلاق النار من الجانبين .

كان كورنتان قد سمع سقوط احد الاشخاص من الطابق العلوي من المنزل ، فاشتبه بوجود كمين ما . ولما كان لجوجاً في كشف النقاب عن هذا السر ، أرسل ابن غالوب شوبين ليأتيه ببعض المشاعل . وكانت ظنون كورنتان قد بلغت ادراك القائد الذي كان منهمكاً في مراقبة سير المعركة الحامية امام مركز سان ليوناز فصرخ مؤيداً ظنون الجاسوس وجزم بأن الذي سقط هو واحد وليس اثنين . وانطلق الى مركز الحرس الوطني حيث لقيه بوبيه وقال : لقد

أفرغنا الرصاص في رأسه ولكنه كان قد قتل غودن وجرح اثنين من جنودنا ،
لقد كان هائجاً الى حد انه اخترق نطاق ثلاثة صفوف من الجنود وكاد يصل سالماً
الى الحقل لو لم يدركه حارس مدخل سان ليونار بطعنة من حريته .

لدى سماعه هذا الكلام أسرع هولو الى مركز هيئة الحرس الوطني ورأى
على السرير جسم المريكيز المزعوم ، اقترب منه ورفع القبة التي كانت تغطي وجهه
واذا هو وجه المريكيزة العروس لا المريكيز . فتهاوى هولو على الكرسي ، وراح
يسبل شعر المرأة الاسود الطويل . وفجأة انقطع حبل الصمت بقرعة السلاح
تحية لكورنتان الذي دخل مركز الحرس الوطني يتبعه أربعة جنود جعلوا من
بنادقهم شبه محمل يحمل مونتوران مصاباً بعدة طلقات وبكسر في ساقه وفي
ذراعه . وضعوه على السرير الى جانب زوجته ، فرآها واستطاع بعد جهد ان
يمسك يدها وهو ينتفض ويتشنج . أدارت بصعوبة رأسها نحوه واذ عرفته
انتفضت من رأسها حتى أطرافها ، وتمتم بصوت خافت أليم : يوم بلا غد .
واستجمع المريكيز قواه وقال للقائد ، وهو ممسك بيد زوجته : اني اعتمد على
شرفك لتبلغ نبأ وفاتي الى شقيقي الموجود في لندن وان تقول له في رسالة
خاصة ان وصيتي الأخيرة له قبل ان ألفظ النفس الأخير ألا يحمل السلاح ضد
فرنساو ألا يتخلى عن خدمة الملك . فوعد القائد الشاب المشرف على الموت بأنه
سينفذ طلبه وهو يضغط على يده قائلاً : سيكون لك ما أردت .

فاستدار هولو نحوه صاح كورنتان : خذوها الى المستشفى القريب . وضغط
على ذراعه بقوة حتى ترك أثر أظفاره على جلده وقال له : أما وقد انتهت مهمتك
عند هذا الحد ، فاغرب عني وتطلع جيداً في وجهي حتى لا أصادفك أبداً في
طريقي بعد اليوم ، هذا اذا شئت ألا اجعل من بطنك قراباً لسيفي المسنون .
قال هولو ذلك واستل سيفه .

فابتعد كورنتان عن القائد وهو يتمم في طريقه قائلاً :

هذا ايضاً واحدٌ من اولئك الرجال الشرفاء الذين لن يتعملوا قط كيف
يجنى المال وتُنال المراتب ...

واستطاع المركز ان يشكر خصمه بايماءة من رأسه تعبيراً عن تقدير يكتنه
الجنود دائماً لأعدائهم من ذوي النخوة والشهامة .

في سنة ١٨٢٧ ، شوهد في سوق فوجير رجل عجوز برفقة زوجته يساوم على ثمن
المواشي دون ان يعترض أحد سبيله، على الرغم من انه كان قد قتل اكثر من مئة
رجل، وعلى الرغم من كون الجميع يتذكرون أنه لُقب في الماضي بـ «مارش آتير» .
وان الشخص الذي ندين له بأثمن المعلومات عن شخصيات هذه القصة شاهد
مارش آتير يقود بقرة ويسير ببساطة تدعو الى القول : هذا رجل طيب . اما
زميله سيبو الملقب بـ «بيل ميش» فقد عرف الجميع كيف انتهى ! ولعل مارش آتير
قد بذل أقصى جهوده لينقذه من المقصلة، لكن دون جدوى .

ولعله كان حاضراً ، في ساحة النسون ، حين حدثت فيها تلك الاضطرابات
الحثيفة التي كانت حلقة من الأحداث العنيفة التي رافقت دعوى السادة ريغويل ،
وبريون ، ولاشتري الشهيرة .

فوجير : في آب (اوغسطس) سنة ١٨٢٧

عويدات للنشر والطباعة ١١١٤ / ٢٠٠٨

0000

1947CN

الناعقون



النسخ كاملًا

الناعقون

... سألها المركيز:

- وهل نحن جميعاً مشمولون بهذا العفويا أنسة؟

لم ترد عليه، بل انطلقت ترقص بحماسة الأطفال، تاركة المركيز في حيرة، لاحظت أنه يتأملها وعلى وجهه مسحة من الكآبة، فأحنت رأسها بظرف ودلال، على قدر ما سمحت به قبة معطفها، ولم تبخل بأي حركة من حركات الإغراء وهي تتمايل بقدها المياس. لقد كانت تجذب كالأمل وتهرب كالذكرى، ومن يراها هكذا يود امتلاكها بأية ثمن. لقد كانت تعرف ذلك وبقينها بسحر جمالها أضفى على وجهها جاذبية فوق الوصف...

علي مولا

ISBN 978-9953-28-107-6



9

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban



عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان